
لينا هَوْيان الحسن
أنطاكية
ومُلوك الخفاء
رواية
التنوير

إهداء

بالحكايات يشفَى العالم.

إلى غاستون كوراني وزوجته بديعة باشا قره لار. بامتنان كبير أشكر لهما مشاركتي ذكرياتهما عن سنجق إسكندرون وأرياف أنطاكية، في فترة الثلاثينيات من القرن العشرين.

لأنه بالحب ينبغي البدء:

الى «أ. ز.»، القلب المشرّع على اتساعه، كلّنا ملكٌ للذاكرة.

لينا



ملوك الخفاء..
أنطاكية - شمال سوريا

خرافة:

اعتاد أهالي ريف أنطاكية رؤية خنجر قديم مغطّس بماء الذهب، وخاتم فضيّ تتوسطه حبّة عقيق أمام راويتهم وعرّافتهم، «مريم الهدهدية»، التي تتزيّن بريشة هدهد تثبّتها في شعرها المتدلّي فوق صدغها. تقصّ «الهدهدية» حكاياها عن الملوك الذين اعتلوا عرش الماضي ولم تزل ذريّتهم تتحكّم وتتدبَّر في الخفاء كل ما يحدث.

إنها ألاعيب وحقائق، مآسٍ وأفراح، خرافات ووقائع... هؤلاء الذين لا نستطيع أن نراهم، لا يظهرون للبشر، يعيشون في الأحلام والحكايات وفي قصائد الحالمين. إنهم كائنات لا تموت، هم بالضبط ما نرغب أن نكونه. إنهم صانعو أحلامنا ورغباتنا. حين نخافهم يحوّلون حياتنا إلى شقاء، فالخوف شقاء. إنهم الأسرار والخبايا، ولا توجد المتعة إلا حيث توجد الأسرار والخَبايا.

نقدّم لهم القرابين رجاء رضاهم.. ونخاف غضبهم، غضبٌ يزلزل كياننا ويعبث بحياتنا... لا أحد يستطيع خداعهم. أشدّ ما يثير غضبهم هو «النسيان». لذلك يحضرون أمام كل عقدة تعترض حياتنا، أفرادًا أو جماعة.

الملكة تيخا: دعست على عنق نهر العاصي وأجبرته على الانعطاف ليصبَّ في البحر. ملكة، جنّية، من ملوك أنطاكية، عذراء، قاسية، صارمة،

بوجهَيْن. أحدهما جميل والآخر قبيح، يتناوبان على النوم والاستيقاظ، ويُقال إن الوجه الجميل أكثر استغراقًا في النوم ليحافظ على جماله. هي الملكة المتنفِّذة الطاغية والغاشمة. يخرج القرويّون في ليالي الخسوف المكتمل يرجونها الصفح خائفين من غضبها. ويتمتمون بكلمات خافتة تستعطف قلبها، فهي حين تغضب قد توقف مدّ البحر، أو تجفّف العشب، أو تبرّد الجو، أو ينطلق الجنّ في مياه البحار، وتحوِّل السفن إلى حطام، وتكتم أنفاس الغرقى الأخيرة.

الملك باخوس: ربّ الخمرة، ذكَرٌ، ماكرٌ، عاشقٌ، ماجنٌ، ذكيٌّ، جميلٌ، صريحٌ، مغوٍ، موجودٌ في كل الأمكنة، ولا يستقرّ في مكان. جنّي لذة العقل، والتحرّر الكامل من الخوف والقلق. ولأنه يعلم أن آلام الروح أكثر قسوة من آلام الجسد اخترع الخمرة وعلّم البشر صنعها ليمنحهم نعمة «النسيان» المؤقتة، لأن هدوء البال سرّ السعادة كما يرى هذا الملك المطمئن، الذي سخَّر مواهبه لابتداع النسيان.

الملكة عشيرة: المشتهية، الشهيّة، اللعوب، جنيّة لذة الجسد. تتحرّك مع حشد الحوريات السعيد. ربّة السرور وبهجة الحب. هي عفريتة الحبّ والقبَل والنشوة. حافظة أسرار الأنوثة المغوية. تربّي في كل قلعة حيّة ضخمة، هي ملكة غواية، تقدّم النساء لها سرّاً الأضحيات: أرانب، وحمائم، وجداء وديَكة روميّة مسمَّنة. يقدّمنها لتلك الحيّات التي لا يُعرف لها عمر لتنقذهنّ من إهمال الحبيب. تختار واحدةً منهنّ

وتمنحها أسرارها لأنها وحدها تكون قادرةً على اكتناه سرّ الغواية وجنون العشق. وهذه تكون منتصرة وسعيدة.

الملك شام: الغامض، الخفيّ، المنفرد، المارد، الحاضر في غيابه. لكلّ شيء عنده إيقاع. الكون موسيقى، الأفلاك والكواكب نوتات تعزف وتبثّ الجمال. لا يعرف الاستقرار، يختفي ويعود، إنه جنيّ التغيير، والتدفّق المباغت. تتبدّل هيئته، وتتقلّب ليكون في كل مرّة أكثر جمالًا وبهاءً. هو ملك الجاذبيّة. يعتبر أن الجمال والتناغم ينقّيان الرّوح. متحرّر لا تقيّده أزمنة أو أمكنة. ناريّ، شهوانيّ، عاشق، محارب.

يطيل الغياب لكنه عندما يحضر يبدّل المسارات.

1

امرأة ورثت طاقة «عشيرة» في الحب

«يجب أن نعامل الحبّ، كالملوك: ننحني أمامه، نخشاه ونجلّه. فإن غاب وقع الموت».

بهذه العبارة استُهلّت رواية صدرت العام 1960 في باريس. رواية تجري حوادثها في شمال سورية: قصة حب، وحكاية عائلة، وجريمة. حكاية عن منطقة تعيش فيها جماعتان: جماعة الشّمسيين وجيرانِهم القمريّين!؟ مكان وُلدت تضاريسه من حبّ عنيف ليس فيه حياء، وشغف لا يعرف التردّد أو الخجل، وتوق يطوّع الزمن ويحوّله بحسب الرغبة.. وكلا الجماعتين تعتقدان بأن هذه الجبال والوهاد والغابات تكوّنت في لحظات نشوة عنيفة! فكل جبل يبدو أنه انفلق عن الجبل المقابل له، وظلّ يتوق إلى لحظة استعادة ماضيه الملتحم بنصفه الثاني الذي يعشقه. ولو تتبّعنا ما تحكيه الرّواية التي تبدو أقرب إلى الأساطير، لأدركنا أن التقويم الذي يعتمده أولئك الذين يعيشون في تلك البقعة ما زال يقوم على علاقة قويّة ومستمرّة مع تاريخ سحيق عاش فيه ملوك وآلهة في تلك الأرض. وما زال أهلها، الذين صاروا مسلمين ومسيحيين يقيمون طقوسهم وشعائرهم الشمسيّة والقمريّة وفق الحكايات التي تناقلوها كحقيقة، لتتحوّل إلى ألاعيب على مسرح خيال الرواة. يكتب الراوي أن حوادث روايته لا تمت إلى الواقع بصِلة!! لكنه يكذب ليهرب ويتخفّى..

قد يعتقد القارئ أن رواية حملت عنوان «صيّاد أنطاكية» تنشر أوراقها فوق ذرى جبال الأمانوس وتبلّله بمياه نهر العاصي، وتوزّعه على مياه البحار، هي رواية من نسج بنات الخيال اللّعوبات، وقد صوَّرن لنا قريتين هما: «نيكال» التي تحمل اسم جنيّة تعيش وتتعبّد وفق حركة منازل القمر؛ و«شباش» التي بنَتها جنيّة تسيّر حياتها وفق حركة الشمس. وبين القريتين تلّة تحمل اسم ربّة الحب «عشيرة»، بُني عليها قصر لعائلة الباشوات الذين تحكّموا بالقريتين. لكن أفرادها لم يستطيعوا التخلّص من تأثير خرافة تقول إن التلة التي بُني عليها قصرهم منذورة لسيدة الشهوة والغرام «عشيرة»، وأن تلك التلّة شهدت جماع الملك الجبّار الخفيّ البعيد «شام»، مع جنيّة الشّهوة وبهجة الحب «عشيرة».

أراد كاتب الرواية، إخفاء الوقائع، لكن الوقائع الملهمة، والحاسمة، في حياة كلّ جماعة، تتحوّل إلى خيال يغذّي نظام حياتها، ومع الزمن تتحوّل إلى أساطير. فلا تموت.

يعيد الكاتب ترتيب صورٍ التقطها بنفسه لأفراد عائلته، وبقدر ما حاول الإيهام بأنها رواية لا أساس لها في الوقائع، فإن تلك الحوادث ستتحوّل إلى أسطورة عن نساء ورثنَ طاقة «عشيرة» في الحب، وكل منهنّ تبحث عمّن ورث طاقة «شام» في الشّغف، فيشتهيها كما اشتهى شامٌ عشيرة.

مهما حاول الرواة، ستبقى تلك القصص عصيّة على تبديل رموزها المرتبطة بعصيان نهر العاصي.

ستبقى مستنقعات سهل العمق حيث أوقفت ربّة سورية وحاكمتها آنذاك، «تيخا»، قبل آلاف من الأعوام، ذلك النهر العاصي وحوّلت مستنقعاته إلى منطقة مسحورة. داست على كتفه ولوت عنق النهر، المتمرّد على الاتجاهات، وأجبرته على الانعطاف ليصبّ في البحر، بعد أن كان عصى رغبتها وغيَّر مجراه محدِثًا فوضى في تلك المستنقعات، التي تجوبها القوارب رائحة وغادية في مياه المسالك الثعبانية بين أجمات القصب فتخفي أكثر مما تكشف... ومنحته اسمه.

ستبقى حكاية «عشيرة وشام» أشهر حكايات أهل أنطاكية الذين أنّى تشرّدوا، وأينما ارتحلوا حملوا معهم حكاياتهم. حكايات تتجدّد ولا تنتهي. تشكّل خلفية لكل الحوادث التي تصنع رواياتهم وحكاياهم التي يعيشون عليها ويعيدون إليها تفسير كل ما لا يستطيعون تفسيره في حياتهم.

2

قصرٌ على التلّة

هنا، حدث كل شيء هنا، على ضفّة ذلك «العاصي»، في زمن ما قبل سلخ لواء اسكندرون وإلحاقه مع أنطاكية بجمهورية أنقرة، في زمنٍ ما زال تذكّره ينكأ ذلك الجرح المؤلم، تبدأ الحكاية.

«إما حياة يلهمها الشغف ويضيئُها العشق، وإما حياة مظلمة كئيبةٌ مهدورة؟ هما خياران للعيش، لا ثالث لهما». تستهلّ الهدهدية بهذه العبارة وهي تروي خرافة برج الأختين الذي لا يبعد كثيرًا عن قصر الباشا منجوك:

«في زمان سحيق، مرَّ في تلك المنطقة ملكٌ جبّار اسمه «شام». كان يملك من البهاء ما يجعله آسرًا، غاويًا، حوَّل العشق إلى فنّ. وعلى الرغم من أنه مرغوب من النساء أنّى حلّ، إلّا أنّ الملك العظيم البهيّ «شام»، كان يحلمُ بمعشوقة تتحوّل قبلاته على جسدها إلى ألوانٍ ولوحاتٍ، وأن يرسما بانتشاءاتهما خطوطًا تهندس الطبيعة البشرية، وتعيد تشكيلها ليغدو الحبّ أروع ما يُبدَع. إنه جنّيٌّ ملك، فنان. جاب الكواكب والمجرّات قبل أن يلفته هذا «العاصي»، فيتوقّف على تلك التلة يتأمّل مجرى ذلك النهر الذي يعاند قوانين الطبيعة.

إنها حكاية تحوَّلت إلى أسطورة أو خرافة! حكاية عن جنية أنطاكية «عشيرة»، يوم استعرّ الشّبق بينها وبين الملك الكوني الغامض الذي يجوب الأرض باحثًا عن تلك التي تجعل الحب فنًّا وغواية.

كانت لحظة انجذاب مذهلة: حبّ، اتّحاد، توق، رقص، عزف، موسيقى... صورة الجمال المطلق. تضاجعا وكأنّهما يؤمنان بأنهما جاءا إلى العالم لإعادة خلقه، لتجميله، ورسمه بأبهى شكل. انظروا إلى تلّة عشيرة من بعيد، ألا تشبه جسدين يتّحدان في أعلاها؟ إن تلك التلة انبثقت في لحظة أوج العشق.

كانت لوحة تقلّب فيها جسد عشيرة ألف مرة، ورسم شام عليها ألف تفصيل. أربع وعشرون ساعة تعاقب عليهما فيها الليل والنهار وهما يتضاجعان، فيجعلان كلّ شيء يهتزّ. تقلّبا ألف مرّة. ألف مرّة تكفي عن ألف عامٍ من البحث عن معشوقة.

كانت نتيجة هذه المضاجعة أن أنجبت عشيرة توأمين: صبيًّا وبنتًا لهما من الجمال ما يُبهر.

أما أختها «تيخا» فلم تنجب قَط. كانت ترعى نسورًا تراقب كلّ ما يحدث في السماء، أمّا خبايا الأرض فقد أوكلتها إلى طيور الهدهد تنقلها إليها».

تضيف الهدهديّة: «تيخا لا تقلّ جمالًا عن أختها عشيرة. لكنها لم تعرف العشق، فظلّت قاسية متجبّرة. كلّ امرأةٍ لم تعشق تكون قاسية.

اعتبرت «تيخا» نفسها حامية العذراوات والمخلصات، وربّة الوفاء. على عكس أختها عشيرة التي تعلي من شأن الحب، وتحرّض على العِشق والنزوات المتملّصة. وتعتبر أن الحب يكون رائعًا بقدر ما يكون عابرًا وابن لحظته.

لقد كان غضب «تيخا» على أختها مخيفًا. فما أشرس الأوفياء! وما أشد انتقام قساة القلوب، المتمسّكين برفضهم لكلّ ما هو عابر. يُقاس الزّمن عندهم بالقرون، أما عند العاشقات: الزمن لحظات، قد تساوي لحظة منه قرونًا.

كرهت تيخا أختها بسبب تمرّدها، وكرهت أكثر التوأمين، وصبّت لعنتها عليهما أكثر من أختها. لعنةٌ أصابت الولدين فمات الصبيّ ثم لحقت به أخته في أقلّ من شهر.

بسبب توأمَيّ أختها، ظلّت تيخا تصب لعنتها على كل التوائم. وسجنت عشيرة في قلعة بنَتها على تلك التلة التي شهدت تمرّدها على قوانين أختها. قلعة بنَتها لا لتحتجز فيها عشيرة فحسب، بل لتكون رمز انتصارها.

وهكذا سارت العادة في تلك المنطقة، فصار الطغاة يبنون القلاع رمزًا لقوّتهم، وتعبيرًا عن انتصاراتهم. يحتجزون فيها من يتمرَّد عليهم ويجعلونها مركزًا لفرض سلطتهم. وكلما هُزم ملك تندثر قلعة وتُبنى قلعة جديدة. هكذا بُنيت واندثرت قلاع كثيرة في ريف أنطاكية: «قلعة دربساك، قلعة بيلان، قلعة المركز وقلعة بغراس...».

«لكن قوّة الحبّ تزيح الجبال»، تختم الهدهديّة حكايتها وهي ترى فجرَ وقد غلبها النوم.

أهالي أنطاكية يصدّقون الخرافة، فيتحدّثون عن أعاجيب وحوريات، ويشهدن على مكانة القلعة ومحيطها. كأن نضارة أشجارها المعمّرة التي

تبقى نضرة، حتى في مواسم الشحّ، دليلٌ على غرابة تاريخها. ويتحدّثون عن أن هذه الأشجار أدخلت جذورها في أسس القلعة وهدمت أسوارها، وأطلقت عشيرة أشجار رمّان وزيتون وتين وسنديان وصنوبر، تعود أعمارها لمئات السنين، تتبرّك بها النساء سرًّا. تلك الأشجار هي التي أغرت الباشا ببناء قصره على تلك التلّة المثيرة. هكذا كان يقول، لكن أبناء المنطقة يقولون إنه بناه وفي ذهنه الحكايات المنقولة عن حميميّة المكان. بناه بحجارة القلعة الدّارسة كنوعٍ من تأكيد قوته وقدرته على التحدّي.

وسرعان ما غدا القصر مفخّخًا بالصراع بين «عشيرة» العاشقة، و«تيخا» العذراء التي تكره العاشقين بقدر ما تكره التوائم.

3

توائم القصر

فسَّر القرويون ولادة التوائم عند آل منجوك بالخصب الذي غرسته عشيرة في المكان.

ففي ذلك القصر وُلد الشقيقان التوأمان منجوك. الأول صادق باشا، الذي ورث سطوة أبيه وقسوته وقدرته على التحكم في الفلاحين، والثاني ممتاز بيك، الذي صار طبيبًا برتبة عسكرية مرموقة في الجيش التركي.

تخرّج الشقيقان من مدرسة غالاته سراي في إسطنبول، بعد أن أتمّا تعليمهما المتوسط في المدرسة الرشدية الحلبية. وبناء على رغبة أبيهما الذي كان يحمل رتبة باشوية كبيرة «بكلر بكي» أي بيك البكوات، وهي من رُتَب الباشوية الرفيعة وفق التشريفات العثمانية آنذاك، فقد أتم ممتاز دراسة الطب ثم التحق بالكلية العسكريّة. بينما لم يُكمل صادق تعليمه وانتقل ليساعد والده في إدارة أراضيه الواسعة. وعند وفاة الباشا منجوك، حمل صادق رتبة باشوية أيضاً، هي رتبة ميرميران أي «أمير الأمراء».

أكثر ما يذكره الجميع عن الابنَيْن، هو تعلّقهما ببعضهما البعض، رغم أن طبائعهما متباينة: صادق بيك يعشق النساء والخمر والقمار والصيد، بينما ممتاز بيك جدّي ومتديّن وزاهد متمسّك بالفضيلة.

تزوّج الشقيقان التوأمان من قريبتَيْن لهما، هما أيضًا توأمتان: الأختان مجيدة وفريدة.

في شتاء 1910، ولّدت مجيدة، زوجة صادق باشا، توأمين من الذكور، هما: كيوان وعوني. أما فريدة، زوجة الطبيب ممتاز بيك، التي ظُنَّ أنها عاقر، فقد ولدت بعد ثلاث سنوات توأمتين إناث، هما: فهريّة وبدريّة.

فريدة ومجيدة، المتخرّجتان من مدرسة الراهبات الفرنسيسكانيات في حلب، واللتان تقرآن باللغات العربية والتركية والفرنسية، لم تقيما أيّ وزن لحكايات عرّافة المنطقة ودايتها الشهيرة مريم الهدهدية واعتبرتاها خرافات.

كما رفضت الشقيقتان القادمتان من حلب خرافة أن المكان الذي غدا سكنًا لهما شهد عناقات ومداعبات وشهوات فاضحة حرّكت الجبال!

«ما هذا التخريف؟ هراء! كفر!»، تكرّر كلٌّ من الشقيقتين، المتمسّكتين بأصول الدين والرّافضتين لكل ما هو خارج عن تعاليم الدين الحنيف.

ولولا تلك الحادثة الأليمة التي ألمَّت بآل منجوك لما كان لحكايات الهدهديّة، ولا لنصائحها بالتحرّز من غضب كائنات غامضة غير ملموسة، ذلك التأثير.

فقد قُتلت مجيدة، زوجة صادق باشا المحبوبة، بطريقة مأساوية. فقدت حياتها عقب أشهر قليلة من ولادة توأميها: «كيوان وعوني». فهي بعد أن شكت من عسر بالإرضاع جرّبت معه أدوية الأطباء، تنازلت عن كبريائها وذهبت إلى الهدهديّة التي وصفت لها أعشابًا كانت هي تحضّرها وتعجنها، فلا يعود أحد يعرف ما هي تلك الأعشاب. لكن المفاجأة كانت أن مجيدة صارت

قادرة على الإرضاع إنما ليس بما يكفي توأمَيها. وهكذا عادت إلى الهدهدية التي أشارت عليها أن تزور مغارة تقصدها النساء في أعضاد جبل باريشا.

«من تلك المغارة تنبع مياه تساعد المرضعات على إدرار المزيد من الحليب»، قالت الهدهدية.

كانت مجيدة خانم تعبر مضيق دلفة مع حاشيتها. وخلال استراحة قصيرة في طريق العودة، على يسار المضيق حيث أطلال قصر البنات الذي يقال إنه كان ديرًا كبيرًا يأوي الحجاج في طريقهم من وإلى بيت المقدس، هاجمهم قطاع طرق. امتطت مجيدة خانم حصان أحد التفنكجية، الذي قُتل في أول رصاصة أطلقها اللصوص. حاولت النجاة بنفسها، لكنّها حوصرت في المضيق واخترقت رصاصة ظهرها، وبعد قصر البنات بمئتي متر، على يسار الطريق وفي أعسر مكان في المضيق تحت نحت بارز في الصخر، حيث نُقشت تهنئة للقيصر ماركوس أوريليوس في أحد انتصاراته، سقطت عن الحصان. انتُزعت مصاغاتها التي كانت تحيط بها جيدها وتزيّن قبَّعة على رأسها ملفوفة باليشمك الأبيض، وقُصّت جدائلها المضفورة بعشر ليرات من الذهب، وتُركت لتلفظ أنفاسها الأخيرة.

لاحق صادق باشا أولئك اللصوص لمدة عامين حتى قتلهم واحدًا واحدًا، وفي كل مرة كان يربط الواحد منهم إلى صخرة في المضيق ويبقى يراقبه عن بُعد بينما تلتهمه الضباع حيًّا.

ولولا أن مجيدة خانم لم تخبر أحدًا بزياراتها

للهدهدية، كما أحاطت زيارتها إلى المغارة بسرّيّة تامّة، لقيل إن الهدهدية أخبرت اللصوص بزيارة مجيدة خانم إلى الجبل.

4

آل منجوك العام 1925 وقانون القبّعات

أصدر كمال أتاتورك قانون القبَّعات، وتغيّرت أشياء كثيرة. أصبح الطربوش متَّهَمًا، ومشبوهًا. صار رمزًا للرّجعية والتخلّف ورفض التحديث، وأُقرَّ قانونًا رسميًّا بمنعه. لكن الطربوش كان قويًّا ودافع عن نفسه وعن ماضيه وتاريخه، وانقلب سببًا يدفع الناس إلى التمرّد والثورة والعصيان، وحتى إلى الهجرة.

كان الجنود في الجيش التركي الحديث متديّنين، فغالبيتهم من الأرياف. بينما الضباط الشباب، وقد تعلّموا في مدارس إسطنبول وغيرها من المدن، فكانوا في غالبيتهم لا يقيمون وزنًا للعادات والتقاليد. كان قانون منع «الطربوش» سببًا مباشرًا لهجرة العائلات المحافظة. فقد اعتبروا هذا القرار إذلالًا، ومؤشّرًا على ما كان قد بدأ من التضييق عليهم في ظل سياسة التحديث والتتريك التي قادها أتاتورك. هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى شمال سوريا، وخاصة إلى مدينة حلب. هاجروا ليحتفظوا بـ«الطربوش» رمزًا لهويّتهم وذاكرتهم وماضيهم. رُفضت القبّعات وحدثت ثورات بسبب ولاء الناس للطربوش وتمسّكهم بعاداتهم.

لم يكن صادق بيك معنيًّا بالقضية، ذلك أن سوريا أصبحت تحت الانتداب الفرنسي ولا يُطبَّق قانون القبّعات في أنطاكية. احتفظ بطربوشه ومسار

حياته اللاهية. بينما نُفيَ ممتاز بك، الذي كان يخدم في صفوف الجيش التركي طبيبًا، إلى رومانيا، لأن الادارة التركية الأتاتوركية لم تكن راضية عن تمسّكه بأداء الصلاة. لكنه هرب وعاد إلى أنطاكية على أثر إعدام صديقه الشيخ عاطف أفندي الذي كتب رسالة «تقليد الفرنجة والقبَّعة». أُعدم الشيخ من دون محاكمة عقب إقرار قانون الأمن والسكون الذي صدر لأجل قمع الثورات المناهضة للتحديث. وصدرت الصحف التركية تحمل عناوين بالخط العريض: «تنفيذ حكم الإعدام بالشيخ عاطف الأسكليبي مؤلّف الكتب الرجعية»، دفع هذا الإعدام ممتاز بك إلى مغامرة الهرب والعودة. والأرجح أنه أراد المشاركة في مواجهة ما يفرضه أتاتورك على المتديّنين.

***

لم يكن صادق باشا، الرجل القوي المُهاب، يؤمن بتلك الحكايات التي سمعها مرة بعد مرة من الهدهدية التي باتت الأكثر قربًا منه. خرافات! يقول دائمًا إنها خرافات. لكن حتى الذين كانوا يعتبرون حكايات الهدهدية، عن أقوام وملوك وجانّ وعفاريت عاشوا وتدخّلوا بتشكيل جبال وغابات وحدائق أنطاكية، خرافات. وينكرون أي دور لتلك الخرافات المنتشرة في تاريخ تلك المنطقة، ما كانوا قادرين على تجاهلها، وتحضر في أذهانهم عند كل مصيبة. حتى صادق باشا صار يتقبّل تحذيرات الهدهدية التي لا يفهمها ولكنها تصيب في أمور غريبة. خاصة تلك الأمور التي تتعلّق بمطالع القمر، والأوقات التي تحذّره

منها عندما يكون مقدِمًا على عملٍ من أعماله السرّية.

يجلس صادق باشا في أحد ملاهي حلب مستمتعًا بصوت مغنّية حلب الشهيرة فيروز ماميش يصدح وهي تغني (فيك كل ما أراه حسن). كان القمر بدرًا عندما عرضت غجرية رومانية هربت من إسطنبول إلى حلب عقب الحرب الكبرى، وكانت ترقص في الملهى، أن تقرأ له ورق التاروت. كان قد ثمل تقريبًا عندما وافق على أن تقرأ له حظّه. بدا مشوَّشًا ومرتبكًا وهو يسمع الغجرية الجميلة تحكي له عما ينتظره، بعد أن أتت على سيرة شقيقه التوأم محذّرة من شرٍّ قد يصيبه.

شعر صادق باشا بأن تلك الغجرية لم تكن تقرأ في ورق التاروت، بل تعرف شيئًا عن أخيه لا تريد قوله مباشرة بسبب خوفها، فهي رومانية وشقيقه في رومانيا. وهكذا، من صباح اليوم التالي قرر ضرورة التواصل مع شقيقه. كان منشغل البال، حتى إنه فكّر في العودة من حلب والذهاب إلى رومانيا سرًّا لتحذير شقيقه، لكنه لم يكن يستطيع عدم تلبية دعوة مرعي باشا الملّاح والي دولة حلب بمناسبة افتتاح حديقة جديدة. فالملّاح المولع بتجميل مدينته كان قد افتتح قبل سنة «مصلحة الغرسيّات» لأجل صيانة الحدائق العامة. وهو اليوم دعا البكوات والوجهاء لافتتاح هذه الحديقة.

فالباشا، رغم قلقه وخوفه وإحساسه بالخطر بعد قرارات أتاتورك وسياسة التتريك، غامر بمغادرة

أراضي ملكيته متوجّهًا إلى حلب ليكون بين الحضور في غداء قصر الناعورة. فلم يكن صادق باشا ليفوّت اجتماع الباشوات. أولئك الذين ابتدأت سلطتهم قبل ما يقارب عشرة عقود. يوم أصدر السلطان محمود الثاني عام 1832 مجموعة من اللوائح التنظيمية لقانون التشريفات العثمانية، التي تضمّنت القواعد الناظمة لمنح ألقاب النبالة الرسمية. كان قد حصل جدّ صادق على لقب الباشوية في ذلك التاريخ، وكانت رتبة باشويته رتبة عسكرية «برنجي فريق»، أي «فريق أوّل»، لأنه كان قد رافق السلطان محمود وأثبت ولاءً وشجاعة في ما تولّى من مهمّات.

ذلك كان حال كلّ طبقة الباشوات والبكوات بالوراثة في حلب. معظم الذين كانوا يجتمعون في قصر الناعورة كانت تتصدّر أسماء أجدادهم قوائم أصحاب المراتب التي يُصادَق عليها بشكل سنوي من الكتب السلطانية: «سالنامة دولت عليّة عثمانية».

لم يفلح في تحذير شقيقه. فالرجل الذي أرسله إلى رومانيا لم يجد شقيقه على العنوان الذي أرسله صادق باشا إليه، إذ إن شقيقه غادر عائدًا إلى تركيا قبل وصول الرسول.

قبل يومٍ واحد من موعد عودته، كان صادق باشا يسهر في أحد ملاهي حلب ويشعل ورقة بنكنوت بقيمة مئة ليرة، لمغنية يعشقها، استهزاءً بالنقود الورقية التي حلّت محلّ عملات الذهب بعد أن سحب الفرنسيون احتياطي الذهب من بنوك دمشق بذريعة استبدالها بالعملة الورقية، عندما

سمع نبأ مقتل شقيقه التوأم.

عند سماع الخبر انفتحت نافذة مباغتة في رأسه على خرافة مريم الهدهدية، التي طالما تحدّثت عن اللعنة التي تصبّها تيخا على التوائم، بسبب غيرتها من شقيقتها عشيرة، التي ضاجعت شام على التلّة التي بُني عليها قصر منجوك.

كل ما عرفه أن شقيقه عاد سرًّا وانضمَّ إلى معارضي أتاتورك. نصب له الأتراك كمينًا بينما كان يسير على ضفة النهر الأسود، بمحاذاة أطلال جدار السلوقيين، الممتد من سفح الجبل إلى ساحل البحر. وهو الجدار الذي بناه الرومان لسد طريق الجيوش الزاحفة من الشمال إلى الجنوب. هناك بالضبط حاصروه. في المضيق الذي يسمّى باب كيليكية. ركض حصانه بمحاذاة السكّة الحديدية التي مدّها الألمان من الأسكندرون إلى حلب.

في تلك النقطة، حيث تعلو أعمدة رخامية أثرية يعرفها الملّاحون باسم أعمدة يونس، ويزعمون أن الحوت الذي ابتلع النبيّ يونس لفظه على شاطئ هذا المضيق، وأن جسد الإسكندر بعد موته وضع فوق هذا الباب ومرّ من تحته قوّاده وجحافله. هناك قتل ممتاز بك، ومُثّل بجثته لتكون عبرة.

غادر صادق باشا منجوك حلب في صباح يوم غائم وبارد. كان يعبر جسر مراد باشا ذا السبع عشرة قنطرة، المشيَّد على نهر يغرا الذي يأتي من الشمال من بحيرة يغرا، ليصبّ في الجنوب في بحيرة أنطاكية، عندما التقاه الرسول الذي حمل بعض أغراض شقيقه: علبة تتن من الفضة منقوش عليها نسر من الذهب، كان هو صاغها له عند

صاغة حلب، وقدّمها له هدية عقب انتهائه من دراسة الطب. كاسكيت مطويّة الجنب كان يضعها على رأسه. طُرِّز على القبعة بخيط من الحرير الأخضر أول حرفين من اسمه ولقبه بإبرة زوجته فريدة خانم، سكين جيب طي مع شفرات من الصلب الدمشقي، ومقبض من العاج عليه اسم العائلة الكامل مع نقوش دقيقة لظباء تركض.

حذَّره حامل الأمانة من كمين قد يُنصب له هو أيضًا، فالأتراك لا يريدون بكوات رجعيين في المنطقة، كما قال.

تطيّر مما قاله الرسول. هل تكون لعنة التوائم؟

تذكّر بأسف تحذير الرومانية التي يبدو أنها كانت تعرف أخاه، وسمعت شيئًا يخصّه. كان عليه أن يبادر فورًا للذهاب للبحث عن شقيقه. انحرف عن الطريق الواصلة بين حلب والإسكندرونة، واجتاز جسر عفرين متّجهًا إلى الجنوب ليصل إلى قرية «يني شهر»، التي يقطنها الشركس، ويبيت عند مختارها. لكن المختار حذّر الباشا من أن الأتراك يعلمون أنه قبل سنة من ذلك التاريخ قد جمع تواقيع وأختامًا من مخاتير وأعيان سنجق الإسكندرون، في عريضة تطالب بعدم فكّ السنجق عن دولة حلب. يومها قام الباشا منجوك بتقديم العريضة لمرعي باشا الذي خاطب بدوره الجنرال الفرنسي مكسيم ويغان المفوّض السامي الفرنسي. وكان رد ويغان أن نفى تلك الإشاعات مؤكّدًا أن لا أصل لها. لكن الباشا منجوك كان لديه رأي صائب حول نوايا الأتراك تجاه الحدود الشمالية لسوريا. فقبل ثلاثة أعوام من ذلك

التاريخ سُلخ لواءي أورفة وعينتاب عن الخارطة السورية. ومنذ ذلك الوقت، راح صادق باشا يهرّب السلاح إلى الأكراد الثائرين على قانون الطربوش وعلى قرارات التتريك وأشياء كثيرة.

المخاطر حقيقية إذًا، وهنالك نيّة تركية لاغتياله بعد أن اغتالوا شقيقه.

صلى صلاة العشاء وانخرط في بكاء مرير بسبب تأخّره عن حماية أخيه. وكان منشغل البال، إذ حضرت في ذهنه كل تلك الحكايات الخرافية عن مصائر التوائم من آل منجوك الذين يعيشون في ذلك القصر على تلك التلة. وقرّر أن يترك القصر وينتقل خوفًا على ابنتّيْ شقيقه، وابنَيه، وتداركًا لما قد يحصل له هو نفسه.

لربما كان تغيّر شيء ما في قدَر التوأم منجوك لو أن رسالة الهدهدية وصلت في أوانها، وغيّرت مصير صادق لينجو أحد الشّقيقين. لكن الفارس المرسل من قبل العرّافة لم يصل في وقته، ولم يبلّغ أحدٌ صادق باشا أن الأتراك يرابطون على طريقه في كمين محكم لقتله.

قُتل ممتاز بيك، وقُتل صادق باشا قبل أن ينفِّذ قراره بترك القصر والانتقال من تلك التلّة.

5

الهدهدية حارسة الحكايات

الهدهد طير تحميه تيخا! خرافة، نعم، لكن هنالك سيدة عرفتها كلّ ربوع أنطاكية، كانت تضع في شعرها ريشة هدهد. اختزلت تاريخ السحر السرّي القديم والمجيد بصوتها الخفيض، فالصوت العالي يستفزّ، ويستدعي أولئك الذين يعيشون في تلك الأساطير.

لا تأكل اللحم، تعيش على اللبن والعسل والفاكهة والخضار الخضراء عدا الخس.. ولا تشرب شيئاً غير الماء. لم تحظَ بجاذبية الجمال، لكن لوجهها تفاصيل تعلق في ذهن من يراها، مثل ذلك الفلق العميق في ذقنها النافرة، بينما أنفها يبرز فوق فم دقيق للغاية، عيناها مزرورتان بأهداب قصيرة، بالكاد يومض لونهما الأزرق الحبري، ليضفي مسحة جمال متردّدة وغريبة على تلك المرأة الواثقة والذكية، القادرة على التغلغل وراء أقفال النفوس وأسرار الملامح.

تعثر الهدهدية بنظرة واحدة على نقاط ضعف قاصدها، وتدرك أسبابه في خلال بضع دقائق. تردّد دائماً: البشر إما لوّامون، وإمّا غيورون أو بكّاؤون متشائمون متذمّرون، أو ساخطون عالقون في شباك الماضي، فيعيشون متحسّرين أو يقضمون أظافرهم وهم يفكّرون بما يخبئه المستقبل، فيقضّ القلق مضاجعهم. قليل بينهم الذين أدركوا أن سرّ السعادة في الاستغناء وعدم الطمع.

مريم، الملقّبة بـ«الهدهدية»، لا شمسية، ولا قمرية. لا تنتمي لأحد، لكن الهمس كان كثيرًا حول حقيقة أنها ابنة مالك سلامون الصابئي من مدينة حلب، العرّاف الذي اختفى في ظروف غامضة. قيل إنه اختُطف وقتل في اسطنبول بناء على أمر من الباب العالي مباشرةً لأنه تنبّأ بزوال حكم السلاطين، كما تنبّأ بقتل أسرة قياصرة روسيا آل رومانوف. بل يُقال إنه تنبّأ بالوقت والتاريخ.

أكثر ما اشتهر به آل سلامون هو «الحِجامة»، وكان صادق باشا يتردّد على دارتهم في حلب ليحتجم. وهو من أتى بمريم وأمّها إلى ريف أنطاكية بعد أن غدت العائلة ملاحَقة بسبب «النبوءة».

لُقِّبت بـ«الهدهدية» بسبب مشط تبزغ منه ريشة هدهد كانت تثبّته دائمًا فوق صدغها مشبوكًا بشعرها الأسود الغزير. مريم ابنة قوم يتعبَّدون الكواكب، ويصرفون لها الصلوات والأضاحي والبخّور. تمنح لأشجار بستانها أسماء، وتحدّث عنزاتها التي تشرب حليبها عن كل ما يواجهها، حتى قيل إنها تستشيرها، وإنها جنّيات.

تؤمن بأن لكل شيء روحًا، حتى الحجارة والصخور والمياه والأشجار. تقرأ حديث الفلك وحركات الأجرام ومطالع القمر والنجوم ومنازلها ووقت طلوعها ونوئها واقتراناتها وتفرّقاتها ومقاديرها وتربيعها وتثليثها وتسديسها. وأحكام ساعات النهار والليل واليوم والشهر. تُنعت بالدّاية. ويخاطبها الصغار بـ«يامو»، لكن الجميع يتعاملون

معها على أنها عرّافة وساحرة، ويخافونها. مزاجية، بقدر ما هي طيبة وتساعد كل من يلجأ إليها، فإنّ طباعها حادّة. تعشّش في أرضها الهداهد، وتتميّز دارها بأشجار السرو الباسقة، حيث تبني الهداهد أعشاشها بأمان. أثبتت هذه الطيور الرشيقة والجميلة أمانتها منذ عهد الملك سليمان. لا يصيدها أحد، إذ ساد اعتقاد، ساهمت الهدهديّة في تكريسه في الأذهان، بأنّ من يقتل هدهدًا يصاب بلعنة تبعده عن أهله سبع سنوات. الإيمان بهذه الخرافة حمى هذه الطيور الجميلة من جشع البشر. وتقول الهدهدية إن تيخا هي التي وضعت قانون النفي هذا.

«الهدهدية» هي الابنة الوحيدة لسيدة تشاركها الغموض ذاته. قدمت من حلب واشترت دارًا هي بقايا عمارة رومانية قديمة، لربما كانت كنيسة أو ديرًا بسبب الصلبان التي تظهر على عدة حجارة في بدن الدار. اشترتها مع بوائكها وكرومها. وبرعاية صادق باشا استقرّت في تلك الدار التي تقع على تلّة صغيرة يتاخمها الماء من جهتين. وفي أوقات الشتاء والفيضانات تتحوّل التلّة إلى جزيرة.

أثبتت الأم أنها داية وطبيبة تداوي بالأعشاب، وغدت مقدَّرة ومحترمة، بل مُهابة يقصدها الناس لأجل الاستطباب. عندما ماتت الأم عاشت مريم وحدها في تلك الدار الكبيرة التي رمّمتها أمها من دون أن تخشى شيئًا.

زعم الأهلون أن مريم متزوّجة من جنّي. ولهذا رفضت كلّ الذين تقدّموا لها، إذ لا يمكنها الزواج

من إنسي. لكن الحقيقة أنها وقعت في غرام رجل واحد، مع أنه لم يبادلها مشاعرها قط، هو صادق باشا منجوك. لهذا سرت شائعة قيل فيها إنها هي السبب في ذلك المصير القاسي الذي أنهى حياة زوجته مجيدة خانم أفندي، لأنها أرادت أن تستأثر بصادق باشا..

للهدهدية رهبة وحضور يثيران خوف كلّ الأهالي. سيدة تعلّمت من أمها الكثير، واكتسبت من خبرة الحياة ما يحتاج غيرها لأضعافه من السنوات.

تكرّر أن كلّ الأمراض سببها «المشاعر»، وأن معظم ما يحدث سببه إما «الكره» وإما «الحب»، وعنهما ينشأ ويوجد كل شيء. الكره انشقاق والحب اتحاد. كلّ ما يحدث حولنا هو أجزاء تتفرّق أو تتّحد، يتكوّن العالم ويستمر في دورته الأزلية، حياةً وموتًا.

ويُقال إن الهدهدية تحرّك كائنات من الهواء وأخرى من النار، تقرأ ذؤابات اللهب وحركة الريح. تلتقط الحدث القادم من أثير غامض. ويمكنها تحريك كائنات لا مرئية...

العلامات التي تميّز الهدهدية تزيد من الشكوك حول إنسيّتها: الشعر الأجعد الغزير، القامة النحيفة الليّنة، الأنامل الطويلة والدقيقة، أنف أقنى مترفع، عينان شكّاكتان وذكيّتان. كما تتميّز بعباراتها المحمَّلة بمعانٍ عميقة لطالما أدهشت من يفهمها من أين تستقيها. وهو ما جعل حتى الذين قرأوا في المدارس وتعلّموا، تداخلهم شكوك حول هذه المرأة المسكونة بالأرواح، ولكن

أيضاً لا تخفى عليها أي واقعة تحدث في محيط اهتمامها. وهي الداية والطبيبة والعالمة وملجأ لكل من أضناه سرٌّ وما عاد قادرًا على احتماله، وخاصّة من فتيات ونساء قريتَي نيكال وشباش.

ورثت الهدهدية عن أمها «عربخانة»، وكانت تؤجر الخيول والعربات للمسافرين. ويقول أهل قرية نيكال إنها، بعد وفاة أمها، نقلت كل ما تملكه من الذهب الذي كانت تخبّئه أمها في البنك السلطاني العثماني إلى بنكو دي روما في طرابلس. بينما يؤكّد أهل قرية شباش أنها تمتلك عمارة بطابقين وحَوْشًا ومساكن وجنائن وبوايك في أحد أحياء أنطاكية القريبة من حدائق دفنة، اشترتها من أرباحها عندما شاركت صادق باشا في تجارة الأسلحة الروسية من بنادق موسين ناغان، التي نقلتها بعرباتها، وباعها للأكراد وأن هذا ما تسبّب بقتله.

لكنَّ الحقيقة المؤلمة، أنها باعت كل ما تملك، وهو أقلّ بكثير مما قيل، إضافة إلى الذهب الذي تركته أمها، وأعطته إلى صادق باشا ليستثمره في تجارة السلاح. وخسرته مع مقتل صادق باشا، ولم يتبقَ لها سوى بعض الليرات الذهبية تعتاش من بيعها كلما احتاجت، وتلك الدارة التي تقع على تقاطع الطريق الواصلة بين قريتي شباش ونيكال، حيث تتفرّع سواقي العاصي، مع غابة من الدروب التي تلتف حولها أشجار الدلب والصفصاف والدردار، وقليل من مصاغ أمها تحتفظ به اتقاءً لتبدّل الظروف.

دار كلام كثير عن علاقتها مع صادق باشا

منجوك، وعن عداوتها مع فريدة خانم. والجميع يعرف كيف أنه يوم وقع صادق باشا في الكمين وقُتل، كانت الهدهدية أول من وصل لتجد الباشا معفَّرا بدمه. وكيف أنها زعمت أن فيه رمقًا من روح، وتريد أن تطبّبه. فطلبت من اثنين من التفنكجية كانا يرافقانه أن يحملا جسده إلى دارها لتداويه. وهناك أغلقت الباب وانخرطت بالنحيب وغمرت جسده بالقبل إلى أن بزغ الفجر ووصلت أرملة أخيه ممتاز باشا، فريدة خانم أفندي، مع تفنكجية القصر وأخذت جثة زوج شقيقتها المتوفاة.

تبادلت المرأتان نظرات حادة كأنصال السكاكين. لم يخفَ قط على فريدة خانم عشقَ الهدهدية لصادق. وتشكّ في أنها هي من أقنع زوجته الراحلة مجيدة خانم أفندي بالذهاب إلى تلك المغارة في أعضاد جبل باريشا لأجل زيادة إدرار حليبها، لأن أختها سألتها عن رأيها باللجوء إلى الهدهدية.

تكرّر الهدهدية حكاية «تيخا».. التي داست عنق نهر العاصي المتمرّد على قوانين الطبيعة.. وأرغمت الماء المتفلّت من قوانين الجاذبية أن يخضع لها. أجبرته على الالتواء، انعطف مرغمًا، هزمته امرأة. شقّ مجراه غاضبًا هادرًا، انطلق من منبعه بجبروت الماء وبعزم ذكر كُسرت نرجسيّته.. داست غروره وحبّه لنفسه واعتداده باندفاع مجراه. صار متهوّرًا طائشًا، اختار الصخب والعنف في سيرته المائية.

أخضعته تيخا، لكنها لم تستطع وضع حدّ

لشهوته.. حاولت أن تؤنّثه. لكنه ظلّ ذكرًا، وكلّما خفقت رغبته، أغرق امرأة.

«نهر يشتهي النساء. بدأت سيرته بنزاعٍ ضارٍ بينه وبين امرأة كارهة للرجال»، تقول الهدهدية.

رغم حب أولئك الفلاحين لنهرهم، إلا أنهم يخافونه. خطوط حياته تحفر عميقًا في حكاياتهم السرّية. إنه النهر الذي لا يلفظ غرقاه. يحملهم سرًّا، تحت جنح الظلام إلى أمكنة مجهولة.

لا عجب أن تلك الغابات أنجبت كل تلك الحكايات عن كائنات خارقة، خرافية، تحلّق فوق ذرى صخورها المسنّنة الخطرة المغطاة بالضباب. ملوك وأرباب وجدوا في تجاويف جبالها ومغاورها مآوي مقدّسة وغابات تخفي تاريخًا يترك آثاره في أسرارها الخفيّة.

لا يفسّر لنا التاريخ مجراه أو خياراته أو حكاياته، قد نفهم أن ولادة القصص والروايات تنتمي إلى خصوبة الزمن بأساطيره وخرافاته. لكن القصص في أنطاكية تنتمي إلى المياه، إلى أساطير ذلك النهر العاصي الذي يشقّ وجه الأرض صانعًا المدن والضياع والتاريخ، معيدًا رسم التضاريس والعالم مع كلّ فيضان، مكمِّلًا سيرة الأنهار التي أنجبت الحضارات والشعوب من طميها وعشب ضفافها.

تحمل غابات أنطاكية ذكرى حكايات من عصور سحيقة لا تُفسَّر ولا تُشرَح ولا تُفهَم إلا بعين الخرافة والأسطورة. يحتاج أهل تلك المنطقة إلى الأسطورة، مهما كان أصلها، لفهم علاقتهم مع ذلك النهر الذي هو مصدر حياتهم، والمتسبّب

بسرقة الكثير من أبنائهم الذين تبتلعهم مياهه أو تلفظهم موتى.

يُقال إن المعركة بينه وبين تيخا جرت في سهل العمق. هناك بُترت رحلته ونزفت دماؤه على شكل مستنقعات احتفظت بآثار معركة جعلته نزِقًا ومنتقمًا. فعلى الرغم من جمال تلك الزنابق وأزهار النيلوفر وأزهار الخرمال المغوية تبقى مياه النهر، أينما كانت، درس موت. حتى تلك المستنقعات التي تبدو راكدة، هي مخادعة، تبدو كما لو أنها مجرّد مياهٍ ضحلة، وبغتة تسحب ضحاياها ويبتلعهم وحْلُها.

6

سيزار الفايز ولعنة الهدهد

كلّما ارتعشت تلك الأشجار المعمّرة وهاجت ذراريها قال الأهلون إنه موكب باخوس مرَّ وعبر ومعه حورياته وجانُّه بهيئاتهم البشرية الملتبسة: قرون ماعز وذيول خيول وحوافر وعول، مشحونون بالرغبة، يحرّكهم الشبق الخام، معربدون مغرَمون بالرقص وضرب الصنوج. يمرَحون فيثملون حتى تهيج ذراري أشجار غابات جبال أنطاكية، التي يطربها شدو مزامير عبَدة باخوس.

إنهم غريبو الأطوار! يُقال عن أهل أنطاكية إنهم مصابون بلوثة القمر الذي يظهر على تلالهم كما لا يظهر مكتملًا في مناطق أخرى. أما هو، فقد كان على قناعة بأنه مصاب بـ«لوثة الماء». لا بد أنّ الكثير من ماء نهر العاصي الهادر والمجنون تسرّب إلى عقله فأراد أن يلحق به إلى البحر!

«كل شيء هنا «عاصٍ» مثل نهرنا، من يمكنه مقاضاة القدر، لا أحد.. لا أحد».

يقول القسيس جرجس، وهو ينظر إلى ذلك الفاتن، الماجن، المرح، الخليع، صانع النبيذ الأشهر. أطلّ وجهه الضاحك الثمل من بين ركام الغبار والحجارة، بينما كان الرهبان اليسوعيون يساعدون والد سيزار الفايز على تأهيل دارة رومانية قديمة. كانت لوحة من الفسيفساء وسط تلك الدار تنام بكل جمالها وما فيها من ألوان، إلى أن تعاونت الأيدي على تنظيف المكان. حدث ذلك في غسق صيفي أواخر آب يوم ولادة سيزار. عقدت الدهشة

لسان الرهبان والقسيس جرجس وهم يلمحون أسنان ذلك الربّ السوري القديم المتوَّج بأكواز الصنوبر، والمحاط بأغصان الكرمة وقرمز العنب. علموا أنه باخوس ملك الكروم الذي علّم البشر تقطير النبيذ ومنحهم نعمة النسيان المؤقت، بواسطة الخمرة.

لم يغادر هذا الجنّي العتيق والأزلي وطنه رغم تناوب كلّ أولئك الملوك، ورغم مرور القرون والأزمان. إنه زارع الكروم وحاميها وراعيها الذي انكشفت صورته يوم ولادة سيزار، وسيرافق ملك النسيان هذا سيزار في حياته.

سيزار، ابن قرية نيكال القمرية، في عمر التوأمين كيوان وعوني، ودرس معهما في المدرسة الرشدية في حلب. وبينما تابع ابنا آل منجوك تعليمهما في غالاته سراي باسطنبول، تخرج سيزار من المعهد الطبي في دمشق صيدلانيًّا وكيميائيًّا. ولم يكن قادرًا على فتح صيدلية في أنطاكية، كما لم يقبل وظيفة في مديرية صحة حلب، إنما عاد إلى مزرعة أبيه في أنطاكية ليكون إلى جانب أمه. ربطته صداقة قوية مع عوني، الذي كان مغرمًا بمتع الحياة كالموسيقى والغناء والشراب، ولمرّات كثيرة شارك عوني، المسلم، الغناء مع جوقات كنيسة قرية نيكال. كما شارك في طقوس «الكركة»، لتذوّق أوّل طبخات تقطير مشروب العَرَق الذي تُصنع خمرته من الكحول المستخرَج من العنب، ثم يُمزج مع اليانسون..

«سيزار مصابٌ بضربة قمر»، تكرّر والدته مقبولة أفندي. ومع أنه وُلد في عائلة لديها ملكية

تكفيها، إلّا أن طفولته لم تكن سهلة أو مرفّهة كطفولة توأمَيّ منجوك. فقد كان طفلًا صغيرًا عندما أعدم الأتراك أباه، الذي عمل ترجمانًا للفرنسيين خلال الحرب الكبرى في 1915.. كان أبوه قسّيسًا ومترجمًا يتقن السريانية والفرنسية واللاتينية، إضافة إلى اللغتين العربية والتركية. تخلى عن الرهبنة بسبب حب جارف لوالدته مقبولة أفندي، وعمل مترجمًا. فكان يجوب البحر المتوسّط برفقة البواخر الفرنسية والطرادات، مترجمًا ووسيطًا بين عملاء الفرنسيين في البر والضباط في البحر، وهذا ما جعله مطلوبًا من أجهزة جمال باشا السفاح. قادته الأقدار إلى جون أنطاكية عندما وصلت الدرّاعات الفرنسية «دوساي وغيشن وفودر» لإجلاء الأرمن الفارّين من المذابح التي ارتكبها الأتراك بحقّهم. وصل على الدرّاعة غيشن للمساعدة في الإجلاء إلى بور سعيد. اضطر للنزول إلى البر للمساعدة في نقل الهاربين من الموت إلى السفن. فقد احتاجوا لعدد كبير من الرجال لإحكام ربط الحبال لضبط البراميل الفارغة، ومن ثم ربط الألواح الخشبية فوقها بحيث تتحوّل إلى أطواف تقطرها المراكب البخارية لإيصالها الى البواخر. خطر لجرجس الفايز الذهاب إلى مقهى في الميناء لإرسال نقود لزوجته وابنه في اسكندرون. وشى به أحدهم وأُلقي القبض عليه وسيق إلى دمشق حيث أُعدم.

سيزار جرجس الفايز، مربوع القامة بكتفين عريضتين، يميّز رأسه شعر أسود سبط غزير، يكشف عن جبين واسعة، ويجذب محدّثه بعينين داكنتين

كبيرتين فيهما بريق يجعلهما رقراقتين كما لو أنهما نبعا ماء. يشبه تلك الرسوم الكثيرة التي خلّفها الرومان لملوكهم وآلهتهم. ورث نصف وجهه من أبيه، بينما ذقنه المكوّرة والمثلّثة وشفتاه المكتنزتان منحته إيّاهما والدته مقبولة أفندي.

على الرغم من أنه يعتبرها خرافات يتناقلها أهل قريته «نيكال»، بالغ سيزار في تنفيذ توصيات أبيه التي كانت تنقلها له أمّه التي نذرت حياتها له، فكان قمريًا إلى أقصى الحدود: لا يفطم عجلةً إلا يوم يكون القمر بدرًا لتكون بقرةً حلوبًا. ولا يزرع خضروات موسم الربيع وقت نقصان القمر. ويغرس بذور الأزهار مع ولادة كلّ قمر جديد. كان على قناعة بأن القمر يغيّر ألوان الزهور، وتلك التي تُغرس وقت تحكّم الأبراج الهوائية فإنها تنمو أفضل من غيرها.

يزرع ويجني، وينزع الأعشاب الضارّة، ويقلّم ويسمِّد... تبعًا لأطوار القمر. وعندما يكتمل القمر لا يخرج، اعتقاداً منه بأن العفاريت ممن يعبدون ملك الخمرة باخوس يخرجون وهم يرسمون أقنعة على وجوههم ويشربون النبيذ ويتهتّكون ويعربدون في ضوء القمر.

لم يكن عنده شك في طفولته وصباه أن عفاريت أنطاكية حقيقيون لكن لا مرئيين. لم يرهم أحد قط، لكنهم يهيّجون المشاعر ويحرّكون الأحاسيس في أوقات ظهورهم تبعًا لحالة القمر. كان مأخوذًا بالرسوم والنقوش واللّوحات على جدران الأطلال والقلاع الدّارسة، وفي غرفته

لوحة من الفسيفساء لباخوس محاطًا بعناقيد الكرمة، وفهد يجر عربته المجنونة، يؤكّد سيزار أن العفاريت رسمتها بأظافرها. خرافات، خرافات..!! لكنه يحبّ تصديق ذلك، متأثرًا بأمه، ويجد فيها نوعًا من الوفاء لوالده.

كان يشعر بأنّ حياته تسير وفق تناغم يُشعره بالسعادة، إلى أن بدّلت الصُدّف حياته. ومع أنّ الصدف لا تكون من فراغ، إلا أنها تأتي لتقلّب حياة، سواء نحو السعادة أو نحو الوجع.

كان من أبرز ما ازدانت به جدران قصر منجوك هو الأسلحة المتنوّعة: طبنجات بكعوب من النحاس المزخرف والمنزّل بالمينا، وبنادق أمريكية الصنع من تلك التي تحمل علامة «فوكس جان». وبنادق هنري، وماوزر، ومسدسات كولت. بدت جدران القصر ترسانة ذكريات من كل سلاح كان قد تاجر به صادق باشا، الذي جمع من تجارة الأسلحة ثروة كبيرة. وسيمشي كيوان على خطى أبيه ويزيد ثروة العائلة بفضل خشب الجوز الذي سيبيعه للروس لكي تُصنع منه أعقاب البنادق، ثم تطوير تجارته إلى الأسلحة.

ومن بين البدع التي ازدانت بها حديقة منجوك كانت خمسة أعمدة رخامية تعلو عن الأرض حوالى متر، مزخرفة ومزوَّقة تنتهي تيجانها بنهاية مفلطحة كصحن. تلك الأعمدة كانت معدّة لنصب النياشين ومبارزات التصويب حيث اعتاد الشّابان وزوارهما نصب النياشين والتنافس على التصويب. تلك المباريات كان يحرص عليها عوني، ويعتبرها أفضل الألعاب التي تُقام في عدة

مناسبات. فعوني، الصيّاد، والذي غالبًا ما يربح هذه المباريات يراها نقطة تفوّق على أخيه كيوان الذي يتفوق عليه في الأمر الذي أكثر ما يؤلمه: اهتمام فهرية.

وقد كان الصيد من أهم التسليات لدى الأخوين منجوك، وغالبًا ما يشاركهما سيزار الفايز. كما كان من المعلوم بأنّ كل مَن يخرج إلى الصيد في تلك المنطقة عليه أن يحذر من اصطياد هدهد تيخا ولو عن طريق الخطأ، إذ يُقال إنّ مَنْ يقتل هدهدًا سيصاب بلعنة تفقده الأمان والسعادة لمدة سبع سنوات.

ويستشهد الجميع على صحّة هذا الاعتقاد بعدد الهداهد في بستان الهدهدية.

يومها لم يفهم أحدٌ قطُّ كيف سقط من السماء ذلك الهدهد، ولا مَنْ أطلق تلك الطلقة. هبط الحادث فوق رؤوسهم نذيرَ شؤم يخشاه كل أهالي أنطاكية.

من يجرؤ على قتل هدهد تيخا؟

سقط الهدهد عند قدمَيّ سيزار. وخيَّمت الدهشة على الرؤوس.

من أطلق الرصاص على الهدهد؟

أي عفريت غامض تدخّل وخرّب اللعبة؟ لا يمكن أن يسقط ذلك الطائر من تلقاء نفسه.

بدا كأنّ سيزار أصاب الهدهد. وهو لم ينبس بكلمة، بل استدار وغادر بوجهٍ شاحبٍ.

7

قصر منجوك - ريف أنطاكية 1930

الأخَوان كيوان وعوني

«الحب والكره، ماكران. يختبئان في المشاعر، لكنهما ينعكسان في الوقائع: في الحرب والسلام، في البناء والهدم، في الطمع والتخلّي، وفي البخل والسخاء».

تقول الهدهدية، وتروي حكايات تستمدّها من الوقائع وتحوّلها إلى خرافات.. تتفنّن في إعادة رواية القصص ذاتها وتبدّل شخوصها، فلا يشعر السامع أنه سمع الحكاية سابقاً.

إلّا حكاية واحدة كانت الهدهدية تدرك أنها ممنوعة عليها. حكاية واحدة دارت حولها ولم تتجرّأ عليها. كان يغريها أن تحكي تفاصيل الشبق والغرام في ذلك القصر الذي عاش فيه توأمان ذكران مع توأمتين أنثيين والتوائم أبناء عم. ولَدا صادق باشا كيوان وعوني، وابنتا الطبيب ممتاز فهرية وبدرية.

إنها أحجية الحب ولا معقوليته. حماقاته غير المتوقّعة، وجنونه الخالص. لهذا ظلّ الحبّ يدهش البشرية، ويفتنها. وإلّا كيف لرجل أن يقع في غرام امرأة هي توأم زوجته تحمل ملامحها تمامًا، والفرق الوحيد بينهما عدد الشامات في الوجه؟

حفظت أشجار الدلب، والبطم والشوح واللزّاب المتكاثفة على سفوح الجبل الذي يتربّع عليه قصر العائلة أصداء صيحات الشقيقين كيوان وعوني

يلهوان معًا، ومع أقرانهما، وخاصة سيزار الفايز. وأكثر ما كان يسبّب صياحهما هو مَنْ يصيب العدد الأكبر من الأهداف التي يطلقان عليها، أو التنافس على صيد الطرائد والتباهي بمن اصطاد الطريدة الأصعب..

اختصر القرويون الفارق بين توأمَيّ منجوك الشابين كيوان وعوني بلقبين: «البيك» عن كيوان، و«الصيّاد» عن عوني. والأسباب واضحة في مسلك الشابين. كيوان طباعه حادّة ومزاجه سريع الغضب وهيئته تشي بالسلطة. يحمي بتعاليه تواضع ثقافته. يتكلّم بنبرة عالية مستخدمًا جملًا قصيرة ومقتضبة.

سار على خطى أجداده، وريثًا متسلّطًا ومسيطرًا، شخصيته متصلبة مهيمنة، ويحرص على هيبة مظهره الذي ينمّ عن أصله ومنبته. يتعامل بقسوة مع فلاحيه، ولا يظهر بينهم إلّا ليوجّه الأوامر، وأحيانًا يظهر في المناسبات والأعياد مع الاحتفاظ بمسافة بينه وبينهم.

أما عوني، الأشقر المبتسم، صياد النساء والطرائد، فيعيش بين الفلاحين ويصادق أبناءهم، وتربطه علاقات طيبة مع جيرانه من الملّاك الصغار لبعض المزارع المتفرّقة التي نشأت بسبب بعض الأموال المرسلة من المهاجرين في الأمريكتين. وهؤلاء معظمهم من العائلات المسيحيّة.

اشتهر عوني ببراعته في التصويب. وإضافة إلى لطفه وابتسامته الهازئة التي تحمل على أحد طرفيها تشاوفاً خفيّاً لكنه غير مستفِزٍّ، يحبّ المزاح والضحك والنكات الفاحشة. يتحدّث عن

النساء دونما تحفّظ. يردّد دائماً: «يُعاش الحبّ عيشًا، لا تصوّرًا. الحب قُبَل، انتشاء، جنون لا يرتوي، وعطشٌ كلما رويناه ازددنا عطشًا، وكلما عطشنا أكثر، زادت متعة إطفاء العطش». غالبًا ما تسبّبت تصرفاته بالحرج لعائلته المتمسّكة بأصول الحياة المترفّعة والأرستقراطية. تتّفق شخصيّته مع لقبه: الصياد. فهو يراوغ، يتخفّى، يخاتل للفوز بطريدته.

على الرغم من قصة مقتل والده، فإن عوني طالما عبّر عن إعجابه بالأفكار الكمالية التي يقول إنها ستسود، وأنّ المستقبل القريب سيكون لصالح العلمانية، وهذا ينسجم مع أفكاره التي تعارض التعصّب الديني، ويتشارك فيها مع سيزار الفايز. لم يكن يفصح كثيرًا عما يدور في رأسه بين أفراد عائلته من الباشوات الذين تهدّد الكمالية بنزع سلطتهم، وهو ما كان مثار خلاف مع شقيقه كيوان الذي بسط سيطرته وريثًا لأبيه صادق باشا، وتابع شؤون إقطاعيتهم وتخلّى عن فكرة متابعة تعليمه في أوروبّا، واكتفى بما تلقّاه من علوم في اسطنبول، ليستأثر بالنفوذ في تلك الأرياف. لا يقبل أي معارضة لقراراته. ويهزأ من ركض أخيه خلف النساء وصولًا إلى أنطاكية وإسطنبول! فهو يعتبر أن كل نساء فلاحي الإقطاعية ملكٌ له.

الأختان فهريّة وبدريّة

ربّت فريدة خانم أفندي توأمَيّ شقيقتها بتفانٍ وإخلاص لم يختلف عن احتضانها لابنتَيْها إلى أن انتقلا إلى أنطاكية للدراسة. ومرّت فترة كان

فيها وجود الجميع في القصر شبه مقتصر على إجازة قصيرة في الصيف، وفي فترات الأعياد. لكن قبل سنة أنهى الشّابان تعليمهما في غالاته سراي وعادا إلى منجوك.

كان عوني متردّدًا بين الانتقال إلى إسطنبول، أو الذهاب إلى إحدى العواصم الأوروبية لأجل متابعة دراسة القانون. بينما قرّر كيوان الاكتفاء من الدراسة وأخذ دوره زعيمًا ووريثًا لأبيه صادق باشا. فهو لم يرث فقط هيئته وملامحه، بل ورث أيضًا طبعه النزوي والجامح، المموّه بتحفظ وصمت هما الملمح الأساسي في طبعه.

قبل عامَين من إنهاء دراستهما في غالاته سراي تنبّهت فريدة خانم إلى أنّ الصبيّين صارا شابَّين، وسيعودان للعيش في قصر منجوك، فقرّرت فصل البنتين، بدرية وفهرية، عن ابنَي عمهما، عوني وكيوان. وهكذا، رتّبت الدار القديمة التي كان يقطنها آل منجوك قبل تعمير القصر. رمّمتها وأعادت فرشها بأفضل الأثاث، وجعلتها مكانًا لائقًا بالشّابين، فلا يشعران بالفرق بينها وبين القصر. فالدار المبنية على الطراز الشرقي مقسّمة الى سلاملك وحرملك وخدملك، لكنها مع الوقت صارت تسمى على ألسنة الجميع بالسلاملك إشارةً إلى سكنى الشابين، «البيك والصيّاد»، يستقبلان فيها ضيوفهما خلال فترات الإجازات التي يقضيانها على تلّة منجوك عندما كانا يتابعان دراستهما، وينامان في القصر. لكن خلال السنة الأخيرة أقاما فيها بشكل دائم.

وسيقوم كيوان لاحقًا بترميم قصر أجداده

المبني في العام 1880. ومع أن ذلك سيكلّفه الكثير من ليرات الذهب، إلّا أنه كان حريصًا على إعادة الألق إلى ذلك القصر الذي بناه مهندس ايطالي تعرّف عليه الباشا الجد الكبير في مصر، التقاه في حفل افتتاح قناة السويس. لم يقتصر على ذلك إنما أصرّ على تزيين مدخل القصر بأسدَيْن من الحجر طبق الأصل عن تلك الأسود التي زُيّن بها كوبري قصر النيل بأمر من الخديوي اسماعيل. كان الفارق في حجم التماثيل فقط. فقد حظي قصر منجوك بنسخ أصغر من تلك التماثيل وبتوقيع النحّات الفرنسي جاك مار. ولأجل ذلك سيستقدم كيوان مهندسًا اشتُهر بهذا النوع من الأعمال لتجديد القصر الوحيد المبني على الطراز الفلورنسي، والذي اعتبره تأكيدًا لمكانة آل منجوك وسبقهم على غيرهم، حتى من الباشوات.

وضعت الخانم الأم فريدة الفتاتين في القصر تحت مراقبة صارمة، إذ لاحظت أن كلا ابنتيها وقعتا في غرام شخصٍ واحدٍ هو «كيوان». وبنفس الوقت، نبذت الفتاتان عوني، الذي لا يشبه كيوان رغم أنه شقيقه التوأم. لكن لا تشابه بينهما في الهيئة أو الطباع. بينما التوأمان، فهرية وبدرية، لهما ملامح متطابقة مع فارق وجود خمس شامات في وجه بدرية، بينما حظيت فهرية بشامة واحدة على خدّها اليسرى. ورغم تطابق الملامح ولون البشرة والشعر والعينين، كانت فهرية أكثر فتنة وجاذبية بما لا يقارن مع بدرية.

تنافست الفتاتان على عشق كيوان ذي الهيئة

التي توحي بالقوة والسلطة.. هذه الخلطة التي تحبّها النساء عادة. منذ البداية كانت بدرية أضعف من أختها. تبكي بسرعة، ولم تتقن تلك اللعبة الأنثوية الخام التي تجعل من امرأة مرغوبة.

ولم يكن يغيب عن بال الأم أن عوني وكيوان يتتبّعان فهرية كيفما تحرّكت، بينما بدرية مهمَلة تمامًا. وهذا ما كان يحزّ في نفس الأم التي تشعر بقرب بدرية منها، بينما عليها دائمًا ملاحقة تصرفات فهرية.

في البداية كان كل شيء سرًّا.

فهرية، التي تحبّ الأزهار وتهوى جمع بصلات الزنابق والمسك الرومي الذي يجمعه الفلاحون ويبيعونه في سوق أنطاكية بسبب غلاء ثمنه، صارت تكثر من خرجاتها. وعندما لاحظت فريدة خانم أفندي غياب فهرية المتكرّر مع أول خيوط الفجر، واجهتها وحبستها في غرفتها تحقّق معها عن سبب خروجها في هذا الوقت! برّرت فهرية غيابها بأنها تحب جمع المسك الرومي. يعلم الجميع أن أفضل أوقات قطف هذا الزهر هو الفجر. ويعتقدون بأنه الوقت الذي رأى فيه الملك شام الملكة عشيرة.

ثرثر العاملون في القصر والسلاملك، القهوجي والحوذي والبساتنة وسائسو الخيل، وحتى التفنكجية الذين يحرسون رياض القصر ليلًا ويتجولون في بساتينه، عن تسلّل فهرية إلى دار السلاملك ولقائها كيوان في أقبية المؤونة حيث يُخزّن في حجراتها الباردة، التفاح ملفوفًا بأوراق التين للمحافظة عليه في فصل الشتاء. وحبّات

البندورة الخضراء المرتبة بعناية فوق التبن، إضافة إلى جرار الزيت والعسل، وعنابر السمن.

8

عندما يكون الحبّ سمًّا

ما يميز فهرية هو جاذبيتها ولا مبالاتها بالحياة فتتكلم بصوتٍ واهنٍ ومرتخٍ مثل ملمحها. تتحدّث كما لو أنها نصف نائمة. رغم نبرات صوتها التي تبدو بريئة، يمكن لأي ذكرٍ التقاط تلك الارتعاشة التي تتخلّل كلامها، وتزيد من فتنتها. فتنة تزيدها روعة مشيتها. فهي تبدو كما لو أنها تطوف محمولة على بساط غامض، مما يزيد من لمسة الهشاشة والبراءة التي تذكّر بالظبية وهي تجوس غابة. أما بدرية توأمتها، فصوتها حادّ مرتفع، وخطواتها تنمّ عن غضب مختزَن، تتحرّك بسرعة كما لو أنها عاملة تستعجل إنهاء مهماتها.

تحرص بدرية على أن تبقى تحت أنظار الشابين ابنَيّ عمهما اللذين ألِفا حضورها، واعتادا رفقتها من دون التفكير بها كأنثى. أما فهرية التي حملت الخلطة الكاملة للفتنة، واشتهاها الشّابان بصمت وكتمان، فقد أتقنت لعبة الأنوثة، التي يزيد من حضورها الغياب. فكانت كلّما شعرت بعدم الاهتمام تغلق باب غرفتها، أو تغادر عند إحدى خالاتها في أزمير أو اسكندرون. وحتى عندما تكون في منجوك تقضي الكثير من وقتها تجمع الزنبق، أو تتمشّى باتجاه النهر، أو في المطبخ تصنع من السكر مقرمشات صغيرة تشبه المنحوتات. بينما تصرّ بدرية على ملاحقة ابني عمّها ومراقبة أختها.

«الجرائم التي نرتكبها بسبب العشق، تُغفر لنا، ألم يخبرك أحد بذلك.. يمكنني أن أقتلك»، يقول عوني ممازحًا فهريّة وهو يقطع طريقها ويصوِّب نحوها فوهة مسدس كولت. تكمل فهرية طريقها وتتظاهر بأنها لم تسمعه، فيعيد عوني المسدس إلى حيث كان معلّقًا على الحائط والغضب على وجهه. لكنه لا يجد مفرًّا من أن يهدّئ نفسه معتبرًا، من خلال تجاربه، أن التجاهل فنّ تتقنه النساء اللّعوبات.

لكن فهرية لا تحمل مظهر امرأة مغناج أو لعوب. إنها فهرية. فهرية، التي لم يقتصر حضورها الآسر على ابني عمها، بل تركت حفرةً في قلب سيزار، جارهم المسيحي القمري، ورفيق عوني.

كانت في الرابعة عشرة من عمرها عندما حدث شيء ظلّ سرًّا لم تبح به لأحد. لحظة، وإن كانت عابرة، ولم تحفر فيها ما حفرته في ذلك الشاب، إلّا أنها لم تنسها.

كانت تتمرّى في جدول يغذّيه نبع ينبثق من عضد الجبل الذي تتكئ عليه التلة، عندما مرّ جارهم القمريّ سيزار. شعر بالارتجاف وهو يراها تنظر إلى انعكاس صورتها، ثم تحرّك الصورة بوضع يدها في الماء تحرّكه وترشقه على وجهها وتمسح به جيدها. توقّف سيزار للحظات متردّداً، وفقد توازنه وهو يرتد إلى الخلف ولا يحيد بنظره عنها. وقع على نبتة شوك جعلته يطلق أنّة صغيرة، وجعلها تلتفت نحوه التفاتة أظهرت بسمة على شفتَيْها، ثم تابعت مسح جيدها،

والنظر إلى صورتها المترجرجة في الماء. منحها ذلك مظهرًا ودودًا ومستسلمًا وساهيًا.

في ذلك اليوم القائظ اعتبر سيزار أنّ رغبته في ضمّها، وتقبيلها، كان خطأها. لم تجفل عندما رأته وابتسمت لسقطته... شعر بأنّ الشيطان يدفعه... فتاة في الرابعة عشرة من عمرها يمكنها أن تدرك ما يفكر فيه ذلك الشاب الذي لم تكن لتغيب عنها نظراته عندما يأتي إلى القصر! مع ذلك لم تخف ولم تتحرّك. ولم يفهم هو كيف غاب خوفه، وتردّده، واتزانه المفترض. وتقدّم كالمسرنم ليطبع قبلة على ذلك الجيد.

توحّد صمتهما وهي تتلقّى تلك القبلة على جيدها.

رشقته بشيء من الماء وركضت مبتعدة والبسمة على شفتيها، بينما وقف مذهولًا يتلقّط طعم جيدها على شفتَيْه.

لحظة مُنحت له بمبادرة من الشيطان نفسه! تذوّق للتوّ نكهة لا تعرفها إلا الأبالسة.

الحب والشوق والمرارة... أشياء سيتعرّف عليها كل منهما ذات يوم.

***

كان يومًا ربيعيًا، عندما دفع اليأس ببدرية المهمَلة أن تمتطي حصانها وتقصد دار الهدهدية، رغم علمها بكره أمها فريدة خانم لهذه المرأة، فهي كانت تعرف ما تردَّد بشأن عشقها المجنون لصادق باشا. وسمعت الرواية المنقولة عن التفنكجيَّيْن اللذين رافقا جثته إلى

دارها، وكيف أنها كانت تعرف أنه مات، لكنها ظلّت تؤكّد أنه لم يمت وستداويه ليشفى، لأنها ما كانت تستطيع تقبّل فكرة موته. لكن ما حصل في الواقع أنها أدخلته إحدى الحجرات وأغلقت الباب بالقفل وراحت تقبّله. احتضنته وقبلته بتشةٍّ مجنون. سمع الرجلان وهما عند الباب المقفل صدى قبلاتها ونحيبها. لكنهما تراجعا لأنهما خشيا غضبها. فلا أحد يريد أن يُغضب الهدهدية.

ثمة تواطؤ خفي بين من طعنهم «الحب»! فها هي اليوم، بدرية التي غدت تعيش المشاعر ذاتها تجاه حبيب لم يكترث لها قط، لجأت إلى الهدهدية.

وضعت أمامها قرطين ثمينَيْن من الذهب وطلبت منها أن تفعل شيئًا لتجعل كيوان يلتفت إليها. كلماتها تنكأ لدى الهدهدية محرقة عواطفها تجاه صادق باشا. وبينما تجد بدرية أمامها تطلب منها هذا الطلب، يمرّ أمامها شريط ذكرياتها معه: أحبّته بشغف، لكنّها لم تحظَ بمضاجعته سوى مرّات قليلة كان فيها ثملًا. أرادته حبيبًا وأرادها رفيقة تؤنسه في رحلاته ونزواته. يبدي إعجابه بجرأتها، وهي تقود عربتها بمفردها، وتسوط خيولها بعزم الرجال، ولا تتراجع أمام الأخطار. ترافقه في رحلات الصيد. تبزّه في دقّة التصويب. حين جرفه النهر ذات مرة مع فرسه في مجرى العاصي الهادر لكزت فرسها واندفعت بعزم الرجال على ضفة النهر الزلقة، واستطاعت أن تحدّد مكانًا ذكيًّا يكون قريبًا فيه من الضفة وتمد له بوز بارودتها الفرنساوية وتنقذه.

رافقته إلى ملاهي حلب. تشرب وتثمل في آخر الليل تتمدّد بقربه وتحتضنه من الخلف، بينما يكون غارقًا في نوم ما بعد السكر. لم يمنحها فمه قط، أو يجتاحها كرجل يشتهي امرأة. رافقته في رحلته إلى مصر. وقرأت البخت لأميرات وهوانم مرموقات. وتحدّت باشوات وبكوات في نادي الصيد المصري، في مهارتها النادرة في التصويب بالمسدس التي لا تقلّ عن مهارتها في التصويب بالبندقية.

لطالما جفّفت دموعها وهي تسمعه يغازل غيرها ويُسمعهن كلماته الفاحشة، فحش تاقت له بشدّة، ولم تحظ به قطّ. لم يحبّها كامرأة. رآها ذكية، فرحة، نزَوية، نصّابة، قوية، جريئة. تسلّيه وهي تحكي له تلك الحكايات التي تناقلها قومها لقرون طويلة، تحكي له عن القوى الخفيّة والغامضة التي للأفلاك والحروف والأرقام. تنقل خطوها ببراعة بين ضفتي الخير والشر. يقول لها: «أنت المرأة الأكثر شراسةً التي عرفتها. في داخلك يختبئ ذكرٌ فاجرٌ. امرأة لا تردّها أي تخوم. تتخلّصين ممن لا يعجبونك كما تعشّبين حديقتك من الأعشاب الضارة».

عاشت مريم عشرين سنة من شبابها إلى جواره، سمعت كل ما قيل عنها. أدارت ظهرها لكلامهم بإصرار، وتقول حين تُسأل عن ردّها على ما يُقال عنها: «إنّ اكتراثنا لما يقوله الناس هو عبودية نعيشها من دون أن ننتبه». عندما تسكر ويدور رأسها، تتفتّح فيه جنّية ملعونة، ويغدو ما تقوله نبوءات حقيقية، وقصائد ملغّزة. قالت له ذات مرّة

عندما عاتبها على غضبها وهي تراه يعابث مغنية أرمنية: «أتعلم! الجروح هنَّ إناث، والرجال هم حراب وخناجر ومسدسات».

أقلعت الهدهدية عن الشراب بعد أن توفى صادق باشا، ولم تغادر دارتها الغريبة والواسعة. تولّد الأطفال وتطبّب بالأعشاب، وتقصّ الخرافات في سهرات بيت المختار أبو طنّوس. ولكنها لا تقرأ البخت لأحد، ولا تصنع التمائم كما كانت تفعل في شبابها. يقولون إنه يمكنها استخدام الرصاص أو الفضة أو الذهب أو الطين أو الشمع لصنع تمائم ودمى غريبة بإتقان تام وتوافُقٍ فريد مع ظروف فلكية لها تأثيرات محدّدة على مقادير البشر. هجرت كل ذلك، ولم تغرِها قط المصوغات الذهبية التي تعرضها الزوجات البائسات الطامعات بإنقاذ أزواجهنّ من نساء أخريات.

وقفت الهدهدية محتارة أمام ابنة ممتاز بك، الواقعة في غرام ابن عمها الذي يحمل ملامح وكبرياء أبيه، صادق باشا ذاتها. تعلم أن الرغبات لا تغيّر شيئًا وأن عقارب الساعة هي البطل السرّي في تخفيف حدة العشق. لكن بدرية شابة صغيرة تأكلها الغيرة من شقيقتها التوأم.

وبقدر ما تعرف الهدهدية أن الحبّ تمرّد، وطغيان، واستسلام، وعصفٌ، ورقّة. بريء ومذنب في آن، كاسحٌ كجائحة، وترياقٌ لأعتى الألم. فإنها تعرف جيّدًا الضعف الذي تعانيه امرأةٌ تحب رجلًا لا يلتفت إليها.

وتعرف الهدهدية براعة فهرية الفطرية في جذب أمثال كيوان بالحضور والاختفاء. تتعقّد

الابتعاد، تبسط المسافة للشوق. تثير لدى كيوان شهوة النهب. وتعرف أن بدرية ملتصقة بالقصر وبأمها، وتعرض نفسها أمام أنظار كيوان كيفما تحرّك.

الحب في حالة بدرية كان سُمًّا. كل حبّ من طرف واحد هو سمّ، تجرَّعته هي حين اكتفت بتقبيل الباشا بينما هو ثمل ونائم.. سمّم حياتها بفرادته وهيبته ووسامته ولسانه الذرب والبارع بإلقاء النكات. مات من دون أن يمنحها يومًا إلّا التعاسة. حتى موته عدَّته غدرًا.

رأت الهدهدية الخبيرة، أن بدرية استنفدت فرصها أمام كيوان. هدرت كرامتها. ذلك أنّ رجلًا مثل الباشا الشاب يتصرّف بازدراء مع امرأة منحته نفسها بسهولة ومن دون إلحاح.

كانت الهدهدية تعرف جيدًا أن لا شيء سينفع، وليس لديها سحرٌ يجعل كيوان يلتفت إلى بدرية، لكنها لا تستطيع أن تقول لها ذلك. فراحت تحدّثها عن الزمن، وما تخبئه لنا الحياة من أمور علينا أن نتقبّلها... وختمت بالقول: «إنّ أوّل ما علينا أن نتقبّله، هو حظّنا... فلو عاندناه لانقلب علينا وجعل حياتنا خيبات متلاحقة... انتظري حظّك وتقبّليه، فربما لا تكون السعادة في ما نسعى إليه... بل ربما ننتقل من الخيبة إلى الألم...».

9

حظوظ ومصائر

عفريت الحظ

لا أحد يعلم كيف قفز عفريت الحظ وأخذ صفّ بدرية. لقد كان الجميع يعلم أن كيوان قد اختار فهرية ولا بد أنهما سيتزوجان. تدخّل الكبرياء والاعتداد الرّهيبان اللذان تحملهما فهرية على نحو أصيل، وتمنّعت عن ملاقاته في أقبية السلاملك، عندما مرّر عوني الخبيث على مسمعها، أنباءً عن مغامرات شقيقه مع بنات الفلاحين، وأن أقبية السلاملك تستقبل زائرات غيرها.

«لن تنالني إلا زوجةً لك، سيّدة، لا فلاحة ولا غانية».

قالت له وأغلقت باب مخدعها ورفضت مقابلته. أفرغ كيوان دمجانة نبيذ في جوفه وهو يفكّر في كلامها غاضبًا يعزّ عليه الانكسار. عندما بلغ به السكر حد العجز، أصرّ على إخضاعها كذكرٍ متشهٍّ عصف به التوق. وأراد أن يبلغها أنها ستكون عروسه قريبًا.

أدرك أنه لن يحتمل خسارتها. توجّه إلى الحرملك ودخل إلى مخدعها. وفي ظلمة الغرفة وظلمة عقلٍ ثملٍ، أسرّ للمرأة التي نام فوقها أنه يريد الزواج منها.

صحا أهل القصر على بكاء بدرية وهي تركض في أنحاء القصر وتولول، بينما تلحق بها الوالدة فريدة.

أخطأ كيوان الثمل بين مخدعَيّ الشابتين ودخل مخدع بدرية ورمى بنفسه فوقها من دون أن تعترض. عندما أدرك أين هو ومن هي التي تحته كان قد فات الأوان وهتك عذرية بدرية التي وجدتها فرصة لا تعوَّض للانتقام من فهرية. لم تخبّئ ما حدث. دبّ عويلها في كل القصر لتفضح كيوان.

عوني، الذي سمع صراخ بدريّة وعرف ما حدث، لم يخرج من غرفته. رأى أنها فرصته لتبقى فهرية له.

عزلت فريدة الشابتيْن وأخذتهما إلى أنطاكية. وبعد شهرأرسلت إلى كيوان تخبره أنه أمام أحد خيارين فقط: إما أن يتزوج من بدرية لأن دورتها الشهرية لم تأتِ في موعدها، وإما أنها ستبيع حصّتها من ملكية آل منجوك إلى عائلة تنافس أجداده منذ عقود طويلة.

كان كيوان يعرف أن تلك العائلة تطمع في ملكية منجوك، ولديهم سلطة كبيرة بسبب قربهم من أتاتورك ودعمهم له... وفريدة شريكة كيوان في ملكية آل منجوك. بعد مفاوضات بين فريدة وكيوان تتعلّق بصورة العائلة وبإدارة أملاكها، وافق كيوان على الزواج من بدرية.

أذهلت فهرية لعبة القدر الرهيبة. أخطأ كيوان من فرط صبابته وولج غرفة شقيقتها التوأم التي لم يكن يحبّها، رمى نفسه فوقها في العتمة ولم يدرك أن من أفرغ فيها شهوته كانت بدرية وليست فهرية إلا بعد فوات الأوان.

صفعة الظبية

أخيرًا وجد عوني أن فرصته حضرت بقرار تزويج كيوان من بدرية. واعتبر هو وزوجة عمه أن القدر أقرَّ القسمة: صارت بدرية زوجة كيوان، وستكون فهرية من نصيبه.

قبيل حفل الزفاف بأيّام قرّرت فهرية المغادرة إلى أزمير لتمكث بعض الوقت عند خالتها. كانت تحزم حقائبها عندما باغتها عوني في مخدعها. فهرية الذكية أدركت ما جاء يرمي إليه عوني عندما تقدّم منها. فقد أمسك بكتفيها وهمّ بتقبيلها. رفعت يديه وبادرته بصفعة جعلته يتراجع منهارًا مثل حصن خرَّبه زلزال.

صفعتها تلك غيّرت شيئًا أساسيًّا في حياة ابن عمها الذي يعشقها، بينما تنفر منه. أهدته برعمًا لأهم القرارات التي سيتّخذها في حياته. لم يكن يريد غير سفينة تحمله إلى البعيد حيث لا تهدّده ابنة عمه بحضورها المتأجّج وترميه في العجز.

بسبب تلك الصفعة انفرط كبرياؤه كذكرٍ مغوٍ وظريف لم تصدّه امرأة. صفعت عنجهيته كصيّادٍ ملأ جدران دار السلاملك بجلود الوحوش التي اصطادها.

يعلم عوني جيدًا أن الاستعجال أقصر الطرق للهزيمة. أيقن أنه استعجل. هزمته فهرية. ذكّرته تلك الصفعة بحقيقة يعلمها جيدًا، هو الصيّاد. ذكّرته أن ما يميّز الوحوش هو تناسقها الرهيب، تناسقًا متّقدًا ومتوهّجًا، فالفارق كبير بين أذني الأرنب الطويلتين وقوائمه القصيرة. هيئة مثيرة

للشفقة أمام ذنَب الثعلب وأذنيه وعينيه وأنفه. تميّز كلّ المفترسات رهبة التناسق. فهرية كانت متناسقة، في ملامح وجهها وجسدها تخبئ أنثى مفترسة لعوبًا. سخر عوني من نفسه ومن ثقته بنفسه في معرفة طبيعة كلّ ما يدبّ على قدمين هو من يظفر بالغزال والذئب بالطريقة ذاتها. شعر بأنه كان يجهل حقيقة فهرية. تسرّع وخسر. لكنّ الصفعة بقيت حاضرة.

هل حلّت لعنة الهدهد؟

أُرغم كيوان على الزواج من بدرية التي لا يطيقها. غضبت فهريّة ولملمت أغراضها وغادرت إلى أزمير. ستتقبّل فهريّة القويّة، ما آلت إليه الأوضاع وتفعل ما يُرضيها.

حزم عوني حقائبه وغادر إلى صديقه سيزار الفايز ليفكرا معًا أين يذهبان، فقد كان سيزار عبّر له مرّات عن رغبته في السفر.

لم تنفع محاولة عوني مع سيزار. سيزار قمريّ مصابٌ بلوثة الماء. أراد أن يكون بحّارًا. بينما عوني صيّاد، ويريد البرّ، حيث الطرائد، خاصةً أجملهنّ كما كان يردد دائمًا:

« أجمل الطرائد هن النساء».

زُفّت بدرية لكيوان وسط دموع فهرية. فهرية التي رفضت أن تدفع هي الثمن. وبدأت رحلة الكره والغيرة بين الشقيقتين. لم تسكت فهرية، بل منحته جسدها غير عابئة بخسارته زوجًا، من دون أن يخفى الأمر على أحد. رفضت الزواج وعاشت في ظل سطوته، محمية بأنامل جنيّة

الحب والشهوات البارعة بتمرير مؤامرات الرغبات، والخيانات. وظلّت تضاجع كيوان رغم أنف بدرية المحزونة التي اكتفت بإنجاب صبيين بصمت امرأة من تعلم أنها تزوجت رجلًا لم يحبها قط، وما من وسيلة لديها تردعه. لا سلطة للنساء في عائلة منجوك الصغيرة على الرجال. والخيارات محصورة برجلين: عوني العابث اللامبالي، وكيوان المتسلّط الذي لا يرحم.

***

كان سيزار الفايز يدرك استحالة تلاقي حياته مع حياة تلك الفتاة. إنما لم يستطع أن ينسى رائحة جيدها. حتى فرصة رؤيتها ولو من بعيد صارت غير ممكنة أيضًا. فقد غادر عوني، صديقه، ولن يعود سيزار لزيارة القصر ورؤية تلك الفتاة التي صارت شابّة رائعة يتنافس عليها ابنا عمها. وبعد أن غادرت هي القصر، ولا أحد يعلم ماذا ستفعل، بعد زواج كيوان من بدرية. ولا حظّ له هو المسيحي متوسط الحال، مع سيدة مسلمة من آل منجوك، باشوات المنطقة. انكسر وابتعد حلمه الأول وبات مستحيلًا.

في لحظة يأس اتخذ قرارًا طائشًا بأن يترك والدته ويركب البحر. مرّ عامان مرّت عليه في البحر وهو يفكّر كل يوم أن يرجع إلى والدته. ثلاث سنوات وصورة فهرية في عينيه، ورائحتها تفعمه. إلى أن جاء يوم قرّر أن يعود. ثلاث سنوات تعلّم فيها فنون البحارة والتعامل مع البحر، وفهم حركة الأنواء والتيارات وكيفية التعامل مع الرياح والعواصف.

لم يندم سيزار على طيشه الذي رماه في البحر، وأوصله ذات يومٍ إلى أرخبيل جزر تريميتي الإيطالية. فهذه السنوات منحته وقتًا كان يحتاجه لمحاولة النسيان، وساعدته على جمع مبلغ من المال سيجعله يحقّق حلمه في توسيع وتحسين كرومه، وربما حقق فكرة شراء مركب صيد كبير والحياة في البحر.

بحسب أوراق الباخرة، فهي تحمل طلبية خاصة إلى إدارة المفوضية العسكرية: عشرون طناً من قشّ الافتراش، وألف قطعة من أواني الأكل المعدنية، وثلاثمئة طنجرة. حُمّلت في الباخرة التابعة لشركة بوليا للملاحة التي أبحرت من ميناء اسكندرون يوم 28 تشرين الثاني من العام 1932، قاصدة طرابلس في ليبيا تلبية للطلب الذي تقدّمت به السلطات السياسية المحلية إلى قيادة الفيلق العاشر.

لكن، ما حدث كان مختلفاً، تمامًا. فما إن وصل الميناء حتى غدا متَّهَمًا وسجينًا لما يقرب من خمس سنوات.

كانت رحلته الأخيرة قبل العودة إلى نيكال، لكنّ أقداره دفعته حتى يجد نفسه أسيرًا لدى الاستعمار الإيطالي الذي يطمع بشمال أفريقيا، هو ابن أنطاكية التي ترزح تحت الانتداب الفرنسي، وجد نفسه سجينًا مع مئات السجناء معظمهم من العرب.

مَنْ لم يكن له حظ أن يُسجن في العنابر، بسبب عدم توفّر أماكن تكفي لجميع السجناء، سُجن في مغارات أشبه بالجحور. ليس لها أبواب تُقفل،

وليس فيها أي متنفّس سوى من مدخلها الضيّق، بحيث إنه لو أُقفل المدخل ينعدم فيها الهواء. السجناء في تلك الجحور تُركوا طلقاء نهارًا وليلًا، تحرسهم من جهة وعورة المنطقة التي يُقال إن لا أحد حاول اجتيازها وبقي حيًّا، ومن الجهة الأخرى، البحر وأهواله حيث يلوح حطام سفينة تحطّمت على تلك الصخور المسنّنة فوق أعماق يضربها الموج، بقوّة فظيعة مطلقًا هديرًا لا يترك لأحد فرصة التفكير بالهرب. هذا إضافة إلى الجواسيس المدسوسين بينهم كسجناء، والذين ينقلون إلى المفوّض قائد الحامية العسكرية المحلية، كل ما يحدث، بل كل ما يفكر به أي سجين... وويلٌ لمن يحاول الهرب! فإن بقي فيه رمقٌ ينتظره عذابٌ يصعب أن يبقى حيًّا بعده.

وحده البرج الذي يحمل الكشّافات، يضيء أملًا بعيدًا بالنجاة، فكان سيزار يجلس يتأمّله متفائلًا بذلك الضوء، مع أنه مخصَّص لمراقبتهم.

ظل دائمًا يختزل ما حدث معه في نصف مربع من صحيفة إيطالية وصلت مهرّبة إلى سجين، ويُذكر فيها اسمه من بين أسماء كثيرة، تحت عنوان:

اعترافات معتقلين عرب في أوستيا

«تنفيذًا لتعليمات معالي وزير الداخلية، وتحت إشراف جناب قائد الحامية النقيب بوزاريو، بدأت عملية استجواب العرب في هذا المعتقل، في محاولة للحصول على بعض المعلومات المفيدة عن أهداف نقل سلاح على متن الباخرة التابعة لشركة بوليا للملاحة، ومعظم هؤلاء من سكان

أيالة أزمير التركية.. وبناءً على ما أدلى به تاجر مواد غذائية يدعى خليفة بن سعيد، من سكان طرابلس، ومهنته تاجر مواد غذائية في شارع كارميلر كريوط، فقد اعترف بأن الباخرة «درنة» كانت محمَّلة ببنادق الماوزر.

وأنه دفن جزءًا من الحمولة في غريان، بينما تمّ توزيع باقي البنادق مع ذخيرتها مجانًا على الأهالي كما هو معلوم لدينا ومثبَت. أما التاجر التركي، المتنكّر بهيئة بحار، فقد فرّ إلى جهة غير معلومة بينما تم القبض على دليله المدعو سيزار الفايز».

بين الأسرى العرب، في تجاويف ومغاور منتشرة في الجبل المطل على البحر، سُجن سيزار الفايز مع آخرين ينتمون إلى قبائل مختلفة من طرابلس الغرب وبرقة وتونس ومصر والسودان. هناك أمضى أيامًا طويلة يتذكّر ماضيه السعيد في وطنه. كان المنفيّ الأصغر سنّاً بين بقية المنفيين والسجناء.

فكّر دائمًا بحقيقة أنه هل يمكن أن لعنة ما حلّت عليه بسبب قتل الهدهد، كما تقول خرافات أنطاكية.

أحسّ لأوّل مرة في حياته بالذعر من الماء، عندما جُمع الأسرى وساقوهم إلى البحر لتطهيرهم قبل توزيعهم على العنابر. في لحظات الخوف تساءل إن كانت الملكة الخفية التي تتحكّم بأنطاكية ومحيطها، موجودة. تذكّر أمه ابنة شماس كنيسة نصيبين، التي تزوّجت من أبيه القسيس السابق جرجس الذي كان مأخوذًا بعالم الورق والكتب،

يترجم كتب جالينوس، وينقِّب في كتب يونانية عن سيرة آلهة اليونان وتأثيرهم على معتقداته. وينشغل بتحويل المعادن إلى ذهب حتى عُرضت عليه مهنة الترجمان على دارعة فرنسية لتنتهي حياته بحبل المشنقة التركي. أمّه التي رجته أن يذهب إلى مريم الهدهدية لتقرأ له مصير قراره في ركوب البحر! لكنه ما كان ليؤمن بأمور كهذه...

وسط المنفيين العرب، حيث المدمنون ومرضى الزهري والسل، والمصابون بسوء التغذية وآلام المفاصل وأوجاع الأمعاء، كان يفكّر مليًّا بكل ما تركه خلفه في بلده.

كان أقصى ما يتمنّاه أن تستطيع أمه الحفاظ على الكروم والبساتين. وكم أسعده التأكّد من أن رسالته التي أرسلها مع أحد الحرس الطليان قد وصلتها. يومها دفع له ثلاثمئة ليرة إيطالية، أي نصف أجرته، التي تلقّاها لقاء عمله في مقالع الحجر، قبل أن يُنقل إلى جزيرة أخرى ويعمل شيّالًا في المرفأ. هل كانت ستخبره عرّافة أنطاكية مريم الهدهدية أنّه لو رحل عن أنطاكية، أنه سيقع في الأسر وسيفترش القش على الأرض ويكون طعامه رغيفًا من الخبز وصحنًا من الماكرونة؟

كلما أغمض عينيه يفكّر في بلده كيف عبقت في أنفه رائحة عنق فتاة مسّ رقبتها بشفتيه، تلك الرائحة العالقة في أنفه كأنّها مرَضٌ أصابه ولا شفاء منه. لماذا تتسلّل رائحة هذه الفتاة وتطغى على مشاعره وأحاسيسه؟ لم يستطع فهم تلك المشاعر التي سيعرف لاحقًا أنها الحب. كانت تجربته أقل من أن تجعله يدرك أن الحب أمر

ما ورائي. وأنه يُعاش بقوَّة، لكنه لا يفسَّر ولا يُفهَم.

10

غلوريا سونينو

كان يُعَدّ سعيد الحظ وهو يُنقل مع حوالى مئة سجين ومنفيٍّ إلى أرخبيل جزر تريميتي بقرار من المكتب الإقليمي للأمن العام. نُقلوا للاستفادة منهم في أعمال الفلاحة. وتمّ توزيعهم على جزر سان نيكولا وسان دومينو وكابريا.

كان حظّه في جزيرة سان نيكولا التي كان يعيش فيها المعتقلون طلقاء مع الأهالي. وينقسم هؤلاء إلى فئتين: فئة تعمل تحت إشراف إدارة السجون في ورش لصناعات حرفية ويدوية، كصنع أعواد الثقاب أو مقاعد الخوص، وفئة أخرى، أُخذوا للعمل كشيّالين أو في أعمال الزراعة والبناء. كان يعمل شيّالًا، ويتعرّض للإهانات وينتهي يومه منهَكًا لا يكاد يستطيع المشي إلى ذلك المسكن الجماعي الكئيب. وعلى الرغم من عهده لنفسه بالعودة، كان قد بلغ لحظةً يكاد ينقطع فيها الأمل بالعودة إلى أمّه وكرومه عندما أنقذته غلوريا سونينو، النبيلة الإيطالية المحسنة التي كانت تساعد السجناء وترغب في تحويلهم إلى المسيحية. بصحبة راهبة زارت ذلك المسكن، ومرّت عليهم واحدًا واحدًا لمعرفة ما يحتاجونه لتحسين ظروف حياتهم، فيما الراهبة تقدّم نسخة من الإنجيل. لم يخطر في بالها أنها ستعثر بينهم على سجين مسيحي كان والده قسيسًا وأمه سليلة عائلة أرثوذكسية معروفة في نصيبين.

على عكس حالة اليأس التي كان فيها، كان سيزار على موعد مع انقلاب قدَري سيلطّف من وطء قساوة نفيه.

عندما رآها لأوّل مرّة بدت نحيلة جدًّا وطويلة، شاحبة بوجه متطاول وفوق رأسها كشّة شعر شقراء بلون الذرة. بدا واضحًا أنها في منتصف ثلاثيناتها. عندما اقتربت منه لفت انتباهه تلك الوداعة في عينيها العسليتين. منحهما الذبول جمالًا وأجّجت الكحلة السوداء بريقهما. اختارته ليعمل عندها. حرّرته من المعتقل وطلبته من إدارة السجن للعمل في كرومها فترة ما تبقى له من السجن.

لم تكن تحتاج إلى العمل لتعيش، فهي أرملة دوق إيطالي، مات من دون أن تنجب منه وريثًا، وترك لها أملاكًا واسعة من الأراضي والكروم، تؤجّرها لمستثمر ينتج النبيذ، واكتفت ببضع عشرات من العرائش تعتني بها، وتنتج منها نبيذًا لاستهلاكها الشخصي ولتقدّمه هدايا لأصدقائها. تقدّمه بتفاخر لتؤكد أنها أفضل من يخمّر نبيذًا. وتفرح بمديح منتَجها كأنها استبدلته بحياتها السابقة بكل صخبها، واكتفت بأعمال إنسانية تقوم بها بصحبة راهبات دير قريب.

أوّل ما انتقل ليقيم في ملحق بالمنزل يقع في طرف الحديقة، أدهشته التماثيل المنتشرة في الحديقة التي كان يهتمّ بها رجلٌ يأتي للعمل بضع ساعات ويذهب، وذلك قبل أن يصبح هو المسؤول عن الحديقة، وقبل أن تصبح هي، غلوريا، رفيقته في العناية بها. تمامًا كما حصل

مع كرم العنب، الذي كان يأتي شخصٌ ليهتمّ به، قبل أن ينتقل الاهتمام إليه، وتشاركه هي هذا الاهتمام.

كانت قد مرّت سنة وهو يعمل عندها. وكانت علاقتهما تتطوّر إلى نوع من الحب يمنحه لها عبر تفانِيه في العمل كما لم يعمل في كرومه، وتمنحه له بجعله مساويًا لها، نقلته ليعيش معها في بيتها وليس في الملحق. وكما في الحديقة، كذلك في المنزل، أدهشته اللوحات المعلّقة على الحوائط، في كل مكان في المنزل، وشدّت انتباهه تلك المكتبة الضخمة.

في كل حركة منها تجاهه كان يشعر بأنها تريده، ويمنعها كبرياؤها وخجلها. وهو كان يمضي ساعات في ليله يفكّر في طرق باب غرفتها، ويمنعه خوفه من سوء التقدير.

كانت تقف قريبًا منه عندما رفعت يديها لتلتقط عنقود عنب، فكشف فستانها عن فخذيَهْا. اقترب منها من الخلف واحتضنها بحجّة أنه يساعدها على الإمساك بالعنقود. شعر بأن جسده يلتهب، ولاحظ أنها لم تبتعد عنه بل سقط عنقود العنب من يدها، وصمتت. تجرّأ وقبلها في رقبتها ورفع يديه ليمسك بثدييها فتأوّهت ووضعت يديها على يديه وضغطت. شعر بأن مسامه كلّها تتفجّر وهو ينزل فستانها عن جسدها.

«هذه أوّل مرة لي بعد وفاة زوجي، لكن الأجمل فيها أنها أول مرة تحت أغصان عريشة»، قالت له وهو جالس على التراب وقد أجلسها على فخذيه محتضنًا لها. رفع وجهها نحوه، فتبسّمت متسائلة

عن السبب.

«أريد أن أرى ما تقوله عيناك. وأريد أن أرى البهجة في وجهكِ».

منحته قبلة.

«الحضارة هي الفن»، تقول له بينما يشربان من نبيذها، وتقدّم له شرحًا عن اللّوحات. وتضيف: «الحب أيضًا فن، والتقبيل فن، والبوح فن، والشوق فن، والعشق خلاصة هذه الفنون». تقول هذه الكلمات، وتنظر في مدى تأثيرها فيه.

كانت -بالفعل- معلّمته في فنون كثيرة. علّمته الحب والاستمتاع، علّمته احترام المرأة، علّمته العطاء.

كانت مدرسته الجميلة التي تخرّج منها عقب أربع سنوات من تخمير العنب وتشحيل العرائش وتعشيب الكروم والدوالي. وإعادة خلق الحياة مرّة أخرى مع طعم خلاصة تلاشي حبّات العنب في بدن الخشب.

عندما كان يعبّر لها عن سعادته معها، قالت له: «السعادة هي أصعب ما يتمنّى أن يشعر به البشر. إنها ما نرجو ونأمل، إذ علينا أن نبتدعها من البساطة. علينا أن نعتصرها بحب وبقوّة. كما نعتصر العنب، وأن نعتّقها. لكنها ليست دائمة، وهذا ما يجعلها عزيزة».

«أدرك أن السعادة لا تكتمل! فبقدر ما أنا سعيد معك، تبقى تلك الفجوة حاضرة، وينتابني الخوف مما قد يحصل لأولئك الذين تركتهم هناك، في بلدي، أمي وكرم والدي وتلك الرائحة...».

غرزت سونينو أصابعها الطويلة النحيلة في شعره الأسود الكثيف وردّته إلى الوراء ليكشف كامل وجهه. نظرت في عينيه وقالت: «إنه لمن الغباء أن نخاف مما قد يحدث، فالقدَر لا يخبر أحدًا بخط سيره. والأغبى أن نهرب من رغبة بسبب الخوف من خطر. الخوف يقتل كل رغبة، وبالتالي يقتل الحيوية وحب الحياة فينا. قلة الذين يتجرّأون، ومن يتجرأون يحصلون على ما هو نادر».

خلّصته دونا غلوريا سونينو، من مشاعر الأسى. أعادت له إنسانيته بعد أن كاد الظلم والسجن يحوّلانه إلى وحش.

ينظر في وجهها ويبتسم. بفضل غلوريا تعلّم أن يرى الجنّة التي تمنحها امرأة! كانت تحب ملامسة وجهه ومداعبته عقب لحظة انتشائه وهي تمرر أصابعها على بشرته المتعرقة وتهمس له: «نحن النساء، فردوس هذه الأرض. كل واحدة منّا يمكنها أن تكون جنة صغيرة متجوّلة على قدمين. نحن أروع خمرة للنسيان، كل امرأة لها نكهتها.. علينا أن نعبّ حتى الارتواء قبل أنّ يمرّ الوقت اللعوب، ويتحوّل ما نراه ونعيشه إلى أشباح وصور لما عشناه يومًا في زمن سلف».

تعلّم مع غلوريا الإنصات. كانت امرأة حذرة، ولا تقبل بالمتوفّر. تصوم حتى تعثر على أكلتها المفضلة. علّمته كيف يمسك بلحظات السعادة، ويجد سعادته في ما يعيشه، فـ«لا شيء سيتكرّر ولا شيء سيدوم. إنها فتنة الحرية: فلا يمكن لجسد أن يكون حرًّا بينما يحتضن عقلًا مغلَقًا أو لم تصقله التجربة».

مع غلوريا تعلّم وعاش وجرّب وأتقن. تبدّلت حياته، أفكاره، ذوقه، مشاعره... إلّا تلك الرائحة. أحبّ سونينو كثيرًا، لكن فهرية بقيت في عمق رغباته. تلك النكهة التي حملها في شفتيه، لسنوات طويلة وهو يخوض في تفاهة وجمال الحياة، يعرف أنه لن ينسى طعم ورائحة جسدها، وأنه، بعيدًا عن هذه الجنة، يضني روحه وجسده.

11

الأبلهان إسطفان ويبرق

قبل حوالى سبع عشرة سنة من الآن، قطف الراعي الأبله إسطفان كميات كبيرة من المسك الروماني وأحاط به زوجته الخرساء، لتضع مولودها. لم يمنع البله ذلك الرجل المسكين من تذكّر خرافة أهل أنطاكية حول القابلات السبع اللواتي يحضرن خلال الطلق. إنهن الكوثرات الحاميات، والصغرى التي تحبّ النوم كثيرًا واسمها دامكتو تجلبها رائحة الزهر.

ولدت زوجته بين المسك الروماني طفلة بالغة البهاء. كان الوقت فجرًا عندما خرجت المولودة من بطن أمها، وسمّى إسطفان المولودة التي ظنّها ابنته «فجر». لم يسعفه خياله الساذج والبسيط أن يسمّيها بأحد تلك الأسماء التي تضجّ في القرية الصغيرة المحاطة بآكام مدغلة وأودية سحيقة تتخلّلها شلالات وتخترقها مياه الغدران المظلّلة بأشجار الدلب والحور والغار.

ولدت الطفلة في مكان لا يشبه ما يمكن أن نسمّيه منزلًا. كان شيئًا يشبه مغارة، أو صخورًا أشبه ببقايا بناء روماني قديم، ظلّ دهليزه مظلمًا صامدًا حتى يأتي الراعي الأبله إسطفان ويسدّ الناحية الشمالية منه بأخشاب قام بتفكيكها من صندوق ضخم تحطّم عندما كان «الرجل الألماني»، كما يسمّيه الأهالي، يحاول وضع تمثال من البازلت الأسود أخطأ العمال تقدير وزنه فتكسّرالصندوق، وهو ما اضطرَّ الألماني لأن

يستغني عنه. وحده المختار أبو طنوس يقول عن الألماني إنه عالم آثار. وقد كان ذلك قبل أن يأتي الفرنسيون.

وليكتمل بناء منزل اسطفان قام بسدّ جانبٍ منه بحائط بناه بنفسه من الحجر، وترك فتحةً هي بمثابة باب، وأسدل فوقها قماشاً سميكاً صنعه من بقايا خيمة كان عالم الآثار قد تركها وراءه أيضًا، قبل أن يصنع باباً من أخشاب الغابة لاحقًا لاتقاء البرد.

لم يكن المسكين اسطفان، الذي يرعى بضع بقرات لأرامل القرية العجوزات، يحلم بأن يعثر على امرأة تقبل به زوجًا، لولا أنّ الهدهدية اهتدت إلى فكرة تزويجه من يبرق التركمانية التي كانت في نهاية الشهر السادس من حملها، وهو ما أقلق أخوالها الأرمن الذين احتاروا بما يفعلونه مع ابنة أختهم التي وصلتهم نصف ميتة، ولم يعلموا بحملها إلا عندما كبرت بطنها بينما تتماثل للشفاء من جروحها وندوبها، التي تركها في جسدها أبناء عمها، إثر قصّة حزينة للغاية.

لقد خطرت الفكرة في رأس الهدهدية عندما حُملت يبرق إليها لتتدبر أمر إجهاض الوليد. بفراستها عرفت أن أخوال الفتاة يفضّلون التخلّص من الأم قبل الولد، إذ من الصعب أن تنجوَ حبلى من الإجهاض في الشهر السادس. لكنها شعرت بعاطفة تجاه تلك الفتاة التي وقعت ضحية عملية اغتصاب مريعة. ولمعت في ذهنها فكرة تزويجها لاسطفان، أبله قرية نيكال..

مسح إسطفان لعابه الذي يسيل على جانبي

فمه بكمّ معطف عسكري حصل عليه من بقايا جثة جندي تركي مات عندما حدثت مواجهة بين الجندرما العثمانيين الفارّين، لدى انتهاء حكم «العصملي»، وشبان هم في الحقيقة قطّاع طرق استيقظت وطنيتهم بهدف نهب العسكر المنسحبين. كان خبرًا غريبًا ما سمعه من الداية وهي تبشّره بأنها وجدت له عروسًا ستزَفّ إليه خلال أيّام قليلة. في البداية لم يصدِّق أو يكترث، اعتبر كلامها نوعًا من السخرية منه.

لكن! إسطفان يعرف أن الهدهدية لم يسبق لها أن سخرت منه كما يفعل معظم الأهالي، بل على العكس، لطالما دافعت عنه. وشعر بأن ما عرضته الهدهدية حقيقي عندما طلبت منه أن يأخذها إلى منزله لترى أين سيُسكن «عروسه». اعترضت على المكان الذي قالت عنه إنه لا يتّصف بصفات البيت. حارت الهدهدية في ما تفعله! يمكن للبيت أن يصلح لشخص مثل إسطفان يعيش في العزلة ويعرف كل حجر في تلك المنطقة وفي المناطق المحيطة حيث يخرج للرعي، لكنه لا يصلح لتكوين عائلة، وهي تعرف أن يبرق حامل.

لم تكن إمكانيات إسطفان تسمح له ببناء منزل، ولم يكن ذلك فقط بسبب فقره المدقع، بل لأنه كان راضيًا بحياته، ولا يريد العيش قريبًا من أهل القرية الذين يتعاملون معه بازدراء مهين. لقد اختار موقع البيت إلى جانب مقابر قديمة نبشها الأهالي بحثًا عن الآثار والذهب، فهنا لا يأتي أحد منهم لأن المكان مسكون بالجن كما كانوا يقولون. لم يكن إسطفان يقيم أي اعتبار لما

يقوله أهل البلدة عن الأشباح والأبالسة، بل يعتبر أن معاملة الجن لن تكون أسوأ من معاملة البشر.

بالطبع، لم يكن يتوقّع إسطفان أنه سيستقبل زوجةً يومًا ما في هذا المسكن. ولم يكن أمام الهدهدية سوى أن تستسلم، فهي لا تجد حلًّا أفضل للمهمة التي انتدبت نفسها لها. فأبلغته بأن «عروسه» ستكون عنده بعد يومين، من دون أن تتوقّف عن تكرار القول بأنها تسدي له معروفًا كبيرًا بمنحه امرأة تقبل أن تعيش معه في ذلك المكان الأشبه بكهف، وأنه عليه أن يعِدَها بأن يهتمّ بها ويحفظها ويعمل على إصلاح الوضع وتوفير مكان لائق للعيش.

كان إسطفان في غاية السعادة بعروسه التي بدا له أنها توازيه بلاهة، لكن مشكلتها أنها تبكي كثيرًا.

فهم أن الباب المكوّن من خرقة بالية لم يعجبها، والفراش الوحيد في ذلك الدهليز أيضاً نفرت منه، وتلك الأواني القذرة التي شكّلت أساس مطبخه: «ثلاث ملاعق خشبية اسودّت حوافها، وقدران كبيران من النحاس مبقّعان بالأخضر، ويغلفهما سخام أسود، وطاستان من القصدير منفّرَا المنظر، وسطل نحاسيّ مخضرّ بسبب الصدأ الذي بدا كطحالب ملتصقة على بدنه...».

لاحظ أنها كلما أمسكت بهذه الأشياء، يغشاها البكاء.

كانت يبرق يومًا بعد يوم تدرك أن هذا هو

مصيرها، وكلما كانت تنظر إلى ما يبذله إسطفان لفهم ما تريده، وترى كم هو حريصٌ على مساعدتها وإرضائها، من دون أن يقترب منها، كان يخفّ بكاؤها. وهكذا رأت أن تعمل على ترتيب ذلك المكان البائس بقدر الممكن. حملت كلّ ما في الدهليز إلى بقايا قناة رومانية قديمة ينضح منها أهل البلدة المياه لسقاية بعض الأراضي المحيطة، وتجتمع حولها بعض النسوة لغسل الثياب وجلي الأواني. ولأنّها وافدة جديدة، وامرأة جميلة على نحو ملفت، وبلهاء تطلق أصواتًا من دون أن يفهم عليها أحدٌ ما تقول، فقد طردتها نسوة القرية. ووجدت نفسها تبحث عن مكان آخر تتوفّر فيه المياه التي تحتاجها. وعندما كانت تبحث عن مكان تجري فيه المياه وصل إسطفان، وفهم ما حصل عندما رأى النساء ينظرن نحوها نظرات خالية من الشفقة.

بالطبع لم يكن الأمر صعبًا على إسطفان الذي يعرف كل صخرة وكل شجرة في المنطقة. حمل عنها الأغراض وجرَّها من يدها إلى بقعة بعيدة عن أعين أولئك النسوة. طلب منها أن تجلس تنتظره، وبواسطة عصاه الغليظة فتح طريقًا بين النباتات العالية بحيث تغطي المكان ومن يجلس فيه. ثم أشعل نارًا في الأعشاب المتبقية في الممر ليسهّل المرور وليطرد أي عقارب أو أفاعٍ أو حشرات. وهكذا صار لزوجته ساقية تخصّها وحدها.

رأى إسطفان لأوّل مرة بسمة من يبرق. وصارت يبرق تتقبّل الحياة مع إسطفان، بل صارت تشعر

بأنّ هذا بيتها. وبعد مرور أربعة أشهر، وكان الوقت ليلًا، استيقظ أسطفان على صراخ يبرق، وأفهمته أن عليه أن يأتي بالداية الهدهدية؟!

فجر

هاجت القرية وماجت استغرابًا ودهشة وضحكًا وهم يرون أسطفان يزفّ النبأ السعيد لأهالي القرية، ويخبرهم أنه رزق بابنة سمّاها فجر!

حسم خوري الكنيسة نوفل شعيرات، اللغط في القرية وبسط سطوته الرحيمة، وهو يعمّد الطفلة مثلها مثل أي مولود آخر. عمّدها وهو يدرك الحيلة التي قامت بها الهدهدية الحاذقة، والتي رأت أن إسطفان سيكون سعيدًا بامرأة تقاسمه بؤسه مهما كانت ظروفها، ولأن الهدهدية جعلت الخوري غير قادرٍ على الرفض.

يعلم كل أهل القرية أن إسطفان لا يستطيع مجامعة امرأة، وبالكاد يفيده عضوه للتبوّل!! وإسطفان نفسه لم يكن يدرك وضعه قط، ولا يفقه حقيقة ما يحدث بين رجل وامرأة لكي ينجبا طفلة بمثل كمال وجمال من سيعتقد بأنها ابنته حتى يموت. ولذلك لم يتأثّر، ولم يفهم سخريات وتعليقات أهل القرية، بل كان لمجرّد أنه يسمعهم يذكرون اسم ابنته أو زوجته يضحك بفرح...

ولدت «فجر» لتغيّر حال إسطفان. أحبّها حبًّا عجيبًا، صار يحرص على تأمين اللحم ليُطعم الأم. يتربّص بالأرانب فيقبض عليها، وينشر الأفخاخ وعيدان الدبق للإمساك بالعصافير، ويذهب إلى النهر ليصطاد السمك. ويتأمّل كل يوم ذلك الوجه

فينام مبتسمًا.

صار كلما عاد من الرعي يحملها على كتفيه. يذهب بها إلى القرية وهو يعيد البقرات والماعز إلى حظائرها. يراها الناس متشبّثة به لا تفارق عنقه. عندما صارت تمشي صار يأخذها معه، يفتش عن كل ما يؤكل من نباتات البرّية ليقدّمه لها. يتسلّق ليجلب لها ثمار شجرة تين نبتت في جرف، أو يعبر ساقية ويدخل في دغل، ليجلب لها العنب أو ثمار توت العليق.

صارت فجر تعرف كلّ أسماء الحيوانات والنباتات والطيور. صارت قادرة على التسلق في أصعب الأماكن، ولا تخاف الحشرات ولا الزواحف. في السابعة من عمرها، عندما طلب الخوري نوفل من إسطفان أن يرسلها إلى الكنيسة لتتعلّم، كاد إسطفان أن يرفض، فهو لا يريد أن يذهب إلى المرعى من دونها. لكنه لم يكن يجرؤ، ولا يرغب، بمعارضة الخوري. وكم دُهش الخوري، بل كم دُهش كل أهل القرية، من ذكائها الفريد وشيطنتها. كانت الأقوى، والأكثر سرعة في التعلّم. الفتيات صرن يرغبن بالتقرّب منها، والصبيان يلاحقونها ويحاولون التحرّش بها وإزعاجها. وكل من أزعجها تلقّى صفعة من كفَّي فجر السريعتين والماهرتين في كلّ شيء.

سرعان ما تعلّمت فجر نظام حياة البلدة. فعلَّمت والدها أن يطلب النقود مقابل عمله. وغيّرت الكثير في بيتهم. رتّبت هندام أمها وأصبحت تأخذها بانتظام إلى الكنيسة وسط استهجان النساء اللواتي أخبرنها عشرات المرّات كيف ولدت؟ لكنها

لم تكن تنصت قط، بل تستهزئ بهنّ، وعندما تجد نفسها محاصرة تلوذ بالخوري شعيرات الذي شكّل لها حماية قوية في مواجهة اللؤم. مع الوقت ما عادت تخافهم. لقد قرّرت ألا تكون ضعيفة.

12

أنطاكية 1936

امرأة تعشق اللون الأصفر

عندما التقاها عوني أرشدان في منزل القنصل الإسباني، كان يجلس إلى طاولة القمار في المنزل الجبلي المطل على ميناء أنطاكية. كان ثريًّا بائسًا، مشغولًا بالبحث عن شيء يحرِّك مياه حياته الراكدة، يبحث عن المرح، فيصرف وقته بين الخمر والموسيقى الصاخبة ومائدة القمار، لكن كل هذا لم يخفِّف من تعاسته. مع أنه يختزن في سيرته سنوات عاشها غارقًا في جَني متع الدنيا، إلا أنه كان حينها تعيسًا يستجدي لذّة من فراش أو من قِمار أو من خمرة، يغرق فيها ويعرف أنها ستنتهي ما إن يعود إلى الواقع.

لفته ثوبها الأصفر عندما دخلت، فهو يحب اللون الأصفر. ولم يلتفت إليها كثيرًا حين أنشدت على مقام «كورديلي-حجاز كار». ولا عندما غنّت أغاني منيرة المهدية، مع أنه يعشق تلك الأغنيات. لكن لفتَته جرّأتها المغناجة عندما غنّت أغنيات لماريكا نينو وروزا أشكينازي. لاحظ عوني أن صوتها عاديٌّ، لكن مرَحَها وجمالها جعلاه يرفع بصره عن أوراق اللعب، ويُنصت وينظر. اقترب منها ووصف صوتها بالملائكي مكرّرًا كلمات كمال أتاتورك في وصف صوت منيرة المهدية وهو يقلّدها وسام الدولة. ضحكت وهي تقول له: «لكن هل تتذكّر أن أتاتورك، الذي لم يكن يطيق سيرة العرب ولا دينهم، أحبّ الموسيقى العربية بسبب صوت

منيرة المهدية التي كان قد سمعها وقابلها في القاهرة، كما اعترف بنفسه على مسرح سرايبورنو. وأنه أُعجب بغناء منيرة المهدية، رغم تعاليه على الموسيقى التركية، التي منع بثها في الإذاعات لمدة عامين معتبرًا أنها موسيقى قديمة!».

ردّ عليها: «لا تهمّني الذكريات، فالذاكرة امرأة تحبّ أن تعذّب عشّاقها، وأنا أبحث عن ذاكرةٍ تبدأ من اليوم».

ضحكت كثيرًا، وأعجبها ردّه، وراحت ترقص، منطلقة حرّة، حتى ظنّ للحظة أنه يقابل فتاة أمريكية وهو يسند ظهره إلى حائط مزدحم بالرسوم والخربشات والتوقيعات المجنونة للسكارى، في تلك الحانات المعتمة لجادات نيويورك، حيث تصخب موسيقى الجاز. لكنه كان في وطنه، فمن أين أتت هذه الشابة المنطلقة، الذكية، المشرئبّة برأسها كأفعى؟!

انتقلت في نظره فورًا من فتاة يفكر في اصطيادها لليلة أو ليالٍ، إلى امرأة رأى فيها جاذبية تضرب على وترٍ خفيٍّ عنده. أسرَ عوني تدفّق الشابة السمراء صاحبة العينين الخضراوين، وتلك الغمازات الطويلة التي تخترق خدَّيها على نحو ملفت. رأى في وجهها وحركاتها فرحة كفرحة الأطفال. لا تحسد، ولا تكره، ولا تحقد.

من ردة فعلها المَرِح اكتشف أنها ذكية وسعيدة. إنها شيطانة، فلا يجتمع الذكاء مع السعادة عند البشر العاديين. «كانت تجمع الذكاء والسعادة، وفي اجتماعهما يكمن جمال خاص»،

كما سيقول لصديقه سيزار الفايز لاحقًا.

لقد كانت امرأةً تلبّي كل طموحاته مجتمعة. أُعجب عوني أرشدان بسمرة وجمال وذكاء ومرَح تلك الشابة، ولم يلتفت لتنبيهات بعض أصدقائه، وخاصّة القنصل الأسباني الذي دعاه لأن يتمهَّل، قائلًا له وهو يضحك: «لا تظنّها عذراء، لم يلمسها أحد قبلك».

لكن عوني لم يهتم، ولم يتأثّر حتى بعد أن عرف عنها الكثير، وعلم أن عذريتها بيعت لأميرالاي تركي مقابل ثمن كبير دكّته أمها «زنبق أفندي» فوق ما لديها من ثروة. الأم المغنّيّة والقوّادة التي تعرفها كلّ أنطاكية، زوَّجتها مرتين وطلقتها، وفي كلّ مرّة كانت تحصل على المزيد من المال.

لقد جذبه وأثاره، عبثها وغنجها، فلم يعد يهمّه ما عداها. وفي أوّل لقاء لهما بعد تلك السهرة في منزل القنصل، وعندما سألته بجرأة ومن دون مواربة: «ما الذي يعجبك بي؟».

نظر إليها، وبدا كأنه يستجمع كل ما في ذاكرته.

قال لها:

«ما أكثر ما رأيت وعاشرت! وأحببت أيضاً.. ما أسهل الحصول على الأجساد، أعترف بأني مندفع ومتّقد في كل ما يتعلّق بالجسد والهوى. مرّ عليَّ وقت حصلت فيه على الأجساد بذات السهولة التي أشتري بها التبغ! نعم، فقدت الدهشة، بسبب الاعتياد، وأصبح الحب هو الجسد، وقد أعامله بقسوة لأحصل على متعتي. كنت

أتوق للمغامرة من جديد، ولا مغامرة من دون لمسة خطر، وأنتِ خطر. أنتِ شرّ جميل مموّه بسعادتك الشيطانية، عندما دعاني القنصل إلى السهرة حيث التقيتك، شجّعني بقوله: «ستكون سهرة لا تُنسى». ضحكت وقلت في نفسي: هكذا ليلة ما عادت في قاموسي. عشتُ كل الليالي حتى تجاوزت مغامرات ألف ليلة وليلة. لكن رأيتكِ. رأيتك ليس كامرأة جميلة ولا كجسد أشتهيه، بل كطرازٍ لم أكن أتوقّعه. فأنتِ «دادائية، سريالية، تشبهين حماقات مجلة «ليتراتور». أنت هدّامة، ومفرطة التخريب، أنت أكثر من ذلك.. أنتِ خطاب دادائي، ومنشور سريالي. أنت ضدّ العقل والمنطق والتفكير، تنتمين إلى عالم اللاشعور واللامألوف واللامتوقَّع. قابلتُ كثيرًا من المتحرّرات في بولفارات نيويورك، وعواصم أوروبّا، لكن هنا؟ أنتِ فريدة، ونادرة وثمينة ولا تتكرّرين، أنت «ميد إن يوروب! خارجة من كرّاسات فن الآرت ديكو. يا ألله أنتِ تشبهين كل ما أحب وأفتقد. في سمرة بشرتك لمسة من جوزفين بيكر وهي ترقص في استعراض «جنون النهار»، وقد تمنطقت بحزام من الموز. ولعظمَيْ وجنتيك النافرَين وعينيك الذئبيتين الخضراوين لمحة من مارلين ديتريش وهي تؤرق البشرية كلّها بربلتَيّ ساقَيْها، بينما تداعبهما وتنظر بخبث لا نظير له تجاه جمهورها. وتقول: «أنا لولا.. أنا لولا أنا لا أنتمي إلى أحد...»؟! في حركاتك وثبة الوحوش، الخفيّة والواثقة. لديكِ لمسة من الشرّ، شرٌّ لا يعرف الانتماء لشيء غير شهواته وأنانيته. بدلًا من جسد لولا الرقيق النحيل لديك فخذا جين

بورجوا الأسطوريتان. نعم أنت هي بذاتها في نصفها الأسفل الباذخ. مغرية أنت، وجذّابة. آه، نعم، أنتِ كأغنية «جيه دوزآمور»، أو كمنحوتة من معرض النحت المعاصر لغاليري «بيرنهايم»، أنت ولع أمريكي محموم بباريس، تعالي تعالي أيتها «الجاز» المباغت، من أين أتيت؟ يا من تعشقين اللون الأصفر.. هذا اللون المعادي للاطمئنان. قلق النرجس وغطرسته. نقيض الثبات والأمان، إنه فتنة اللامبالاة، إنه لون الشكوك والظنون والشبهات، هو البلبلة بحدِّ ذاتها. إنه لون نرجس «الأنا». أنتِ ابتسامة ساخرة، واندفاعٌ مكابر، حرّ ليبرالي. أنتِ كائن استبدادي، لا يرحم، جنيّة بزعانف وحشية. كل من عرفتهم يحبّون هذا اللون هم من صنف «المغادرين» دائمًا. جريئون بالإبحار وحرق كل المراكب خلفهم، من يرتدي الأصفر هو من لا ينتظر شيئًا من أحد، حرّ من كلّ الحسابات. الأصفر لون الطرقات، التي نشقّها بأنفسنا، نمشي ونذُرّ الغبار في عيني الماضي. أن ترتدي الأصفر يعني أنك تبحرين في وجه الكلّ، إذًا أنتِ نفسك: بشرتك وفيضك ولعبك وفوضاك ونزواتك».

ضحكت مقهقهةً: «أنا أحب الدُمى، وأعشق السينما وأجمع البوسترات... كثيرًا مما قلته لا أعرفه، لكنّي أقول لك إنني أكثر مما وصفت، فكن حذِرًا».

بعد مضيّ شهرين على زواجهما، اقترح عوني على عدوية التي بات يسميها «دادا» أن يجرّبا حياةً خارج اسطنبول، حيث الطبيعة والأساطير، ولاقت الفكرة هوًى في نفسها.

علم أن «دادا» هو لقبها وليس اسمها. وأن اللقب مستلهَم من اسمها: «عدوية».

عدوية.. قبل.. دادا

«عليك أن تسعى لتكون أنت محرّك العرائس على مسرح حياتك».

هذه حكمة امرأة اسمها الزنبق. أشهر مغنيات لون «السميرنايكو» في أزمير. امرأة تعلّمت من الحياة الكثير، وساعدها تنوّع البشر الذين عرفتهم، امرأة عانت الكثير. لكن، وبسبب ظروفها، صارت امرأة حرّة..

كانت تغني بلسان شامي «عيني يامو يامو يامو زعلانة ليش يامو». بينما الأميرالاي التركي الخمسيني، لا يزيح بصره عن ابنتها عدوية التي تتمايل وترقص على صوت أمّها.

حدث ذلك قبل ثلاث سنوات من لقاء عدوية بعوني أرشدان، الذي أطلق عليها لقب «دادا».

شابة ملفتة بقامتها الهيفاء وسمرتها الخفيفة التي تشوبها حمرة وشعرها الخرّوبي الطويل. في عينيها براءة تجعلك تظنّ أنها فتاة صغيرة. كانت قد أنهت مرحلة الدراسة الثانوية. حافظت الزنبق على إبعاد ابنتها عن الجو الذي تعيش هي فيه. أرادت لابنتها مثل كلّ الأمهات، مستقبلًا محترَمًا ونظيفًا. لم تبع عذرية البنت كما أُشيع عنها عدة مرات! لكنْ، ثمة قطب مخفية في حياتها وماضيها أخفتها ببراعة امرأة من طراز الزنبق. امرأة مهيَّأة تماماً لاستثمار مَكرها وأقنِعَتها الكثيرة.

أعدّت زنبق ابنتها بعناية كبيرة بحيث تكون حياتها متّفقة مع حِكمتها بأن «تكون محرّكة العرائس». حرّرتها من التعصّب لأيّ شيء. عوّدتها على أن تكون آراؤها حرّة. علّمتها أن التعصّب يقتل الإبداع حتى لو كان تعصّبًا لزهرة أو شجرة، وأنه ملاذ الفاشلين والخائبين والضعفاء والقلقين. وضعتها على منصَّة الحياة العصرية بكل معنى الكلمة. كانت تريد لها ما لم تجده في حياتها. تريد لها ما تعلّمته هي من تجربتها المرّة: أن تكون حرّة، وأن تكون حرّيتها ثمرة معرفة حقيقية بالحياة.

لم تخفِ أمها أصلها عنها كما تفعل مع الآخرين. أخبرتها أنها حلبية من أصل يهودي، وأنّ أباها سوري مسلم من مدينة اسكندرون. لكنّ الزنبق علّمتها أنّ هويّتها هي ما تصنعه بنفسها. عبّأت الزنبق رأس ابنتها بكل ما يلزم، لكي لا تتعصّب أو تتحزّب أو تشعر بأنها أقلّية أو فئة أدنى. علّمتها ألا تنتمي لأحدٍ، ولا تسمح لأحد أن يكون سيّدًا عليها. سجّلتها للدراسة في أحسن مدارس انطاكية، قبل أن تضحّي بثلاث سنوات تركت فيها إدارة الفندق إلى مساعدها، وتقرّر أن تنتقل مع عدوية إلى إسطنبول لتكمل تعليمها الثانوي في المدرسة الإفرنسية.

كات عدوية في فترة بداية مراهقتها عندما عادت ذات يوم من دعوة غداء لطالبات الصف عند إحدى صديقاتها من بنات الذوات وقد ظهر الحزن على وجهها، وبالكاد أخفت آثار الدموع في عينيها. وبعد إلحاح أخبرت والدتها بأن إحدى

البنات كلّمتها بتعالٍ ملمّحةً إلى أنّ أمّها مغنية وراقصة أعراس. وأن المال الذي تصرفه عليها ليس شريفًا.

احتضنت الزنبق ابنتها، وأخبرتها شيئًا ستتذكّره عدوية كل حياتها: «هناك سرّ فتّان يميز البنات الذكيات، أتعلمين ما هو؟». نظرت الفتاة بعينين حمراوَين إلى أمها التي تحيطها بذراعيها، وسألتها: «ما هو؟»، فردّت الأم: «عندما نبكي يجب أن نبكي لأنفسنا، لأن الشياطين تنشط كلما بكينا. لأنها لحظة ضعف، والضعف ليس عيباً إنه سمة البشر، لكن الأفضل أن نجرّب أن نعيشه لوحدنا. كلما ضعفتِ وأردتِ البكاء، اعتزلي البشر. هذا طقس نعيشه لوحدنا، فلا تعرف الشياطين أسرارنا. وهكذا نخرج من بكائنا مغسولين كما القمر الجديد. نبسط نورنا وذكاءنا كما لو أن شيئًا لم يكن».

مرّت كل مراهَقة عدوية وهي تداري دموعها عن تلك الشياطين الخبيثة التي تحدّثت عنها أمها.

رمت الزنبق أمام ابنتها كومة من الدمى بعد حادثة تعييرها بنَسَبِها من رفيقاتها بأسبوع، وقالت: إن صداقة هذه الدمى أجدى من صداقة تلك الفتيات اللواتي يعيّرنكِ بما لستِ عليه. أنت أجملهنّ ولا شك عندي، وأنت وحيدة أمك ومدلّلتها، وأنت لست من بنات البكوات، والباشوات، وهذا لكِ لا عليكِ، ومع ذلك تدرسين في مدارسهن. وأنت حرة وهنّ مقيدات. سيأتي الوقت ويحسدنك، فبماذا يتعالينَ عليكِ؟ المرأة التي تتباهى بحسَبها وتتبجّح بنسَبها وتستعرض

«مالكاناتها»، هي امرأة مسكينة تلعب في ملعبٍ يهيمن عليه الرجال».

كانت تلك الحادثة فرصة وجدتها زنبق مناسبة لحوار مع ابنتها. فبعد صمتٍ تأمّلت فيها وقالت بنبرة حازمة: «اسمعيني جيّدًا، اسمعي كلامًا سأردده وأردده حتى تدركين معناه لأنكِ فتاة ذكية: إن من يصرفون وقتهم على انتقاد غيرهم وتصيّد أخطائهم، هم الفشلة. ممنوع أن تكوني من هؤلاء. ومن يرتضون أن تكون آراؤهم وتصرفاتهم وكلامهم ولباسهم صدى لغيرهم، هم الخرفان. أيضًا ممنوع أن تكوني من هؤلاء. هل تريدين أن تكوني نعجة؟! غير مسموح بوجود نعجة في بيتي. فلا تنتمي لأيّة شلّة ولا جماعة. الحياة رغبات. ومع الخرفان ستكونين ضحية. قطيع مقرف، نمّام، وخروجك لاحقًا سيعتبر خيانة لكل القطيع».

ظلّت الأم تعيد وتكرّر على مسامع ابنتها أن ما يجب أن يهمكِ: «أولًا، هو ما تستمتعين به، وليس درء ما تخافين منه. وثانيًا لا تكوني تابعة، ولا تسعي لأن تكوني قائدة، فكلا الأمرين يؤدّي إلى إلغاء فرادتك».

لقد بقيت زنبق على صمتها لجهة تاريخها الشخصي، وتاريخ عائلتها. لكن كان واضحًا لكل مَن عرفها أنها تمتلك ثقافة رفيعة ليست معتادة في مثل تلك الأماكن التي عاشت فيها. وعندما تتكلّم تكون لغتها بعيدة عن الابتذال. بل تتمتّع بمشية وحركات ونظرة تفرض الاحترام، حتى وهي تعيش وتعمل في ميدان غريب على امرأةٍ من

هذا النوع.

لأول مرة تكلّمت زنبق مع ابنتها بما كانت تريد زرعه فيها. أرادت الزنبق فتح الطريق لنمو ذلك الشيء المضاد الذي يميز الشخصيات المستقلّة في صدر ابنتها. ليتحوّل ذلك إلى شيء مدرَّع في داخلها، لا يفسده الضعف أو الخوف، ولا يخترقه شيء. إنه درعٌ يقاوم الهزائم. فطنت الزنبق مبكراً إلى «الأخدود» الذي يعلق فيه البشر بسبب تربيتهم على استجداء رضى الآخرين، لأنها تعلم أن الاحترام الذي يرغب به كل أبناء آدم لا يتأتّى إلا للقوي. أرغمت ابنتها على أن تتفوّق في دروسها، وعلى الانضباط اليومي وتقدير قيمة الوقت. منحتها الثقة اللازمة لتعثر على القوة وتربّيها في عقلها وقلبها.

المرأة التي تبكي كثيراً ضعيفة أو مريضة بدودة الغيرة من الآخرين. شفت الزنبق ابنتها من داء الدموع. نزعت منها ذلك الشيء المضطرب الذي لا يهدأ، قلقٌ يطلّ برأسه أمام كل تحدٍّ، يعشّش في أرواح التابعين الذين يظنّون أنهم أدنى من غيرهم، أو الذين يندبون حظّهم التعيس. قلقٌ له اسم واحد: الخوف.

لكن، وللأسف، وعلى الرغم من كل الدروس والتحذيرات، كانت الزنبق تعرف أن هناك مرضًا واحدًا يخترق، بل يحطّم، ذلك الدّرع الذي أحاطت به الزنبق ابنتها!! إنه مرض تعرفه زنبق جيداً وتعرف عنفه الذي لا ينفع معه دواء. إنه الحب.

الحب!؟ لا يمكن للزنبق أن تحصّن ابنتها من هذا المرض. إنه مرض، هكذا تراه الزنبق من تجاربها،

هي التي من أجله صارت حيث ما كان يمكن لها، ولا لأحد ممن عرفوها، التفكير في احتمال أن تكون حيث هي اليوم، فلم تكن في حياتها مقدّمات توحي باحتمال أن تكون حيث هي اليوم. وكم ستعاني لأنها لم تستطع تحصين ابنتها من مرض الحب الذي سيكون من الصعب جدًا أن تخلّصها منه. فهي تخاف، ولا تتمنّى لابنتها أن تنتهي إلى ما انتهت هي إليه!

مع أن الزنبق لم تكن لتشجع ابنتها على الغناء، إلّا أنها حين تنظر إلى نفسها، في عمر ابنتها، تدرك أنها لن تسمح لنفسها بأن تكون الأم التي تخنق موهبة في ابنتها. تعرف الزنبق أنه لا بد لابنتها من السير في حياتها، ومهما فعلت لا يمكن أن تكون النتائج متطابقة مع ما خططت له. أمران ما كان للزنبق أن تسمح بأيٍّ منهما مهما كان عليها أن تفعل. حتى ولو اضطرت إلى الدوس على مشاعرها! أمران عذّباها ودفّعاها كثيرًا، ولا تزال تبعاتهما التي لن تزول. لن تسمح لها أن ترمي نفسها في الحاجة إلى غيرها من الناس. ولن تسمح بأن تكون مستلَبة الإرادة من طرف متجبّرٍ يُخضعها لشروط لا ترغب بها. لن تسمح مهما كان الثمن.

صوت عدوية لفت أمها. كان أجمل من صوتها. صبية جميلة مزهوّة. وقفت الأم أمام ابنتها، وقالت عبارةً لم تفهمها البنت يومها. ابتسمت لها وقالت: لا يغني حذَرٌ من قَدَر.

أصرّت البنت أنها تريد أن تغنّي في الحفلات. واضطرت زنبق أن تنزل عند رغبتها وتأخذها معها

إلى بعض المناسبات والحفلات، حتى صارت البنت مطلوبة أكثر من الزنبق. لم يمضِ وقت طويل حتى لاحت المصيبة. لم يكن حبًّا، كان انخطافًا. حضر ذلك المرض. إنه شيطان يدخل من الشبابيك إذا أوصدت الأبواب. نظرة مخترقة، ومشتِّتة، تخرّب كل الدروع. كان على الزنبق أن تواجه المحذور بسرعة. بذلت جهودًا كبيرة حتى استطاعت أن تفعل شيئًا ينقذ ابنتها من الخطر الذي مثّله الضابط الشاب مهتيار ظفَر. متخرّج من معهد أركان الحرب، «حرب أكاديمي» برتبة «غول آغاسي».

تعلم الزنبق أنها عندما تلبّي دعوات القناصل والبيوتات الثرية وتغنّي بصحبة فرقة التخت الشرقي فإنها تكون وجهًا لوجه مع الشهوات والعواطف الجياشة التي تزفرها صدور الرجال مساءً عقب شرب الخمرة. مآدب رغبات عامرة تجذب أولئك الضباط الشبان الذين يطوفون بحثًا عن طرائد مكتنزة ترضي شبقهم. بدا «مهتيار ظفر» قويًّا فائضًا بالطاقة والصحة، صلبًا كالحديد، مطمئنًا إلى شبابه وكتفيه العريضتين وشاربَيه السوداوين. لا يختار الحياة العسكرية إلا رجال يفيضون بالشعور بالقوة. فلا يمكن شنّ الحروب من دون تلك الطاقة الفيّاضة، ولا تُفتح المدن أو تهدَم إلّا على أيدي مثل هؤلاء. وكان ذلك الشيطان المغوي جميل مهتيار ظفر من صنف الفاتحين القاهرين، وعليها أن تفكّر كيف تبعده عن ابنتها. تخاف الزنبق من مثل هذا المعتدّ بنفسه وبقدرته على التطويع.

لكن الشاب الوسيم جاء بنفسه بالفرج للزنبق، حين دعا خاله «الأميرالاي» إلى سهرةٍ تغني فيها عدوية. انشدةَ الأميرالاي الستيني بصوت وبحركات عدوية وغنجها.

بدا المير ستينيًّا. بحكم خبرة الزنبق تعلم أن الرجال كلّما تقدّموا بالعمر تصبح وسيلة التعبير عن الهوى عندهم هي النقود. وهكذا وجدت في الخال الأميرالاي فرصة للهروب بابنتها من مرض الحب، وتزويجها من رجل يحميها وليس له متطلّبات من شبابها، ولا يتجبّر عليها، ويترك لها قريباً -وهي بعد شابة والحياة أمامها- ثروة تضمن لها حياة لا تعوزها لأحد من البشر. كان لدى الضابط الستيني العجوز كل ما كانت تتمنّاه الزنبق. ولم يطل الأمر حتى بدأ الأميرالاي يتقرّب إلى الأم ويمتدح طوال الوقت البنت التي كانت محط أنظار كل العيون.

هدرت الزنبق الكثير من الكلام ومن الحكايات عن تجربتها في الحياة وما تعرّضت له. استخدمت كل أسلحتها حتى استسلمت عدوية لقرار أمها، وزُفّت للأميرالاي الستيني.

لكن الغول آغاسي، الشيطان، ظلّ قريبًا منها. بل صار يحرص على ألّا يفارقها لحظة. يرافق خاله أينما حلّ. تسلّل إلى قلبها، اختطفها. كان له من اسمه نصيب: مهتيار ظفر. ومعناه: المحظوظ الظافر.

عبثت يد الحبّ الخفيّة ودفعت بقارب عدوية في عباب بحره. حرّرها مهتيار من إكراه الزواج الذي جرّتها إليه أمها. علّم جسدها لغة محاورة جسد

آخر.

من الأمور التي أقنعت الأم ابنتها بها لتتزوج من الرجل الستيني الأميرالاي، أنها لن تكون مضطرّة لتقديم جسدها لعبث رجل ينتهكه. لكنها مع مهتيار اكتشفت متعة هذا النوع من الانتهاك. تحوّل الجسد عندها من مكروه إلى مرغوب، من مقرفٍ إلى مشتهى. صار متعة رائعة تعيش عليها بين لقاءين.

لم تكن الزنبق تريد لابنتها أن تطوّع الجسد وتحقّره وتنكره وتغيّب متعته. إلّا أنها كانت تريد لها أن تحوز أولًا على المكانة، وثانيًا على الثروة، وبعدها ليكن ما يكون. خافت على ابنتها من الرجال الذين عرفتهم هي، وتعرف كيف يذلّون المرأة، ويعاملونها كجسد يمتصّون منه اللذة ويرمونه من أجل جسدٍ آخر، سيرمونه أيضًا. لكن الحب كان أقوى من كل ما خططت له الزنبق. خطف مهتيار عدوية بسلاحٍ لا يمكن لشابة مثلها أن تقاومه. أوغل في إيقاظ جسدها من سباته وفتح كل مساماته.

عشقت عدوية ذلك الضابط الشاب الذي تربّى في سالونيك عند الرهبان الفرنسيين. متهوّر، مندفع كطلقة، حاد كشفرة مسنونة، بسيط، جامح، شبق، وحرٌّ. يمتلك ثقافة تبعده عن حماقة الغطرسة الجوفاء التي يتميّز الضبّاط غالبًا بها. فتح لها عقله وحدّثها عن قناعاته، وعن فلسفته في الحياة. فلسفة حفرت عميقًا في عقلها وجسدها، وصدّقته: «العشق فنّ ومهارة كما التطريز والحياكة والرقص والطبخ. والجسد ليس

رذيلة، والفضيلة طريق مختصرة إلى التعاسة؟!

تضحك عدوية. يقبّلها ويضاجعها بشغف وهو يهمس لها: «اللذة دواء الروح عبر الجسد. حين يلتحم الجسدان، تتوهّج الروح».

ستبعده الأقدار عنها، لكنها لن تنسى قط ما كتبه لها ذات يوم على ورقة ما زالت تحتفظ بها: «يجب أن يمتلك أجنحة مَنْ لا يريد أن يبقى مغلولًا في الأرض». ومع الورقة قلادة ذهب تجسّد امرأة لها جناحان، وقال: «إنها ربّة النصر. دقّقي النظر في النصر المجنَّح، كيف يتطاير رداء المرأة كاشفًا عن إحدى الفخذين، إنها إشارة التمرّد. نعم، التمرّد هو جناح يلد أجنحة، إنه حلم يتكاثر».

حانت اللحظة الأليمة ودخل الشك إلى قلب خال مهتيار، زوجها الأميرالاي. طَلّقها، وأرسلها إلى والدتها، وأُبعد مهتيار ظفر بطريقة قاسية ليخدم على ظهر البارجة ياووز سليم التي تجوب البحر ولا ترسو إلا مرة كل ثلاثة أشهر في ميناء مختلف تتموّن وتعود إلى البحر.

وأصرّ الخال الناقم الأميرالاي على إبعاد الغول أغاسيه لمدة لا تقل عن خمس سنوات.

سيمرّ زمنٌ طويل قبل أن تعرف عدوية من أين أتت أمها بكل تلك المعرفة وتلك الأمور الذكية التي تفعلها والكلمات التي تلمس العقل والروح معاً التي تقولها. امرأة لا ترتدي إلّا لونين أسود وأبيض. ستفهم بعد زمن سرّ هذين اللونَيْن.

لم تكن تعرف عن تلك الأيّام التي عملت فيها أمها إلى جانب خالدة أديب عندما كانت خالدة

تعمل مراسلةً وكاتبة ومديرة لوكالة الأناضول. يتهامس من وراء ظهرها زبائن الزنبق كيف أن أتاتورك اعتمد على قطّاع الطرق والعاهرات لحمل مراسلاته، وأن مساعدة الزنبق لخالدة أديب كانت بأن أرسلت فتياتها بعد أن ألبستهن اليشمك والعباءات المحتشمة الى الجوامع للصق الأخبار واللافتات في أفنية المساجد. وأنّ الزنبق أخذت تراخيصها لفندقها عقب مساعدة جليلة قدمتها للمارشال فوزي جاكماق.

***

عادت عدوية بعد زواجها الأول إلى كنف الزنبق بشخصية مختلفة. إنّها عدوية التي تعلّمت أن الجسد سلاح، وأنه يشبه عقل صاحبه. فما يكبّل الجسد يكبّل العقل.

لم تنجح عدوية في مواجهتها مع الزنبق. بعد جدال أنهته الزنبق بقولها: «كل شيء في الحياة عرض وطلب، والشطارة هي في رفع السعر الذي نتقاضاه لقاء ما نعرض. وأنتِ لديكِ أثمن ما يرغب به الرجال».

مع أنّ عدوية لم تكن تتقبّل كل ما حاولت أمها أن تفرضه عليها، إلّا أنها، بعد أن قطعت الأمل من عودة مهتيارالذي لم تسمع منه ولا عنه شيئاً طوال عامَيْن، وافقت على الزواج من طبيب ثريّ يكبرها بخمسٍ وعشرين سنة، واكتشفت بعد أن عادت مما يسمّى شهر العسل، أن له زوجة ثانية.

لكن أقنعتها الزنبق مرة أخرى أن هذا أفضل لها، وأنها ستكون الزوجة «الجديدة» المدلّلة.

منذ طفولتها عوّدتها أمها على اللعب مع الدمى ومحاورتها، حتى صار جمع الدمى عادة عندها. جمعت عدوية دمى الماريونيت، ودمى من اليابان وأخرى من إيطاليا، ومن كل مكان ومدينة زارتها مع زوجها الطبيب الذي ترك الطب واستثمر ماله في إنشاء مؤسّسة لاستيراد الأدوات الطبية، وصار كثير الأسفار ولا يسافر من دونها. أصبحت بعد سنتين خبيرة بأنواع الدمى ومواد صنعها، وصارت مهتمّة بكيفية تصنيعها كقطع فنية. لكن لا الأسفار ولا الدمى جعلتها تنسى حرارة أنفاس مهتيار.

عقب مرور عامين على اقترانها بالطبيب، ظهر مهتيار ظفر. كان قد عاد في إجازة إلى اسطنبول من دورة تدريبة في الاستخبارات التحق بها في ألمانيا من بين مَن أرسلهم أتاتورك للتدرّب في ألمانيا.

أمضى مهتيار جل وقته في البحث عن عدوية. أيقظ توق عارم، وأهواء جامحة، كل رغباتها الرهيبة ما إن رأته.. تغلّبت لعبة الحبّ على كل ألعابها. غمرها بمدّ هائل من الشبق والجنون. اعتذرت عن السفر مع زوجها مع أن الرحلة كانت إلى موسكو: وهي مكان كانت تتوق لرؤيته. عرفت ضرّتها زوجة الطبيب الأولى، وأم أولاده، أنها لم تسافر معه. بحدس المرأة المُهانة التي تبحث عن استعادة مكانتها، راقبت عدوية بعد أن داخَلها الشك! لاحقتها ونقلت إلى زوجها خبر خروج عدوية مع رجل غريب استطاعت أن تكتشف أنه عشيق.

طُلقت عدوية مرّة أخرى وعادت إلى أمها مع دُماها وصرّة من الذهب. بينما أكمل مهتيار تربية عدوية على طريقته في دروس مكثّفة. نقل إليها أفكارًا جديدة اكتسبها من سفره وعيشه في ألمانيا. حرّر ذهنها، وتفكيرها من الخوف على المستقبل، والخوف مما زرعه الماضي فينا. «بسبب الخوف نحن نكره، ونقتل، نتحيّز، نتطرّف، نغضب، نتوحّش، ونؤمن ونعبد..». انتزعها من ذلك القلق الذي يغرق فيه معظم البشر وأفهمها أن: «الحقيقة الوحيدة هي ما نعيشه لا ما نتوهّم أننا نسعى لنعيشه». شهر إجازة غادر بعده إلى ألمانيا ليكمل دورته التدريبية في الاستخبارات.. وعدها أن يعود خلال شهرين. لكنه لم يعُد. اتصل بها ليخبرها أنّه مضطرٌ أن يبقى سنة أخرى في ألمانيا. غضبت عدوية وقرّرت أنها لن تنتظره.

أصرّت على أن تعود إلى الغناء، فهي تريد أن تعيش بحسب مزاجها وقناعاتها، ولن تقبل مرة أخرى بزوج تدبّره لها أمها. نشبت معركة بينهما ولم ترضخ عدوية، رفضت أن تستمع إلى الزنبق، أو أن تعانقها، ورفضت أن تعيد رتق وخياطة الدمى التي مزّقتها... فلم يكن أمام الزنبق إلّا أن ترضخ. لا يمكنها أن تبقى على خلاف مع عدويّتها، ابنتها الوحيدة التي هي كل دنياها.

رأت الزنبق ابنتها ساهمة، صامتة. خافت أن تهرب منها بوهم أن تتخلّص من سطوة أمها... الأوهام كثيرة، والصمت يطلق الخيال.

خرجت عدوية مرة أخرى إلى الدنيا بوعيٍ جديدٍ، وعيٌ هارب من كل ما هو مفروض. غدت تعلم بعد

زواجَين، وقصة حبّ هزّت عالمها، أن كل شيء يمرّ ويتلاشى، وعلينا أن نفتح أذرعنا وعقلنا للجديد، وإلّا تجمّدنا.. سمحت لها الزنبق بمشاركتها بالغناء في بعض المناسبات الراقية، وفي بالها أمران: أن تخرجها من عزلتها، وأن تتيح فرصة حيث يمكن لابنتها أن تلتقط رجلًا جديدًا من هذه الأجواء التي تجمع رجالًا أغنياء، ولهم مكانة رفيعة.

الموهبة الجديدة التي اكتشفتها عدوية في نفسها، هي الرقص، أن ترقص لتستمتع، وهو ما جعل كل من يراها ترقص يبدي إعجابًا كبيرًا. في منزل القنصل الإسباني في انطاكية رقصت عدوية ما يشبه رقصة السيفلاناس الإسبانية. كانت ترتدي ثوبًا أسود مكشوف الظهر، بأطراف مكشكشة. شجّعتها الموسيقى التي عرف القنصل كيف يختارها، ورقصت بحسم جسد يريد أن يكون حاضرًا. تحرّك جذعها كما لو أن جسدها مركز العالم. تنبثق الحرية من حركة رأسها وكتفيها، وتشعّ من اهتزاز صدرها الثقة العارمة. ترقص بعظَمة جسدها وسحره. تحرّك يديها كما لو أنهما جناحان ترفرف بهما تارة، وتضربهما تارة أخرى كما لو أنها ستحلّق وترتفع وتطير. تسرِّب حركاتها وتناسقها الفاتن ذلك الشيء المجهول غير المسمى، الذي لا نقوى على امتلاكه، ولا على الاستغناء عنه. تمرّر مرونة خصرها الخافق حتى ليبدو جسدًا مشكوكًا بوجوده كحقيقة ملموسة.

وسط الحضور الذاهل من الدبلوماسيين وزوجاتهم والضيوف رجالًا ونساءً، هتف عوني

أرشدان وهو يضع غليونه في حركة احترام لجسدها ورقصها: «إنه رقص شوفينيّ».

شعر عوني أرشدان، الذي يعتبر أن الأخطاء المجنونة لحظات بديعة، بأنّ هذه المرأة ستكون خطأً جديدًا، خطأ يتجاوز كل ما قبله. فهو الذي في خلال حياته المزعزعة بشهوة الرحيل والسفر ورؤية العالم، اعتاد الاكتفاء بعلاقات نزوية، طارئة، عابرة حيث لا وعود ولا التزامات، معتبرًا أن العلاقات الدائمة لا تترك سوى الألم، لم يكن متلهفًا قط لإنشاء عائلة، يعتبر أن الابناء وأمهم يشكّلون سعادة مؤقتة، بينما رأى بالعزوبية سعادة دائمة وحرية لا يعكرها شيء. لكنه لم يصل إلى آخر السهرة إلا وهو يرمي كل نظرياته، وكل أسلحته. وعند اللقاء الأول عرض عليها الزواج.

عندما أخبرت الفتاة، أمها، أنها تريد الاقتران بعوني أرشدان. برّرت موافقتها على الارتباط برجل يزيّن عنقه بربطة على شكل فراشة، بسبب غريب على الزنبق، إذ قالت: «يُضحكني؟!».

وافقت الزنبق، التي تعرف إرث عائلة منجوك على الفور. ضحكت المرأتان، وتزوّجت عدوية من عوني أرشدان منجوك.

13

قصر منجوك 1937

المرأة المودرن، وصلت

عندما سمعت الهدهدية الأخبار العجيبة عن تلك المرأة التي جاء بها عوني إلى القصر، قالت: «إن هنالك نساءً يحرّكن الريح بخطواتهن».

كان يومًا نادراً في شمسه وصفائه من أيام كانون الثاني من شتاء العام 1937 عندما حلّت «عدوية زيغول» ضيفة على قصر منجوك، فكسرت الصمت الرتيب للشتاء في محيط قلعة بغراس وبرج الأختين.

يومها هبّت الرياح. تقول الرواية إنّه كلما هبّت الرياح في ظهيرة يوم مشمس، معناها أن عشيرة تعزف على قيثارتها، إذًا هناك حبّ، عشق مجنون سيطيح بالأفئدة.

ترجّلت دادا من السيارة، واضعة كلتا يديها في جيبَيْ معطفها الطويل، الذي تجاوز فستانها إلى ما تحت الركبتين بقليل. غريبة جدًّا بشعرها القصير، المقصوص والمتموّج تحت قبعة ناقوسية الشكل موديل «شابو كلوش». كانت تجسيدًا حقيقيًّا للمرأة الجديدة «المودرن» التي كان يحكي عنها دائماً عوني أرشدان، التائه في حضارة الغرب يمينًا وشمالًا، بعد أن أنهى سنوات دراسته في شيكاغو، ثم زار موسكو وبرلين ونيويورك وباريس، المدينة التي أغرم بها وظلّ يردّد أنه سيعود للعيش فيها.

قبيل العشاء قدّمت دادا زيغول هدايا ثمينة لكل فرد من أفراد العائلة. كان تصرّفًا لافتًا من امرأة لم يسبق لها أن رأت أحدًا منهم. كانت الهدايا في صندوق كبير. وهي تبتسم للجميع فتحت الصندوق وسحبت علبة خشبٍ طويلة. مَدَّتها بين ذراعيها صوب شقيق زوجها، فانحسرت أكمام الثوب الموسلين الفضي عن رسغَيْها المزيَّنين بمصوغات باهظة الثمن. أخذ منها كيوان، هديته ووضعها إلى جانبه. نظرت دادا في عينيه وقالت: «من اللياقة أن يفتح المرء هديته عندما يتسلّمها». امتعض كيوان من الملاحظة، لكن عرف أنها محقّة، فأمسك العلبة وفتحها لتكشف عن بندقية «كاركانو» إيطالية مزخرفة بالذهب وأخمصها مصنوع من خشب الجوز.

أثارت دادا خلطة من المشاعر المتناقضة لدى سيدات القصر وهي توزّع الهدايا: الإعجاب، الكره، الدهشة، الغيرة.. لفتت أنظارهنّ بفستانها الطويل غير المشدود على الخصر، وبقصّاته الهندسية المستقيمة الزاخرة بالترتر والدانتيل والتطريز.

كانت العائلة قد اعتادت على ما يجلبه معه عادة ابنهم الرحّالة، الذي يرونه مستهترًا غير عابئ بتقاليدهم وجذوره ومنبته. يحمل معه أشياء غريبة يعبر بها العالم كأنما يقول: «هذا هو العالم! وهو مختلف كثيرًا عن عالمكم».

هذه المرة جلب معه الفونوغراف والراديو. وفي ذلك المساء صدح صوت أم كلثوم بأغنية «على بلدي المحبوب ودّيني». وتمايلت دادا طربًا من

دون أي استحياء مع زوجها عوني، الذي عبّر عن ثمله وطربه انسجامًا مع الموسيقى وسط دهشة كيوان والوالدة فريدة وابنتيها التوأمتين بدرية وفهرية.

لاذت فريدة خانم أفندي بمسبحتها، وبسملت وذكرت كل أسماء الله الحسنى، وهي تراقب كنّة آل أرشدان الجديدة.

فعلها عوني، جلب امرأة خليعة إلى قصر منجوك!

ابتلعت فريدة خانم الصدمة، وقامت بواجب ضيافة عوني وعروسه، واستقدمت أشهر فرقة تخت شرقي من النساء تغني معها زهيرة اليهودية التي كانت تعدّ الأعلى أجرًا في كل المنطقة. وأرسلت وراء أشهر صانع لراحة الحلقوم واللوزينا في حلب. جاء مع زوجته وابنته وأقاموا في قصر منجوك ثلاثة أيّام وهو يعد ويطبخ الحلوى، فاحت خلالها رائحة السكر المحروق حتى أقسم الرعيان أنهم شمّوها وهم في الوهاد القريبة من شلالات دفنة...

الخانم الخمسينية، ذات الوجنتين البارزتين وملامح الوجه الحادة، والأنف الشامخ الذي يعكس الزهو الفطري، والفم الدقيق الرقيق الصارم، وذقنها الناتئة على نحو واضح، امرأة ذكية، لا تقوم بأية حركة تتعلّق بالعائلة من دون أن تكون قد قامت بجرد الأرض ومسحها، بما عليها من بشر وحجر، وتحديد علو وانخفاض وعمق كل الأمزجة التي تطفح فيها العائلة، وكل المشاعر التي تزيد وتنقص. لكنها، أمام الزائرة

عدوية زيغول الملقبة بـ«دادا»، كانت شبه عاجزة. وقرّرت أنها لا يمكنها مواجهة تلك المرأة إلا بعد وقت من مراقبتها ودراستها عن كثب، ورؤية ماذا سيكون رد فعل صهرها كيوان الذي بدا منزعجًا، حتى وهو يتسلّم هديته.

لم يكن منبت الكنّة الجديدة سرًّا على عائلة إقطاعية شهيرة تعرف كل ما يدور في ربوع أنطاكية. أكثر من ذلك، غدت سيرة تلك العروس المغنّية، حديث عائلات المنطقة.

لم يرتح كيوان لتلك المرأة. فهو مستمتع بحقيقة أن الجميع مستسلم لسلطته، وتحديدًا ابنتي عمّه، المرأتين الشقيقتين: زوجته وعشيقته. لم يكن متحمّسًا أبدًا لاستقبال امرأة مثل دادا، واعتبر أن عذره قويّ جدًّا، فماضيها المفضوح كان سببًا كافيًا ليحتجّ. لكن لا يسعه أن يمنع عوني، شقيقه وشريكه، في مُلكية القصر من المجيء إليه بصحبة امرأة صارت زوجته. ويعلم أنّ عوني المتكلّم، هو فنان الاستفزاز وبطل الغرابة في نظر شقيقه الأكبر، الذي يدهن لسانه بالسم في تعليقاته على كلام أخيه. كأن يعمد إلى التصفيق المباغت كلّما نطق بشيء ناقد ولاذع، أو يواجه كلامه بالسخرية والتهكّم. كان كيوان يرى في شقيقه مجرّد بهلوان يتجوّل حافيًا في القصر، ويرتدي سروالًا مخطّطًا غريبًا، وكنزة صوف صفراء، ويدندن بأغانٍ أجنبية.

ينظر كيوان الآن إلى حركة دادا، وضحكها وتصرّفاتها غير المألوفة. لكنه، هو الذي يعرف أنّ عوني، المتعدّد الوجوه، يمكن أن يذهب بعيدًا

في تصرّفاته التي يراها مستفزّة له، لم يخطر له أنه قد يتزوّج عدوية ابنة الزنبق! ويأتي بها إلى القصر!

لم يستغرق الأمر طويلًا حتى بدأت حرب، معلنة وخفية، بين امرأتين: الفاضلة والموقّرة فخر الأغوات فريدة خانم أفندي، سيدة كريمة النسب تعتبر نفسها دائمًا على حق، وعدوية زيغول الملقبة بـ«دادا» ذات العينين الذئبيتين، المغوية التي لم يكن ماضيها سرًّا.. امرأة مغامِرة لا تتورّع عن إطلاق ضحكتها المجلجلة للدفاع عن نفسها في وجه الهجمات التي تشنّها النساء الفاضلات على امرأة لا تمانع في مقايضة جسدها لتحقّق ما تريد. وهي تعرف ما تريد.

ستقع الحرب من كل بُدّ، بين نساء العائلة المحافظات، وبين امرأة تعتبر أن الجسد بقدر ما هو وسيلة متعة، هو أيضًا وسيلة دفاع، وعيش. وتعتبر أن الحياة لهو، وتسلية، ولعب. وتتحدّث عن حقوق المرأة، والعصور الحديثة. أنثى «مودرن»، لا تكتم أفكارها. تقول ما يخطر ببالها. درست في أرقى المدارس، وتمتلك معرفة وخبرة لم تقدَّر لكثيرات من نساء زمنها. تحرص على إظهار شخصيتها من خلال كلامها، فهي تعتبر أن ما ننطق به هو ما يمنحنا هويتنا.

وقعت أول مواجهة بين الكنّة والعائلة. أمام أنظار مارلين ديتريش وفالنتينو المعلّقين في بوسترات لأشهر أفلامهما على حائط دادا الملوّن بالأصفر، بينما على الجهة المقابلة انتصب جسد جوزفين بيكر الأسمر اللامع بخصرها المحاط

بقشور الموز. باشرت دادا بالتعبير عن نفسها على طريقتها. قامت بتعليق ملصقات لأفلام هوليودية: نساء شقراوات في أحضان رجال سمر. وقرّرت طلاء خشب نافذة غرفتها باللون الأصفر.. كانت الكنّة بمثابة تغيير حقيقي، تغييرغير محتمَل في هذا البيت. بسببها دبّ الذعر بين نساء العائلة التي لم يكن مفاجئًا على أفرادها أن يأتي عوني أرشدان بزوجة على غير ما يتوقّعون، ولا عجب مطلقًا بسبب ما يعرفه عنه الجميع، لكن حتى أكثرهم جموحًا لم يكن يتصوّر أن تكون من ذلك الطراز.

لم يكن عوني يريد إزعاج زوجة عمه المتوفّى، الوالدة «فريدة خانم» التي ربّته في طفولته بعد موت أمه. بل أحبّته ودلّلته وكانت تودّه عريسًا لواحدة من التوأمتين. وبعد أن عارضت الرياح مشيئتها، رضخت على مضض. لكنَّ تصرّفات دادا كانت تفرحه لأنها تغضب كيوان من دون أن يستطيع رفض وجودها.

انطلقت أول صرخة غاضبة عندما رأت فريدة ما اعتبرته فضيحة معلّقة على جدران إحدى الغرف التي منحتها بنفسها لدادا.. فقد صدمها وجود ثلاث صور إحداها لامرأة عارية سوداء تزيّن وسطها بالريش، والثانية لسيدة شقراء تنضح ملامح وجهها تكبّرًا وتشاوفًا وقد وضعت فخذها العاري على كرسيّ، والثالثة لمغنية تقف على مسرح وتغطّي جسدها بفستان شفّاف يكشف أكثر مما يستر.

سمعت فريدة خانم الخادمات يثرثرن عن تلك

الصور. لكن، عندما رأتها كادت أن تقع مغشيًّا عليها أمام تلك النساء العاريات المعلّقات على الجدران في بوسترات لعروض مسرحية وسينمائية.

لفتت صرخة فريدة خانم فهرية، فتسلّلت إلى تلك الغرفة وتسمّرت بانشداه وإعجاب أمام الصور، وفتنتها الدمى الكثيرة الموزَّعة في مخدع دادا. كان واضحًا منذ اللحظة الأولى اندهاش فهرية بامرأة مختلفة كلّ الاختلاف عن النساء اللواتي قابلَتهنّ أو عرفَتهنّ. رغم أن هنالك سيدات قريبات من العائلة يعشن في أنطاكية وأزمير وحلب، ويرتدين ثياباً مشابهة لما ترتديه دادا، لكن دادا كانت حكاية أخرى. تدخّن، وتتزين كل يوم، وتبدّل ثيابها بحسب الأوقات، فثياب الصباح تختلف عن ثوب بعد الظهر أو المساء، وتضحك من دون افتعال. باختصار، معتادة على الحرية تتنفّسها وتعيشها من دون أيّة مخاوف.

14

نبيذ سونينو

منحت الكروم أسرارها لباخوس اللعوب، المغوي الفاتن. الذي أدرك كم أنّ البشر يحتاجون إلى النسيان. تخطر حكاية باخوس ببال سيزار وهو يساعد غلوريا مقترحًا طرقًا جديدة للتخمير، وتقول له: «أنت تتعلّم بسرعة! ستكون صانع نبيذ استثنائيًّا».

وبينما تستمع غلوريا إلى حكايات سيزار عن موطنه، وترى كيف يرويها بشغف مبتسمًا وضاحكًا، تدرك أنّه مرتبط بخيط يصعب فكّه، وأنّه سيعود. تدرك أن موطنه هناك حيث تعيش تلك الحكايات. تشجّعه لأنها تدرك أنّ ما يعيشانه عابر، فتقول له: «الأوقات العابرة التي يعيشها، تكون جميلة، بل رائعة، لأنها ابنة لحظة شغف. لكنها، كما بدأت، تنتهي في لحظة. وهي تترك ألمًا شديدًا إن لم ندرك أنها عابرة. وعندما تحين لحظة ترك ما هو عابر اتركه ولا تندم على شيء، ولا تُمنِّ النفس بالأمل، فالأمل شيطان لعوب وغادر. إن تمسّكت به ستتلقى الصدمات. لا شياطين ولا عفاريت ولا أشباح ولا أية قوى خبيثة تبغضنا، لتضلّلنا، إنما تخدعنا أفكارنا ومشاعرنا وحواسنا. عقولنا بيت الداء».

بعلاقاتها، حصلت له سونينو على العفو. عاد سيزار من منفاه، مشتاقاً إلى موطنه، وانهمك بالاعتناء بكرومه وعنبه ونبيذه. ظلّ يقطّر ويخمّر إلى أن جاء يوم، بعد أن تذوّق آخر ما أنتجه

مستمتعًا بلذة وطعم غريبَين، ابتسم ورسم بيده حبات عنب قرمزية وكتب تحتها «غلوريا سونينو». وصارت تلك الرسمة تُلصق على عبوات نبيذه. لم تسأله الأمّ، قط عن تلك السيدة. تخمّن أنها ذكرى عزيزة عليه، ولذلك دوّن اسمها على قوارير النبيذ المعتّق الذي ذاع صيته.

مع أن كل مشاعره تدور حول قصر منجوك، خاصّة وأنه ينتظر زيارة صديقه القديم عوني، فإن غلوريا سونينو لا تغيب عنه. كلماتها، فلسفتها. يتذكّرها عندما قالت له ذات يوم: «إن كل ما يحدث كان يجب أن يحدث. وما ينبغي له الحدوث سيحدث. ولكي نعيش من دون الغرق في الحزن. أفضل حلّ أن نكون قدَريين، نتقبّل قدَرنا فنزداد خبرة وتجربة. وكلما رفضنا أصابنا الأسى واليأس. اترك الحياة تجري وتقبّلها. ستأتيك بما لم تكن تتوقّع، إن كان شرًّا تقبّله وأكمل، وإن كان خيرًا اقتنصه حتى الثمالة من دون التفكير في الخوف من خسرانه».

لم يشغله شيء عن العناية بمزرعته. صُنْعُ الخمر تجارة رابحة طالما الحزن مقيم على الأرض. تنامت تجارته واشتهرت.

وصل عوني يسبقه صراخه:

«أين أنت يا وريث ديونيسيوس؟ يا مَنْ تذهب بالعقول!».

يقف سيزار ضاحكًا فاتحًا ذراعيه، مستقبلًا صديقه. وبعد عبارات الترحيب والأسئلة المتبادلة، يطرح سيزار السؤال حول مفاجأة زواج عوني.

يقول عوني: «لقد رُمي النرد». يردّدها، بينما

يتفحّص قوارير نبيذ سيزار، ويتابع كلامه: «قالها قيصر في وقت مبكر من عمر التاريخ «رُمي النرد»، حدث ما حدث، لا عودة إلى الوراء، آه نعم، تزوّجتُ أخيرًا يا صديقي، نعم تزوجت..!».

يحمل عوني قارورة ويقرأ بصوت منغَّم ما كتبه سيزار بخطه على الزجاجة: «غلوريا سونينو»، ثم يدندن «الأنوثة الخالدة تجذبنا إلى الأعلى». عبارة غوته.. نعم، في فاوست.. من هي غلوريا سونينو هذه؟ يا وغد، إنها امرأة! لم تضعْ وقتك في المنفى!!

بينما حافظ سيزار على صمته وشروده، مسح الضيف جبينه ومسّد شعره إلى الوراء بكلتا يديه، بينما يجلس ويسند رقبته الغليظة على ظهر الكرسي. قال لصديق طفولته وصباه سيزار، بصيغة متسائلة ومشكّكة وكأنه يسأل نفسه:

«إنّه الحزن؟! آه أنت حزين يا خمّار! آه ماذا فعلت بنا سبع سنوات من الغياب، هل هي لعنة الهدهد، هل انتقمت منّا تيخا، فعلتها هذه الخفية التي لا يراها أحد؟!». ثم أضاف مقهقهًا: «الإيمان بخرافة أفضل من عدم الإيمان بشيء».

مطّ سيزار شفتيه وقال بصوت عميق ساخر:

-«أتعرف، سؤالك ذكّرني بقصيدة بايرون عندما سأل قابيل «إبليس»: «هل أنت سعيد؟». فأجابه أمير العقلانيين: 'نحن أقوياء.' نعم، لربما كنتُ قويًّا ذات يوم... لكنْ، حزينٌ دائمًا..».

أراد أن يسأل صديقه، عن فهريّة، لكنه تردّد.

وضع عاملان أمامه صندوقًا من الموزاييك، فتحه

بنفسه ليكشف عن اثنتي عشرة قنينة من نبيذ «سونينو»:

«إنه أفضل نبيذي، هدية زواجك يا بك». ثم أضاف: «يقولون إنها امرأة جميلة».

ردّ عوني فورًا: «دادا..! ليست امرأة! لم أتزوج من امرأة! إنها عمل فنّي!».

كانت نبرته هازئة وكأنه لم يكن مصدّقًا حتى اللحظة أنه تزوج من تلك المرأة. كرر اسمها ضاحكًا: «دادا.. دادا». فعلّق سيزار: «أراك غارقًا، وأخاف عليك من سرعة السأم، كنت دائمًا مَلولًا. الصيّاد.. ابن الغابة البار، لك طريقك وحدك، تهوى الدروب الموحشة حيث لا يسير الآخرون! فكيف أوقعت بك هذه الدادا؟».

كان يتفحّص ما في الصندوق، وقد ثبّت سيجارته بطرف شفته السفلى، ويمسّد شعره إلى الوراء على نحوٍ متتالٍ عصبيٍّ، يكاد لا يتوقّف.

«ما بك؟ اهدأ. عرفت الكثير من مغامراتك. وها أنت جبت العالم. فكيف وقعت في شرك الزواج، الذي كنت تسمّيه 'مقتل الحب'؟».

كان عوني يدير بين يديه قنينة «سونينو». تنهّد وقال:

«تزوجتها لأقتل افتتاني. بالسأم نتخلّص مما يفتننا، أليس كذلك!؟ لم يكن ممكنًا التخلّص من رغبتي المجنونة بها إلا بالسأم الذي يصيب المتزوّجين...». صمت للحظات؛ وأكمل:

«من أوّل مرة رأيتها شعرتُ بالدوار. في تلك

الليلة غابت من ذاكرتي صور كل النساء اللواتي عرفتهنّ وعشقتهنّ.. ومللتهنّ، وسئمت منهنّ أيضاً. إنها لعنتي، لا أستطيع مقاومة كل ما هو مغوٍ... لكننا نسأم مما نحصل عليه».

يعلم سيزار أن أبرع من يتكلّم هو عوني، بسبب اجتماع جرأته بلا مبالاته وثقافته، هؤلاء هم أجمل المتكلّمين. وشعر بأنَّ صديقه يريد أن يتكلّم. فلم يعلّق، بل فتح قنينة وصبَّ كأسين وجلس في مقابله.

شمَّ عوني النبيذ وقال: «رائحته ممتازة». وعندما تذوَّقه تلمَّظ وعبّر عن إعجابه بهمهمة.

يضحك سيزار، وهو يتذكّر صديقه البيك الأشقر جامع التحف والمغرم بالألبسة الفاخرة والعطور وتشيخوف، والذي عاشر كل عاهرات أنطاكية! ليتزوج أخيرًا من إحداهنَّ. يبدو أن صديقه الذي كان مغرَمًا بفينوس والفراشات والبجع وفهرية، قد انهار عند دخول هذه الـ«دادا» إلى المشهد، فأطاحت بقائمة مفضّلاته وغدت هي كل شيء.

سأله عوني: «ما يضحكك؟».

«خوفي عليك بعد ما سمعته».

تنهّد عوني وقال: «أتعلم، أنا أحسد أولئك الذين يخافون من الفقر ومن الجوع، أو من الموت، أو من الخيانة.. أنا يا صديقي أخاف من الجمال..! نعم، إنه يرعبني. لديَّ ضعف شديد أمامه. في صغري كنت كلما أدهشتني ألوان فراشة، أمسك بها وأسحقها بين صفحات كتبي. أشعر بأني امتلكت جمالها. لكن عندما كبرت، تفوَّق الجمال

عليّ... وها قد هزمتني فراشة».

علت أصوات ضحكهما.

كان عوني يروي لسيزار كيف وقع مغشيًّا عليه في اللوفر أمام تمثال فينوس. ضحك سيزار وعلق قائلًا: «أظنّ لم يُغمَ عليك بسبب جمالها إنما بسبب بروز عجيزتها». وراح يذكّره كيف كان يلحق فتيات الفلاحين في قرية شباش، وينتقي البدينات ذوات الأوراك العريضة، ويفكّر كيف أن صديقه الذي كان يكفيه ملامسة مؤخرة إحداهنّ لينتشي.

15
دادا في تلّة عشيرة

بعد أن تعرّفت دادا عن قرب على حياة قصر منجوك، فهمت ذلك الترفّع الذي يظهر في كلمات وتصرّفات عوني، وإن لم يكن هو ما جذبها إليه. وأدركت أنه يأتي من التربية، كما من المكانة التي تحتلها عائلته. ولكنها لم تكن مستعدّة لتقبّل تقاليد أهل القصر، وخاصة تلك التي يبدو واضحاً كم تحرص عليها فريدة خانم.

لقد كان من عادة قصر منجوك استضافة بعض الأقارب والأصدقاء في فترة الأعياد. وكان المألوف انقسام النساء عن الرجال في الألعاب والتسليات. لكن بعد وصول دادا زيغول، تغيّر كلّ شيء.

إذ أصرّت على مشاركة الرجال في إطلاق الأعيرة النارية لإصابة الأهداف. وصارت أول امرأة تشارك في إطلاق النار، ما جعل السيدات يطالبن بالتمرّن على إطلاق النار، ثم على إصابة هدف. ولم يقتصر الأمر على هذا، بل كانت في الطليعة عندما توجّه الرجال إلى اسطبلات الخيل، وعلا نباح كلاب الصيد التي تحرّرت من مقاودها لتعدو أمام الصيادين...

لم يهزم أحد قط عوني الصيّاد الذكي في ملاحقة واصطياد الطرائد، كما في مباراة إطلاق النار. في مناسبات كهذه، تعترف دادا لنفسها بأنه يغويها بحق وهو يلكز جواده نائمًا، متأرجحًا، مسترخيًا كشيطان على عنق الجواد، لا تفارق ثغره ابتسامته الهازئة. فتشعر بأنها تزوجت من

شيطان حقيقي، مختلّ، فوضوي، يتدفّق لسانه بكلمات ملساء، وهو يطوّق جسدها بتملّك ساديٍّ، شهوانيٍّ، يطلق العنان لجسده. لم تنكر على نفسها اللذة التي استطاع أن يغمر بها جسدها.

تفوح في المساء روائح الصابون عقب استحمام الصيادين، الذين لا يلبثون أن يجتمعوا على المراهنات ولعب الزهر والورق والشطرنج، وتبادل النكات والمزاح. وتتسلّى النساء بطرح الأحاجي وحلّ الألغاز.

رفضت دادا الفصل بين النساء والرجال في السهرة. وعندما اجتمعوا توقّفت ألعابهم وانطلقت التعليقات، سواء بنكات ملغزة أو إشارات مواربة. أكثر التعليقات كان فيها ملمح من قصّة المضاجعة المجنونة لألف مرة، التي بمجرّد ذكرها تتهيج الأجساد وتضع النساء أيديهنّ على أفواههنّ مدّعيات الخجل، بينما تعلو ضحكات الرجال.

يضحك الجميع. يتبادلون النكات والمزاح ويسود مرحٌ مملوء بالألغاز. إلّا بدرية، لا تضحك شأن كل امرأةٍ محرومة من العاطفة. لا أحد سيضمّها بين ذراعيه ويحدّثها عن مضاجعة عشيرة الأسطورية. تزوّجها كيوان لكنّه لم يتقبّلها ولم يعاملها كحبيبة. أنجب منها صبيّين من دون أن تحظى بقبلة واحدة من شفتيه لشفتيها! بينما تغدو فهرية أكثر انطلاقًا. وجه مرتاح، وثغر باسم. مزهوة بنفسها وتعرف أن كيوان لم يفضل عليها بدرية قط.

تتمايل في الخارج أشجار السرو العملاقة مثل

مردة ليل طويلة مغبشة، وتطغى رائحة الكستناء المشوية، وتختلط برائحة السجائر. يصبح عوني نجم السهرة. يلتهم المربَّيات والمعجنات القروية اللذيذة التي تاق لطعمها طويلًا، بينما يتابع كلامه عن جولاته في العالم بإسهاب.

يمتلك عوني موهبة قصّ الحكايات المليئة بإشارات جنسية! يرويها بطريقة مضحكة ومثيرة. استمتعت السيدات بسماع تلك الأقاصيص والحكايات التي يتدفّق فيها لسانه الطلق... وعلت الضحكات حتى أزعجت كيوان، وطبعًا معه بدرية وأمها.

تنهي العجوز فريدة خانم أفندي الجلبة وتعلن إلى النساء وقت النوم، بينما توزّع بنفسها رقع الشطرنج وطاولات الزهر لينشغل الرجال بأمور غير الاستماع إلى عوني.

لم يفلح الوريثان عوني وكيوان في إرساء السلام بينهما. يعلم الجميع مقدار تنافرهما وعدم انسجامهما. لكنهما نجحا دائمًا في المحافظة على اللياقة والكلام المنمَّق بين الطرفين. وكان عوني هو المبادر والأكثر حرصًا على صورة علاقتهما، بينما كان كيوان في الواقع يحتقر عوني وكل ما فعله بحياته. لم يخفِ كيوان انزعاجه من فوز عوني في الرماية وخسارته الرهان في المباراة التي أُجريت ظهيرة يوم العطلة، من نهار ربيعي مشمس، خاصة وأن جميع النساء يشاهدن المباراة لأول مرة، وبتحريض من زوجة عوني.

سمع كيوان عن بعض ثرثرات الضيفة وفهرية.

لم يرق له أن تقترب دادا من فهرية. دادا الذكية تعرف أنه لا أخطر من امرأة، جسدها لا ينتظر أحداً!؟ وتعرف أن الخادمات سينقلن كل كلمة إلى سيدتهم، فتتنبّه إلى لجم لسانها وتحذير فهرية من مغبّة الحديث أمام الماشطة التي تلفّ جدائلها. لكن فهرية، التي جعلها حضور دادا راغبة في التحدّي، تثرثر براحتها مفتتنة بصورتها في المرآة. تتحرّك الفتيات حاملات الأمشاط ومكاوي الشعر والمشابك والدبابيس، يفعلن كل ذلك بآذان تلتقط أبسط حركة شفتين. وينقلن كل ذلك إلى فريدة خانم وابنتها بدرية.

كان كيوان ممتعضًا من التقارب بين دادا وفهرية. بدأت صداقتهما بثرثرات عابثة سرعان ما تحوّلت إلى بوح واعترافات. استغرب التقاء كلا الشخصيتين دادا، خفيفة الظل، المتوقّدة، المرحة، وفهرية بطبيعتها المتعالية، الحزينة. عينا دادا المغناطيسيتان، وعينا فهرية الذاويتان. فكّر بكل ذلك وهو يسترق النظر بطرف عينه نحو دادا التي ارتدت فستانًا من الأطلس الأخضر بياقة مسنّنة مرفوعة. بينما طرحت على كتفيها فراء بلون بنيّ مشوب بحمرة خفيفة، وثمة دخان يتصاعد من سيجارة بين أناملها الطويلة، مثبتة في مبسم من الكهرمان. سمعها أكثر من مرّة تنهر عوني عندما يقول شيئًا لا يوافق مزاجها أو لا يعجبها. إنها امرأة تقول ما تريد ثم تمضي خارجة وهي تسوّي شعرها من الخلف بأنامل لا مبالية. أرسل كيوان بصره عبر النافذة ليتجنّب الاستماع الى المزيد من ترهات شقيقه.

تدافعت الريح في الخارج مربكة الأغصان، مشتتة ذرى أشجار السرو، بينما طاف البدر المكتمل فوق رؤوس الأشجار، تعالى نقيق الضفادع، وفرقعة أغصان شجرة الأكاسيا العملاقة التي ترمي بثقل أغصانها على الشرفة.

***

يحاول كيوان فهم أسباب زواج شقيقه من تلك المرأة. منذ وصوله وكيوان يفكّر في حقيقة ما يريده هذا الماكر. تشغله كثيرًا الانفعالات المختلفة التي خلّفتها دادا في نفوس نساء منجوك. وقعت فريدة خانم في الحيرة بين غضب بدرية على وجود زوجة عوني، والخوف من فرح فهرية بها وتقليدها مندهشة بها وتضحك لكل كلمة منها أو تصرّف.

خشي كيوان على استقرار منزله الذي يتحكّم بكل تفصيل فيه، إذ تخضع له الأختان، وتتقبّل فريدة كونه الحاكم الوحيد. حتى إنها تقبّلت ما يحدث في السرّ بين جدران القصر. حيث استأثر كيوان بالشقيقتين التوأمتين، مخالفًا الشرائع والقوانين.

دعا كيوان أخاه إلى رحلة صيد بحجّة أنه يريد أن يجرّب بندقيته الجديدة. من جهته، عوني، الذي أضاف إلى مجموعته أيضًا بندقية ألمانية يصعب اعتبارها بندقية صيد، إنها «ماوزر كيربناينر 98 كيه»- أشاد بترباسها الذي أُعجب بسلاسته عند الإطلاق، وافق من دون تردّد، على الرغم من شكوكه حول سبب دعوة أخيه المفاجئة.

قصد الشقيقان غابات أنطاكية عبر منتزهات دفنة التي تظلّلها أشجار الدلب والغار والحور. لم يخبُ رونق دفنة رغم الخراب واندثار مسارحها وقصورها. يهوى الصيادون التخييم قرب شلالاتها التي كانت أشهر منتزهات الرومان. احتلتها زنوبيا وفيها قابلت كليوباترا مارك أنطونيو.

لم يبق في المكان غير كسور أعمدة وبقايا حجارتها، وأسس جدران أشهر أماكن اللهو والعربدة. في تلك الغابات كان السوريون القدماء يحتفلون بقدوم الربيع. ينفخون في الأبواق في أوقات تبدّل الفصول. ويقصدون في 25 من ديسمبر المعابد احتفالًا بيوم مولد أدونيس.

ظلّ هواة الصيد يقصدون تلك الغابات حيث يزوغ البصر بين آكام شاهقة ووديان سحيقة.. ففي أحراج قممها تسرح النمور والذئاب والضباع والخنازير البرية والتيوس الجبلية والدببة البنية السورية.. يتجوّل الصيادون في الهضاب الوعرة المحيطة بدفنة وصولًا إلى حصن «القصير» في الشرق. يستريحون على ضفاف نهر البواردة الذي يصبّ في العاصي متهاديًا بين الصفصاف والدفلى. بينما تظهر أحراج أشجار الصنوبر الحلبي والبلوط على السفوح المنحدرة صوب مجرى النهر.

الصيد خطط ومكائد وأفخاخ. هنا تُقابل الحيلة بالحيلة، والقسوة بالقسوة، والافتراس بالافتراس. هنا لا وجود للخير والشر. لا تؤرق الغابات ليلها بفكرة العدالة. وحدهم البشر ينادون بالعدالة، ذريعة الطغاة المفضّلة لتكريس الظلم.

لم ينسَ كيوان أنّ شقيقه، صيّاد مخاتل يعدّل

خططه ويغير أساليبه. يتربَّص وينتظر قبل أن يطلق النار. كان لديه شعور بأنّ دادا واحدة من خططه ومكائده.

أراد أن يقول له ما يؤرقه. بل أكثر من ذلك كان يريد إقناعه بإبعاد الذئبة التي تزوَّجها.

وصل الشقيقان إلى الوادي الذي كان يجري فيه ماء يفيض فجأة ويطغى ويغرق أنطاكية، الى أن جاء الأمبراطور الروماني يوستنيانوس وشيّد سدًّا من الحديد يفتح ويغلق تبعًا لمنسوب المياه.

«أردت هذه الرحلة مناسبة لتخبرني عما جرى معك خلال فترة غيابك الطويلة، سواء في تلك البلاد الكثيرة التي زرتها، أو في إسطنبول حيث كنتَ قريبًا منا، ولم تأتِ لزيارتنا. ثمّ فجأة نراك بيننا ومعك زوجة حملتها إلى مكانٍ لا يشبهها».

أدرك عوني أن ما يهمّ أخيه من كل هذه المقدّمة، بل من هذه الرحلة، هو الحديث عن دادا، التي قلبت الهدوء في البيت، بل هدّدت سلطته. لكنه بمراوغته المعروفة وجّه الحديث إلى جهة أخرى. فتحدّث عن البلاد التي زارها، وعما شهده من تغيرات تحصل في إسطنبول، حيث عبّر عن تقديره للكماليين ورغبتهم باللحاق بقطار التطوّر، وتكلّم عمّا سمعه من شخصيات ومن قناصل عن أن أتاتورك سيسلخ لواء اسكندرون ومعه أنطاكية كلّها. وبالتالي لا بد لنا من تقرير ماذا سنفعل! ذلك أنه على مرّ عقود طويلة حكم الطغاة الصغار منطقة أنطاكية في ظلّ السلطان الذي كان الطاغية الأكبر. فقد منح العثمانيون حكم الأقاليم للبشوات والبكوات وشجّعوهم على الإساءة

للناس، لضمان ولائهم للسلطان.

وعندما جاء كمال أتاتورك وأركب آخر سلطان عثماني مع عائلته في القطار المتجه إلى سويسرا، تغيّر الحال. لكن الانتداب الفرنسي حلَّ محل السلاطين في أنطاكية ووفَّر للإقطاعيين الحماية والأمان لضمان ولائهم.

إنما من الواضح تغيّر الوضع من خلال التفاف المثقّفين والطلاب حول النزعة التركية المتمثّلة بالكمالية، وهذا لن يكون من مصلحة الباشوات والبكوات، ورجال الدين الذين يخشون من علمانية أتاتورك. أصرّ كيوان على أن نتيجة الاستفتاء الذي أجرته عصبة الأمم كان مزوَّرا ولا يمكن أن يصوّت الناس للانضمام إلى تركيا. عدد الأتراك قليل جدًّا. والعرب هم الأكثرية لكنهم وُزِّعوا سُنّة وعلويين ومسيحيين واعتبروا السنّة جميعهم صالحين ليكونوا مواطنين أتراك.

أسهبَ عوني في الكلام، يتنقّل بين المواضيع، ويحمّل كلامه جُملًا وعبارات مقتبسة من الكتب الكثيرة التي قرأها. لكن قلما اهتم كيوان لكلام عوني، فهو يعتبر أن كأس ويسكي أهم من كلّ ما كتبه تشيخوف، وأن مضاجعة امرأة لأول مرة، تساوي كل معارف أخيه. إلى أن قال عوني: «هؤلاء الفلاحون الذين لا تخشاهم، سينقلبون عليك».

هنا ارتفع صوت كيوان بنبرة فيها جفاء واضح: «وما أدراك أنت بالفلاحين وكيف يفكّرون؟ منذ متى لم تخالطهم وتسمع مشكلاتهم لتزعم أنك تعرف كيف تتعامل معهم؟».

أدرك عوني أن أخاه غاضب، وأن سبب غضبه ليس ما قاله، فهو يعتبر هذا الكلام مجرّد ثرثرة. ويعرف أنّ كيوان يلجم نفسه ويتحيّن فرصة لقول شيء بعينه.

كانا قد بلغا قمة الجبل وصارت الطريق وعرة وخطرة. وقفا على القمة المندفعة إلى الأمام كحيزوم سفينة تشقّ الموج تطلّ على لوحات أخّاذة: إلى شرقهم سهل العمق ومستنقعاته وبحيرته التي تصبّ فيها تلك الجداول الزرقاء، التي ترقّص ألوانها تحت أشعة يوم شتائي مشمس.

قال عوني لشقيقه كأنما يمعن في استفزازه في حديثه عن أمور يعرف أنها لا تهمّ كيوان: «هنا... هنا وقف القيصر البيزنطي هرقليوس المغلوب بعد ان انتصر عليه العرب وسلبوا سوريا، وقف في هذه البقعة التي تطلّ على سهول أنطاكية، وقال مودّعًا: «سلام عليك سورية، سلامَ مودّعٍ لن يرجع إليك أبدًا. ويحك أرضًا، ما أنفعك لعدوك، لكثرة ما فيك من العشب والخصب»، ثم مضى إلى القسطنطينية. وهذه حقائق التاريخ وليست خرافات الهدهـ...».

قاطعه كيوان بنبرةٍ عالية: «كلّها خرافات، كل هؤلاء الملوك والآلهة لا وجود لهم. الحقيقة الوحيدة يصنعها من يملك السلطة. لذلك أنا لا أواجه مثل هذه الخرافات، فهي تعزّز سلطتي. أنا أستفيد من انقسام الفلاحين إلى شمسيين وقمريين، تخدمني انقساماتهم الدينية، أنتعش من خوف كل فئة من الأخرى. هذا يجعلهم

يلجأون إلينا كما لجأوا إلى أهلنا وأجدادنا. نعم ينوي أتاتورك ضمّ أنطاكية، وهذا خطر علينا، لذلك فإن ثرثراتك المعجبة بالأتاتوركية تدهشني. أنا أصمت عن إعجابك بجماعة تركيا الفتاة وعلى علاقاتك بوجوه منهم، لأنني أرى أن هذا يفيدنا ويُبعدهم عن إزعاجنا، لكن نحن سوريّون، وكل تاريخنا ولغتنا وشخصيتنا تنتمي إلى حلب ودمشق لا إلى أزمير واسطنبول. آمل أن تدرك ذلك، وأن تدرك أنه إذا حصل الضمّ ستنتهي سلطتنا وسينتهي تاريخ عائلة منجوك في هذه المنطقة. هؤلاء الفلاحون، أو معظمهم، سيبقون هنا، أما نحن! فلا أظننا سنبقى. أنا لا أجد مستقرًّا لي، في حال حصل الضمّ، سوى في حلب. وأنت أنصحك أن تفكّر إلى أين ستذهب؟».

ثم من دون توقف غيّر الموضوع إلى ما أراده من هذه الرحلة:

«والآن لننتقل إلى الموضوع الذي يجعلني أخاف على عائلتنا هذه الأيام. أعرف أن زواجك من هذه المرأة إنما هو نزوة من نزواتك الكثيرة، لكنك هذه المرة جلبت نزوتك إلى هنا، على عكس نزواتك الأخرى التي كنت تذهب أنت إليها. المشكلة أنها بقدر ما هي ذكية، فإن مخالطتها لنساء أرشدان تتسبّب بحالة من الهيجان بينهنّ، إذ تقلّد النساء بعضهنّ البعض. تحرِّكهنّ الغيرة. فماذا لو أردن تقليد تسريحة شعرها، وتبديل ثيابهنّ ذات الياقات البيضاء العالية، بثياب «الديكولتيه» التي ترتديها زوجتك من دون أي تحفظ! والمشكلة الأكبر أنني لا أستطيع أن أقول

لك أن تضبط سلوك زوجتك، لأنني أعرف سلفًا أنك غير قادر على ذلك! بل أعرف أن لا أحد يقدر على ذلك. أعرف أن هذه المرأة مرّت بتجارب جعلتها قوية جدًّا وما عاد يمكن تطويعها».

فضَّل عوني، الذي يعرف أنه سيكون خاسرًا في معركته الكلامية مع شقيقه، والذي يقرّ في نفسه أنّ دادا لن تكون سوى نزوة من نزواته بالفعل، ألّا يدخل في مواجهة. سحب دمجانة من نبيذ غلوريا سونينو كانت في خرج حصانه، ومدّها إلى كيوان الذي تناولها من دون أن يخفي ارتياحه من أن عوني تلقى ما قاله عن دادا بلا مبالاته المعهودة ولم يغضب.

عرف عوني أن مقصد شقيقه كان قول ما قاله الآن. ويعرف تمامًا أن دادا ليست امرأةً عادية، وليس من السهل التعامل معها.

16

ليس الهدهد، إنها تلك الفتاة

تتكرّر زيارات عوني لسيزار. وها هو الآن يجلس مع عوني ويتحدّثان عن ذكرياتهما المشتركة، ونكهات النبيذ. فيحدّثه سيزار عن كيف علّمته سونينو التعامل مع العنب، ليتحوّل إلى نبيذ من طرازٍ رفيع.

«حبّات العنب هي إناث!! بقدر ما تكون حبّة العنب رقيقة، شفّافة، فتية، ناضجة، تكون حسّاسة، مرهفة، تخرّبها يد الغرّ، البليد، الأرعن. تكون نكهة النبيذ لذيذة بقدر ما يستطيع الصانع أن يجعلها ترغب الخشب، فهي تعيش معه لفترة طويلة، فإن لم ترغبه ستمرض ويسوء حالها. الخشب ذكر عنيد، قلق، مؤرّق، وحبّة العنب أنثى مراوغة، تتغنّج على الخشب ليحتضنها كما ترغب. تحضِّر نفسها للمرحلة الأكثر رقيًّا وتحرّرًا وأبَّهةً، لتغدو نبيذًا يحمل معه نكهتهما وذاكرتهما معًا. يختلف كل برميل نبيذ، ولو بقدرٍ ضئيل، عن برميل آخر. النبيذ تحدّد نكهته، ذاكرته المحمولة من جسد الخشب، لأنها يجب أن تجمع الرائحة، والطعم، واللون، والأصل، والزمن، والطقس، والمكان..».

ويكمل من دون توقف: «والآن، أخبرني عن رحلاتك ومغامراتك».

يحدّثه عوني عن ليل نيويورك المضاء بالكهرباء، وحمامات السباحة المدفّأة والمغطّاة في أوروبا. وعن كازينوات ومنتجعات ومشاتي تلك القارة، التي لم يعرف هو منها غير سجون ومنافي الجزر

الصخرية القاحلة جنوب شبه الجزيرة الإيطالية. وعن النساء، وعن ملله منهنّ إلى أن التقى دادا...

ويختم حديثه:

«ها أنت بتّ تعرف لماذا عدتُ أنا، فقد أعادتني هذه العفريتة التي قرّرت أن أحملها إلى أرض الأساطير التي يحكمها ملوك الجن. لكنك لم تخبرني لماذا عدت أنت؟».

شرد سيزار قليلًا كأنما يقارن بين حياتَيهما، قبل أن يسرد حكايته، وسبب عودته:

«قبل سنوات طويلة، كنت ممدّدًا في عنبر اسمه عنبر فلوريو على القشّ المنثور على الأرض في جزيرة فافينيانا الإيطالية، متدثّرًا ببالطو تركي ممزّق، وجسدي قذر تكاد تأكله البراغيث ويسرح فيه القمل، ولا أستطيع النوم. غفوت للحظات فرأيت نفسي في غرفتي في بيتنا، وأمامي لوحة الفسيفساء. أيقظتني ضربة من يد سجين كان إلى جانبي. بعد أن مسحت دموعي قلت لنفسي: «مكاني ليس هنا، إنه هناك، في دارنا حيث يطلّ بريق عيني باخوس الماجن الفاتن. سأعود إلى هناك، ولن أرضخ لهذا القدر». وعدت إلى النوم.

بقيت أُنقَل مرّة بعد مرة، من جزيرة إلى جزيرة، وأعيش سيرة متكرّرة مع عنابر جديدة. كان علينا في آخر انتقال العمل في ترميم مقبرة قديمة كان قد دفن فيها قبل سبعٍ وسبعين سنة موتى الكوليرا، وكانوا نزلاء العنبر نفسه الذي رُمينا فيه.

كان يعمل إلى جانبي منفي ليبي اسمه عثمان. يبكي طوال الوقت وهو يعمل، ويقول

إنه سيُدفن في تلك المقبرة بالذات. وأنا كنت أهدّئه وأحاول التخفيف عنه وأقول له: أنا سأنجو، وسأستعيد حياتي، وسأقبّل مرة أخرى رقبة تلك الفتاة التي كانت تتمرّى بماء الجدول. ما فاجأني أنه بعد حوالى الشهرين مات عثمان ودفنّاه في تلك المقبرة. خفت مما حصل، وشعرت بأنّ ما نقوله بإصرار، أو ما نضعه كهدف نسعى حثيثًا للوصول إليه، سيتحقّق.

قال عوني: «غريب أمرك مع هذه الفتاة. ألم تجعلك الطليانية تنساها؟».

تبسّم سيزار وأكمل كأنه لم يسمع ما قاله عوني: «مع أنّ تلك المرأة الرائعة غلوريا سونينو، فتحت أمامي آفاق حياة لا ينقصها شيء. لم يغب عني يومًا شعور أنه مهما تقلّبت بي الأحوال فإن مصيري أن أعود إلى دياري وأؤسس حياة جديدة لا تغيب عنها صورة تلك الفتاة».

لكن عوني، الذي لا يقيم وزنًا للقصص الرومانسية، بدا مشدوهًا أمام ما قاله سيزار. وقال بنبرة غاب عنها مرحه المعهود: «كنت أظنك قمت برحلات ممتعة ومغامرات أتوق لسماعها، وعرفت من النساء ما جعلك تملّ المجون وحياة المغامرة والترحّل. لكن أخبرني، هل حقًّا أنك تركت أمك وأملاكك لأنك أصبت هذا الطير عن طريق الخطأ؟!».

تردّد سيزار في قول شيء. ثم صمت..

بعد لحظات سمع عوني سيزار يقول بصوت خافت:

«لم يكن لأي هدهد دخل بما جرى لي، لقد كان شقيقك كيوان هو السبب، يا صديقي!؟».

رغم أن سيزار نطق تلك العبارة بصوت خفيضٍ وحزينٍ، لكن وقعها كان صاعقًا على عوني الذي نفض رأسه وزاغت عيناه:

«ماذا تقول؟ كيف ذلك!؟».

رفع سيزار رأسه وقال بصوتٍ هادئ واضحٍ مليء بالغضب: «وشى بي شقيق جنابكم يا بيك..!! أنا غادرت لأعمل بحّارًا، وهو حلم، كما تعلم، كان يراودني وأنا أسمع حكايات عن أسفار والدي. تعرّفت في البحر إلى رجل ليبي عرفت لاحقًا أنه يبحث عن طريقة يوصل بها السلاح إلى الثوار في ليبيا، الذين يواجهون الاستعمار الإيطالي. وقد وجدت أنه لا بأس أن أؤدّي بعض تلك الخدمات، فأكسب مرتين: من جهة أساعد الثوار، ومن جهة أخرى أكسب مبالغ مالية محترمة. وكنا بالفعل نحصل على الأسلحة عن طريق تاجر تركي، وننقلها إلى طرابلس. وأحصل على أموال اشتريت بفضلها ما لم أرثه من هذه الأراضي المزروعة بالكروم. لكن كيوان عرف بالأمر فوشى بنا لنقع في أيدي البحرية الإيطالية، وتبدأ رحلة الأسر. جرجروني فيها من جزيرة إلى أخرى من تلك الجزر التي حوّلوها إلى منافٍ وسجون نائية يحرسها البحر، حيث لا مفر... وما كنت لأخرج منها لولا سونينو».

لم يكن صعبًا على عوني أن يصدِّق ما رواه سيزار، فهو يعلم أن كيوان لا يحب سيزار منذ فترة الصبا، فكيف وهو يرى فيه احتمال أن يكون

منافسًا له يومًا ما. أخافه شراء سيزار مساحات واسعة من الأرض، تجاور إقطاعيته. فهو يعلم أن القرى المسيحية تتوق لثريّ مسيحي يلوذون بحضوره وسط إقطاعيات مملوكة لعوائل مسلمة. هكذا لاحقه حتى عرف مصدر ثروته ووشى به.

ساد بينهما صمتٌ طويل قطعه عوني وهو يقف ليغادر، وقال بخبث:

«لم تنتهِ الحكاية، ستقول لي مَنْ هي تلك الفتاة التي كانت تتمرّى بماء الجدول!». وانفجر ضاحكًا.

17

حفرة الغزال

صبّت فجر إسطفان ماءً باردًا بالطاسة على جسمها من الجرن الفخّاري الذي حصلت عليه من الخوري شعيرات. حلمت طويلًا بالجرن. الحصول على أي شيء كان حلمًا عند الفقراء مثلها. فكّرت بذلك وهي تمسّد شعرها الذي طال. أربع سنوات مرّت على ذهابها إلى مدرسة الكنيسة. سنوات تغيّرت فيها أشياء كثيرة. حدث ذلك التغيّر الظاهر في جسدها، بقدر ما حدث في ذهنها.

أرادت فجر إسطفان أن يكون حظّها أفضل من حظ أمها يبرق التركمانية، ابنة قرية «باشا هيوك»، أي جبل الباشا، في ريف مدينة أنطاكية. حملت يبرق بجنين ذلك الطبيب الإفرنجي الغريب. التقته في سهل العمق، بين آجام القصب وجذوع أشجار الحلفاء، حيث تنتشر قرى وضياع بيوتها أخصاص من القصب، لا يمكن الوصول إليها في فصل الفيضان إلا عبر القوارب.

غدت يبرق شبه مجنونة بعد ليلة عذاب رهيبة. وبعد أن أُنقذت من الذئاب بمعجزة عندما أوثقها أبناء عمها إلى صخرة في مضيق اشميشك، بعد أن تعاقبوا على اغتصابها لمدة ثلاثة أيام، ثم تركوها لتأكلها الذئاب.

كانت يبرق فتاة طرّزت جمالها الدماء المتداخلة في عروقها. أم أرمنية وأب تركماني. جمالٌ كهذا لم يكن ليحصل على ما يستحقه من حظ في تلك البقعة العائمة من الأوحال المكتظّة

ببيوت القصب. أهم ما تفعله نساؤها هو قلع عرق السوس وحلب لبن الجاموس، وتمليح أسماك السلّور.

بُترت أصابع يد أبيها اليمنى الذي كان يعمل تفنكجيًّا لدى الباشا منجوك الأب، ثم عُطبت قدمه عندما كان برفقة ممتاز بك الذي تعرّض للكمين عند مضيق أعمدة يونس. ولحق به صادق باشا قبل أن يتمكّن الأب من رؤيته عسى أن يساعده بسبب تضحياته مع أبيه وأخيه.

انحرف قدَر عائلته المؤلّفة من زوجة وابنة وحيدة، وجاء بهما ليعيش في قريته الرطبة، حيث توفيت زوجته غرقًا في أوحال المستنقع، بسبب جهلها بطبيعة الحياة في مثل تلك المنطقة، التي زاد حالها سوءًا بعد أن نسف ضابط تركي بالديناميت تلك «السكور» التي كان يسمّى واحدها بـ«داليان»، لأجل تربية الحنكليس. كان مشروعًا درّ أرباحًا هائلة لأحد وزراء السلطان عبد الحميد، لكنه أغرق قرى بكاملها.

بعد وفاة الأم، وبسبب حالة الأب، صارت «يبرق» هي المعيل لأبيها ولنفسها. اشتغلت في الأعمال التي تقوم بها نساء القرية، فاقتلعت عرق السوس، وملّحت سمك السلور، لكن كان موسم بيع لبَن الجاموس للمزارعين الذين يفدون مؤقتًا الى سهل العمق، للعمل في الزروع الشتوية، هو الفترة الأهم في عملها.

وقف رجل غريب ذات مرّة، لم ترَ يبرق مثله، على حافة أحد القوارب الرفيعة التي تربط ضياع العمق. كان كائنًا مختلفًا، يرتدي ثيابًا غريبة لم تر

مثلها من قبل. في الواقع كان طبيبًا يرافق بعثة أجنبية تنقّب عن الآثار، وهم في طريقهم إلى قلعة بغراس.

ولأنها رأته غريبًا، أرادت أن تبيعه اللبن. وفعلت شيئًا لم تفعله من قبل. نزلت في الماء وخاضت فيه حتى خاصرتها، تحمل على رأسها اللبن.

سلب لبّها ذلك الإفرنجي بذقنه البنيّة، وشعره المردود إلى الوراء، تفوح منه رائحة لا يمكن أن تشمها من أي رجل في تلك المستنقعات.

مدّ الطبيب لها يده وحاول رفعها إلى القارب، وقد ذوّبت قلبه تلك الشابة الجميلة وهي تخوض في ماء المستنقع الضحلة لتبيع لبن الجاموس. منعها الخجل من قبول يده، لكنّه أفرغ كل ما في جيوبه من نقود وقدّمها لها وهو يأخذ اللبن الذي يعرف سلفًا أنّه لن يتذوّقه.

في المساء استقرت البعثة في منزل المختار، وعرض الطبيب خدماته. كان طبيبًا مختّصًا بالعيون في منطقة ينتشر فيها داء «التراخوما».

عرض خدماته المجانّية لأنه أملَ أن تلك التي خاضت مياه المستنقع لتبيعه اللبن ستكون بين الذين سيأتون إليه، لتعرض عليه اللبن مرة أخرى. أراد أن يراها، وهو يعرف أنه في مجتمع مسلم ومحافظ ولا يمكنه أن يسأل عن هوية امرأة.

جاءت بالفعل في صباح اليوم التالي وجلبت له اللبن مرّة أخرى. قدّمته له مع ابتسامة خجولة.

بعد ثلاثة أشهر كانت يبرق تقوم بتمليح السمك إلى جوار أبيها المقعَد، حينما هجم عليها ابن

عمها الذي كان قد تزوّج من ثلاث نساء، وظلت يبرق تتمنّع عليه بسبب سوء أخلاقه وفقره الشديد، ووضع حياته المزري مع دزينة من الأولاد لا يُشبعهم الخبز. أما أكثر ما جعلها تنفر منه ما يُشاع عن أنه كل يوم كان يُجبر إحدى زوجاته على مرافقته الى بلدة قرق خان الواقعة على الطريق الذاهبة إلى حلب، وهناك يقدّمها لعابري السبيل لقاء أجر يقبضه هو سلفًا.

سحبها من أكمام ثوبها، وجدائلها، وسحلها بوحشية وهو يشير أمام الناس إلى بطنها المنتفخ قليلًا، الذي كانت خبّأته بلفّ كمر عريض عدّة لفّات، على عادة النساء وهنَّ يزاولن أعمالهن اليومية، في بيوت مصنوعة من القصب المطلي بخثي البقر والجاموس الجاف، وحيث بالكاد تعثر القدم على موطئ لها في مكان غارق بالماء الأصفر اللزج المغطى بأسراب البعوض.

فكّرت يبرق مرّات بالهرب، لكنها كانت تغيّر رأيها عندما تفكّر بأبيها المسكين، فتؤجّل هروبها إلى قرية أخوالها الأرمنية «صوغون صو» على أمل أن يجدوا لها حلًا.

سحبها ابن عمها حتى وصل بها إلى آجام القصب، حيث يجري النهر الأسود ويصبح عميقًا. وطلب من الجميع الرجوع، بدعوى أن من حقّه غسل عاره وقتل هذه الفاجرة، كما كان يصيح.

كان يحمل بيده سكينًا، وعندما توقّف صراخها خمّنوا أنه قتلها وانتهى الأمر.

أما هو فقد كمَّم فمها وراح يغتصبها، محتميًا

بفكرة الشرف، الفكرة السرمدية التي تنتعش في المجتمعات الفقيرة التي تعثر على ملاذ وهمي وساذج اسمه «الفضيلة».

تتلخّص كل عائلة «يبرق»، يتيمة الأم، بأبناء عمّ واحد، إنهم ثلاثة، وثلاثتهم أرادوها لأنفسهم، ولم ترضخ لأي منهم. ثلاثتهم يكبرونها سنّاً، كسالى، يوكلون كل أعمال الحياة اليومية المضنية في تلك الآجام البائسة لنسائهم وأولادهم. ولا يتورّعون عن تقديم أجساد زوجاتهم لقاء المال. وعندما تجرّأت إحدى الزوجات على البوح بشيء من ذلك لأهلها، اتهمها زوجها بالفسق والفجور وراح يضربها ولفّق لها تهمة كادت تذهب ضحيتها، فتعلّمت بقية النساء الصمت.

لم يُغرقها ابن العم في الواقع، كما زعم! بل حملها مع أخويه وأخذوها بعيدًا عن القرية حتى تلك الصخور الرهيبة في مضيق أشميشك. قضوا ليلتين وهم يتناوبون على اغتصابها. أشبعوها ضربًا حتى ضاعت ملامح وجهها وانتفخ جسدها مدمّى متورّمًا. وأرادوا أخيرًا أن ينتقموا منها لرفضها لهم بأن يدَعوها لتأكلها وحوش البرية، فربطوها إلى صخرة ورحلوا. أنقذها راعي ماعز كان يراقبهم عن بعد ولم يجرؤ على الاقتراب حتى مغادرتهم. كانت مكسَّرة الأضلاع بالكاد تقف على قدمَيها، همست باسم قرية أخوالها الأرمن، فوضعها على حماره وأوصلها ظهيرة اليوم التالي إلى ضيعة أخوالها وهي نصف ميتة. عالجوها لمدة ثلاثة أشهر، ثم إن أحد أخوالها،

الذي كان قدّم للهدهدية خدمة كبيرة ذات يوم، حملها إليها لتتدبّر طريقة لإجهاضها. لكن الهدهدية رأفت بها إذ كانت بطنها قد كبُرت وصار إجهاضها جريمة. وهكذا دبّرت لها ذلك الزواج المجحف من «الأبله» إسطفان.

***

عندما امتلكت فجر جرنًا تسخّن فيه الماء وتستحمّ! شعرت بأن حياتها تتحسّن على الرغم من كل شيء.

«كم هذا ممتع!»، قالت وهي تصبّ الماء الدافئ على جسدها.

تمسّد شعرها الطويل، وتمسك بخصلة منه، تتذكّر ذلك اليوم الرهيب الذي اضطرّت فيه للنزول إلى حفرة الغزال لجلب جدائلها المقصوصة. كان عليها لأجل أن تثبت نفسها أن تواجه الخطر.

بكت كثيراً وأشعلت الشموع في الكنيسة، وطلبت من الربّ أن يعيد لها جدائلها. لكن لم يحدث شيء. لم تكن تريد الذهاب إلى بيتها من دون جدائلها. قرّرت أن تنزل بنفسها إلى الحفرة المخيفة. أيقنت أن دعاءها لن يحقّق لها الأمنيات. وأن الفقراء المهمَّشين من أمثالها ليس لهم سوى أنفسهم.

منذ ولدت وهي تلعب وتتجوّل في تلك المنطقة. تعرف جيداً كل المخاوف التي تُقال عن تلك الوهدة السحيقة الغريبة المفتوحة في إحدى جنبات القرية.

كانت فجر تتلقّى تعليمها مجانًا في الكنيسة

بفضل سخاء الخوري نوفل شعيرات واحتضانه لها. تلوذ بالكنيسة وهي تبكي وتشعل الشموع وتتمنّى من الرب أن يضع حدًّا للأشرار. يضربها صبية القرية لأنها ترفض أن يلمسها أحد منهم. كل الصبية من مسيحيين ومسلمين تحرّشوا بها من دون رأفة. أهانوها وأذلّوها بالكلام والاحتقار. نعتوها بابنة الزانية والمجنونة، وبلغ الأمر بأن رماها بكري ابن القصّاب بالحجارة لأنها دفعته عنها وهو يصرّ على التحرّش بها. لكنه لم يكفّ، وذات يوم لحق بها وهي ذاهبة إلى بيتها الذي كان خارج القرية، فاضطرّت إلى كسر سنَّيْه الأماميّتَيْن وهي تدافع عن نفسها. لكنه لم يرتدع بل كمن لها في اليوم التالي مع أخيه وأخته ليشبعوها ضربًا، وعمدت شقيقته القبيحة، والتي تماثلها في العمر وتغار منها، إلى قصّ جدائل فجر الأربع التي كانت مضرب مثل في جمال الشعر، ورمتها في حفرة الغزال، تلك الهوة التي قيل إنها انفتقت عندما نزل الملك «شام» الذي يتحرّك بالرعد والبرق والصواعق وقد أخذته رؤية عشيرة.

اجتمع في ذلك اليوم كلّ أولاد القرية، صبيانها وبناتها، ومعهم بضعة صبية وبنات من قرية شباش المجاورة، يأتون لتلقّي الدروس عند الخوري نوفل شعيرات. كثيرون منهم يحتقرونها لأنها فقيرة، وابنة لأبوَيْن مجنونَيْن، ومع ذلك تتفوّق عليهم في الدروس. ويكرهون جمالها وشعرها اللامع المنسدل فلا يحتاج إلى مشط.

ستتذكّر كل حياتها ذلك الظلم والذل والبكاء

المرير الذي بكته ذلك اليوم. لكنّ ذلك اليوم نفسه، سيمنحها قوة ترافقها طيلة حياتها.

تعود قصّة حفرة الغزال التي ترويها الهدهدية، ويسلّم بها أهالي قريتي «نيكال» و«شباش» إلى مئة سنة، والبعض يقول إن عمر حكاية الغزال مئتا سنة. إنها حفرة لا يتجرّأ أحد على الاقتراب منها، لأنها، كما يُقال، محميّة بروح ذلك الغزال، الذي زلّت قدمه في تلك الحفرة ولم يستطع الخروج منها، وعاش عدّة سنوات وحيداً في قاع الوهدة، يأكل من النباتات التي تنبت على أطرافها، ويلاعب الحمائم والطيور والهواء ويشرب من ماء المطر.

تتحدّث الحكاية عن قدرته على الصبر في فصل الصيف بعد أن تجفّ أوراق النباتات وينضب الماء، وعن فرحه بالمطر وذلك الصوت الجميل، الذي يشبه صوت الجداء، يصدر عنه وهو يحدّث الطيور. حتى قيل إن الغزال هو في الحقيقة صياد شابّ تلصص على «تيخا» وهي تستحم في جدول الغابة، فمسخته غزالًا ورمته في الوهدة.

لا أحد يعلم كيف اختفى ذلك الغزال ذات يوم من دون أن يترك أثرًا. فلا أحد رأى جثّة ولا أحد يمكنه أن يتصوّر أن الغزال استطاع أن يجد طريقًا للخروج من تلك الحفرة. ويُقال إنّ الطيور، حتى بعد اختفاء الغزال، ظلّت تطير وتحلّق كما كانت تفعل عندما كان الغزال في الحفرة. وأن تلك الطيور اختفت عنما رُميت جثة فتاة تم ذبحها ورميها في الحفرة لأنها شوهدت مع شاب يحتضنها، حتى صارت الحفرة أكبر تهديد للفتيات.

الطائر الوحيد الذي استمرّ يعشش في جنبات الوهدة هو طائر السنونو. ولا يذكر الأهالي أن أحدًا تجرّأ على النزول إلى تلك الحفرة.

تعلّمت فجر منذ طفولتها كيف تتعامل مع الأشجار والنباتات. وبأي غصن تتعلّق وأين يكمن الخطر. نظرت إلى شجرة بطم عملاقة تشرف على الوهدة، وتمدّ أغصانها إلى الأسفل كثعابين خشبية نائمة ممتدة فوق الصخور.

لم تكترث لجميع البنات والصبيان الذين كانوا يدفعونها للنزول، على أمل أن تموت أو أن تتراجع فيشمَتون بها. لم يكن يهمّها أمرهم. لقد قرّرت أن تنزل لتستعيد جدائلها من الحفرة قبل أن يعود أبوها إسطفان الذي يكون في هذا الوقت خارج القرية. لأنه كان بكل تأكيد سيخاطر بنفسه وينزل إلى الوهدة لأجلها. تعلم كم يحبّها ذلك الرجل الأبله الذي يعتقد بأنّه أبوها.

قطعت نصف المسافة الممتدّة من أعلى الحفرة إلى قعرها عن طريق التمسّك بأغصان شجرة البطم. جرحت أشواك الحرشف ساقَيْها، وحزّت النباتات البرية الإبرية ذراعيها. لمحت عن قرب بطن تلك الوهدة الغامضة. رغم انشغالها بخوفها وهي تتمسّك بأغصان البطم وتنزل شيئًا فشيئًا لتقترب من جدائلها التي رموها هنا بسبب الكره والغيرة، فكّرت بالغزال، أين هو؟ أين روحه؟ لعله يساعدها ويؤنسها قليلًا وهي تتحدّى الخوف لأجل استعادة حظها..

كانت الجدائل على قمة نبتة ريباس. نبتة تعرف أنها لا تنبت إلّا على الصخر كشجيرة قزمة. تحمّلت

طعمها وهي صغيرة عندما عالجتها الهدهدية بمنقوع الريباس لتشفيها من الحصبة. فكّرت أن هذه النبتة صديقتها لأنها حالت دون وصول جدائلها إلى قعر الحفرة حيث كان من المستحيل إخراج ذلك الجزء الجميل منها، المجزوز حسَدًا. نسيت البكاء والدموع وهي تتمسّك بالنباتات الشوكية الوحشية التي نبتت وعرّشت على مدى سنوات طويلة من دون أن يمسسها بشر. تعلّمت في وقت مبكر أن تصادق النباتات والحشرات والحيوانات.

كانت قد وصلت إلى نقطة حيث عليها أن تترك شجرة البطم وتتمسّك بشجرة غيرها. لكن لا شجر بعد هذه النقطة، بل نباتات من تلك الصغيرة التي تنبت في الصخر. اختارت منطقة تكثر فيها الصخور لتلافي العقارب والأفاعي. لكن من ذا الذي يغامر بالنزول على الجدار الصخري المنحدر إلى أسفل الهوة!

نظرت إلى جدائلها الأربع المقصوصة المتدلية على جذر ناتئ لنبتة الريباس المتشبّثة بالصخر. دار في رأسها أن البنات الغيورات رمين جدائلها في الوهدة ليحرمنها من الحظ، فلطالما سمعت أن الحظ يرتبط بالشعر والجدائل. ولو أن الفتاة أرادت أن تقصّ جدائلها، فعليها أن تدفنها، لا أن تتركها للريح تذروها. «لن أفرّط بحظّي»، قالت لنفسها، وانتقلت لتمسك بنبتة دفلى صغيرة ظهرت من شقّ في الصخر، فهي تعرف هذه النبتة جيدًا، ومنها انتقلت إلى نبتة زعرور. أدمت نبتة الزعرور يديها بأشواكها لكنها لم تشعر

بذلك. كل ما يهمها أنها شجرة قوية يمكنها أن تعتمد عليها لتصل إلى جدائلها. أمسكت بغصن الزعرور ودلّت نفسها حتى وصلت إلى جدائلها وهي تعضّ على شفتيها من الألم بسبب الشوك الذي جرّحها. لكن الفرحة كانت تغمرها..

راقبوها عن بعد. لم يساعدها أحد. بل كان أكثرهم يتمنّى أن تزلّ قدمها وتسقط أسفل الوهدة، حيث تسكن روح الغزال، وربما أرواح أخرى.

استعادت فجر جدائلها. ما حدث يومها كان عجيبًا. لولا الشهود الكثر ما صدَّق أحد أن فجر بنت الراعي إسطفان تجرّأت ونزلت إلى حفرة الغزال واستعادت جدائلها. كان الوقت غسقًا حين بلغت أخيرًا أعلى الوهدة. وقفت في وجه الجمع الذي تفرّق بروؤس مطأطئة، بينما سارت فجر برأس مرفوع.

ساد اللغط والهرج بين الذين اجتمعوا لرؤية فجر تتجرأ على النزول إلى حفرة الغزال، حضر الخوري شعيرات. ذُهل من شعرها المقصوص، وهيئتها وثيابها الممزّقة التي كشفت عن بعض مفاتنها المتأهّبة للتفجّر. هذه المفاتن التي كانت سببًا لتحرّش الفتية بها. وعندما خرجت نظر الخوري نحو مرتا ابنة القصّاب نظرة احتقار واحتضن فجر ومشى معها إلى بيته الملاصق للكنيسة. هدّأ من روعها وهو يحدّثها عن آلام المسيح وصبره عليها لأن الله سينصره، وروى لها قصّة المجدلية. أدخلها إلى مكتبته التي يعتبرها كنزه الأهم. قال لها وهو يشير إلى الرفوف المكدّسة بالكتب:

«هذا هو الطريق لتكوني قوية، هؤلاء الأولاد يغارون من كونك الأشطر بينهم، لو كان لمرتا شعر مثل شعرك هل كانت ستقصّ جدائلك؟ إنها الغيرة والحسد يا ابنتي.. هذه المكتبة مفتوحة لكِ، وهنا لا يمكن أن يزعجك أحد. فلا أحد منهم مهتمّ بالقراءة. سوف أساعدك على إتقان اللغتين العربية والفرنسية، وسأسمح لك باستعارة كتاب تأخذينه معكِ، وكلّما أنهيتِ كتابًا تأخذين غيره، وختم بعبارة لن تنساها طيلة حياتها: «الجهل، هو الفقر الحقيقي».

***

لم تكن فجر تتوقَّع أن حياتها البائسة التي تعيشها ستجعلها يومًا ضحيّة، ثم حكيمة، ثم امرأةً قوية محسودة.

لم تمنحها الحياة ترف التفكير بحياةٍ كهذه، مع أنها تشعر بأنها قوية في ذاتها منذ أن استرجعت جدائلها من تلك الحفرة المخيفة. منذ ذلك اليوم صارت تشعر بأنها قوية على الرغم من فقرها وعوزها، وما تتعرّض له من استغلال وإهانة... كل ذلك أعطاها دروسًا في صراع البقاء.

عثرت في المكتبة على مخبأها السحري. نسيت جدائلها المقصوصة. وغمرتها الفرحة وهي تحمل إلى البيت أول كتاب اقترحه عليها الخوري، هو رواية جين آير، ربما اقترحه بسبب قوة البطلة على مواجهة الظلم والمعاناة.

شهقت يبرق من منظر ابنتها من دون جدائلها، صرخت وبكت، لكن فجر هدّأتها، ثم هدّأت والدها

عندما عبّر عن غضبه من قص جدائلها. لم تخبرهما بما حصل معها. أرادت أن تجنّبهما الشرّ الذي تختزنه عائلة بكري القصاب، فلم يعد مهمًّا عندها أن تنتقم، بل داخَلَها فرحٌ لأن هذه الحادثة فتحت لها أبواب هذا الكنز الرائع. لم تترك الرواية من يدها في تلك الليلة. وعندما قرأت تلك العبارة لجين آير: «أتعتقد لأنني فقيرة وغامضة وبسيطة وصغيرة بأنني بلا روح وبلا قلب، اعتقادك خاطئ». أقفلت الكتاب وغرقت في تأمّل تلك الكلمات حتى غفت.

لم تغرِ فجر حكايات البطلات السعيدات، لأن السعداء يشبهون بعضهم البعض. أغرتها حكايات الحزانى والتعساء، كلّ قصة حزن لها فرادتها. كل حالة تعاسة لها ميزة تجعلها خاصّة لا تشبه غيرها.

ظلّت لمدة سنة كاملة تمرّ على المكتبة، نفضت عنها الغبار ونظّفتها لتكون ملاذها من وحشية الخارج. عثرت بين الورق على نقطة مضيئة، سعادة غير ملموسة، لا تؤكل ولا تُشرب ولا تُلبس، لكنها سعادة خارج الخط المستقيم الذي رسمه بؤسها من يوم ولادتها. غدت الكتب هي «البياض» وسط «سواد» ظروفها. أكلت كلمات وعبارات وجملًا، فتّتتها، فكّكتها، ورتّبتها في ذهنها مرّة أخرى. أدهشت الخوري بسرعة تقدّمها، لاحظ كيف أنها صارت تنوّع قراءاتها وهو يراقب ما تطلع عليه. شعر بالغواية وهو يرى أمامه نضجها وفتنتها البلورية، غدت توقظ لديه أحاسيس كان يهرب منها بكل قوته.

قال لها ذات يوم: «يا فجر، خذي معكِ كتبًا تكفيكِ لشهر، فمن غير المناسب أن تمرّي كثيرًا على المكتبة. مرة في الشهر تكفي». كان ضعفه يكاد يفتك بكل العهود التي التزم بها أمام الكنيسة، وشعر بأنه لن يستطيع أن يقاوم. لكنها بدت حزينة جدًّا، وقالت له: «لكن حواري معك حول ما أقرأ جميل وممتع. سينقصني الكثير. كيف كان لي أن أقرأ أرسطو لولا مساعدتك؟ كيف سأعرف شيئاً عن أغسطينوس، ذلك القديس العجيب؟». وأضافت بتضرّع صادق حفر في قلبه حفرة أشبه بالهاوية: «أرجوك».

قاوم ما استطاع، ثم راح يرمي على مسامعها عبارات يكرّرها تباعًا، ويتركها تطالع على مهلها في عتمة المكتبة. حدّثها عن أهم تعاليم أرسطو، وكرّر عبارته (أن نحب يعني أن نستمتع بالحياة).

عندما تجاوزت فجر الثانية عشرة من عمرها بعدة أشهر ولم تعد مفاتنها خافية. اقترب منها ذات مرة، وقدّم لها كأسًا صغيرة فيها ليكور من الذي تقدّمه كل بيوتات القرية في الأعياد، ووضعها أمامها. بجرعة واحدة رشفت ما في الكأس، مستمتعة بمذاقه الحلو، إذ لم تتذوّق مثله في بيت أهلها. سألها عن رأيها بعبارة ذلك الرجل، أرسطو التي حفظتها على كثرة ما كرّرها أمامها (أن نحب يعني أن نستمتع). وردّت بأنها معجبة جدًا بهذه العبارة، فهي سعيدة بحبها لأهلها، وله أيضًا، وتستمتع بهذا الحب. وعندما قال لها: «هناك فرق بين الحب والمتعة، مع أن المتعة المرتبطة بالحب شيء لا يقاوَم»، قالت له: «لم

أفهم كيف هذا؟».

«سأخبرك كيف؟!»، نطق بذلك هامسًا وهو يتحسّس كتفيها. عندما طلب منها الخوري أن تخلع ملابسها في عتمة مكتبة الكنيسة ليتملى ببياض بشرتها وتكويراته المبكرة. تذكّرت أنستازيا فيليبوفنا بطلة رواية الأبله لدوستويفسكي. لكنها لم تكن تريد أن تلقى مصير أنستازيا اليتيمة التي يربيها رجل ويغدق عليها حنانه ليتّخذها عشيقة له. كانت نسخة أخرى منها. علمت أنها ابنة ذلك الدمج بين عدة بطلات تعيسات قرأت عنهن. عندما عرّاها تماماً كان يكرر: «لن أؤذيك، فقط سأجعلكِ تستمتعين».

نفَّذت كلامه. غدت بطلة رواية لها رائحة الورق. ستعاني، ستعرف كيف تصمد وتبقى وتعيش حتى بعد مرور ألف صفحة؟!

18

دادا وفهرية

هل صحيح أن قابيل قتل هابيل يوم الثلاثاء؟

تقول الهدهدية إن يوم الثلاثاء يومٌ لإصلاح حال النفس؟

لم تفكر فهرية بذلك؟ وهي تقرّر أن تتوجّه إلى الهدهدية بعد أن اتخذت قرارًا خطيرًا.

تُدرك عرّافة أنطاكية أن ثمة شيئًا خطيرًا حدث كلما لمحت فرسًا على ظهرها واحدة من نساء منجوك تتجه نحو دارها المعزولة بالماء، بسبب فيضان الربيع. لكن لم يكن أمام فهرية من حلّ غير الهدهدية. كان اليوم الأول من شهر آذار وفيه يوقد الشمسيون نارًا في العراء ويبتهلون بكلمات قديمة غير مفهومة. يفعلون ذلك على الرغم من أن الأئمة يجوبون القرى على مدى أسبوع قبل هذا اليوم، وينهون عن فعل ذلك ويقولون إنها عادات وثنية.

منذ وصول دادا قبل حوالي شهرين وعائلة منجوك مشغولة بالضيفة، بينما تتناقل العاملات في القصر قصصًا طريفة عن فريدة خانم ودادا.

دفعت الخانم فهرية أرشدان بفرسها وخاضت المياه التي بلّلتها وكادت تصل إلى مستوى عنق فرسها على الرغم من البرد القارس، وخطر المياه، عندما بلغت دار الهدهدية التي أخذتها بين ذراعيها وأدخلتها إلى حيث تستعر نار المدفأة ويغلي الشاي على السماور..

تريد فهرية حلًّا للجنين الذي في بطنها. للمرة الثانية تحمل بجنين كيوان؟ لا يحق لمثل هذه البذرة أن ترى الحياة، لا يجوز الجمع بين الأختين شرعًا. لكن كيوان، الذي لا يترك السبحة من يده، فعل ذلك. إن لم نقل إنه فعله برضى الأختين، فعلى الأقل بعلمهما.

تضرب الهدهدية على رأسها، إذ لا يُستحبّ طرح الأجنة في ذلك الوقت من السنة. لكن لا شيء كان يمكن أن يقنع فهرية التي أصرّت على ذلك. وما كان للهدهدية أن ترفض طلبًا للشابة التي تحمل لها عاطفةً خاصّة، وترى فيها وفي نزقها وشخصيتها صورة حبيبها صادق باشا. وهكذا، بعد يومين كانت ترافقها إلى أنطاكية عند الطبيبة البولندية التي ذاع صيتها في الأرياف بسبب براعتها بطرح الأجنة ورتق البكارات.

أوصل كيوان المرأتين إلى دارتهم في أنطاكية وعاد إلى القصر. اعتادت فريدة الوالدة غضّ النظر عمّا يسوؤها علمه. ومنذ تلك الليلة المشؤومة التي منح النصيب فيها بدرية لكيوان بدلًا من فهرية، أدركت فريدة خانم أن ليس لها إلّا الصمت، وإلّا خسرت ابنتَيْها.

طرحت الطبيبة البولندية جنين فهرية في السادس من الشهر الربيعي العاصف، وفي ساعة دقيقة حدّدتها الهدهدية، حيث يُقال إن في هذا اليوم ساعة تصير فيها المياه المالحة عذبة.

إنها فهرية، الذكية والجميلة التي ارتضت واعتادت أن تعيش في عالم من الصمت لتكبح جماح المرأة الأخرى القابعة في داخلها. تلك

الأخرى المتهوِّرة والمجنونة التي خالفت منطق الحياة، وكسرت كلّ القواعد، وصمتت لأجله من دون أمل. هناك، وهي تتحمّل ألم الإجهاض، قرّرت أنها لن تخضع لكيوان مرة أخرى. تخطر ببالها صورة دادا، المرأة التي لا تخضع لرجل، ولا حتى لزوجها عوني كما بدا واضحًا من كل تصرّف تقوم به.

«يكفي»، قالت لنفسها. بكت كثيرًا بسبب بختها الذي جعل شقيقتها التوأم زوجة للرجل الذي تحبّه، ومُنحت هي حصّة الزهرة التي تعيش في الظل. لكن كان يعزّيها أنها تصنّف نفسها بالمرأة القوية، التي تحصل على ما تريد. أما بعد وصول «دادا» فقد وقعت بين الغيرة والحيرة، ولم تعد تستطيع أن تصنِّف نفسها.

متردّدة، تائهة، ثمة حقيقة واحدة ونقية نقاء المياه المتدفّقة من ثلج قمم الأمانوس: إنها تحبّه، ذلك الرجل القاسي كيوان. تحبّه بيأس واستسلام. لكنها الآن، وبعد رحلتها المتعِبة إلى الطبيبة البولندية التي خلصتها من الجنين الثاني، شعرت بأنها تعبت من المختلَس والمعتم. ترهقها نظرات الوالدة فريدة خانم أفندي التي تراقبها، وبصمتٍ يقول لها: «أعرف كل شيء». تعلم أنها تكلّف فتيات القصر بمراقبة تحركاتها، وحتى مراقبة فوط غسيل دورة طمثها.

هبّت رياح شمالية تحمل روائح أشجار الدردار النديّة، تخالطها رائحة روث أبقار ترعى في مكان قريب. مما زاد في صخب نفسها علمها بواقع أنها يجب أن تحترس من نشوة ضعُفت عن أن

تدير لها ظهرها. يضنيها شوقها الدائم إليه، لرائحته، لملمس يديه. توقها إليه يهينها، يذلّها، يثير سخطها. تخون نفسها، وكبرياءها، وأنوثتها، وأمّها، وشقيقتها التوأم. كل هذا من أجله، بينما لم يكن وفيًّا لها قط. أثارت سخطها كثرة الأقاويل التي تسمعها عن انتهاكات كيوان لأعراض بنات وزوجات فلاحيه في شباش ونيكال. رمت زبيدة ابنة مختار شباش نفسها في النهر منذ سنة. وما لبثت أن لحقتها شقيقتها الصغرى ثريّا. تسمع مزاحًا عن الشبه الكبير بين كيوان أرشدان وبعض الأطفال الذين ولدوا في بيوت فلاحيه.

تعلم ما يحدث في دار السلاملك، نقل البانيو الكبير المصنوع من الفضة الذي أهداه خالها لأختها بدرية عندما ولدت طفلها الأول إلى حيث ينام بعيداً عن بدرية. وتعلم أنه جلب أطقمًا من الحرير القرمزي الهندي وفرشها على الأسرّة النحاسية. وبسطَ سجّادًا قاشانيًّا على كل أرضياتها. وبعد كل ليلة صاخبة، وحالما تغادر زائرات الليل في الصباح خلسة إلى أنطاكية وأحيانًا حلب، ترسل فريدة خانم فتيات القصر لتنظيف الدارة. ويسمع كل مَن في الدار همسهنّ عن بقايا العبث والسُكر. أمشاط نسائية وألبسة داخلية وأحمر شفاه وكحل أسود يلوِّث الوسائد الحريرية.

رصفَ دربًا فرعية مظلّلة بالأشجار والنباتات المعريشة تصل إلى بوابة السلاملك، ليستقبل زائرات الليل. تناقل القرويون كيف أنه فتح بوابات

الاسطبلات وترك الخيول تعدو في كل الاتجاهات بينما كان سكرانًا مع ثلاث نساء شبه عاريات ينشدن الأغاني ويضحكن.

هل أخطأت عندما راهنت على الوقت؟ لا شيء يمضي نهائيًا، فالحزن يذهب في رحلة وحسب، ولا يُغادر. بل ينبت دائماً كالفطر، من دون أن نعرف على أي شيء تغذّى.

الحقيقة أن فهرية أحبت كل ما جاءت به، وما مثّلته «دادا»! لكنها في الوقت نفسه تغار، أو حتى تخاف، منها. على الرغم من امتعاض كيوان من كل ما تمثّله دادا، فإن كلًّا من فهرية وبدرية تعرفان نظراته المتشهيّة، فهما تعرفانه جيدًا.

منذ أن رأت دادا، شعرت فهرية أن عوني جاء بهذه المرأة بالذات لينتقم منها، هي فهرية التي صدّته مرة بعد مرة، كان آخرها عندما وجّهت له صفعة تعلم تمامًا أنه لن ينساها قط، وتشعر بأنه سيردّ عليها.

فهل اكتفى بأن جاء بـ«دادا» زيغول. المرأة الأكثر تمرّدًا، والتي يعتبرها طرازًا يتجاوز بكثير كل ما مثّلته فهرية من تمرّد. كلنا نعلم، بما في ذلك عوني، أنّ امرأة مثل «دادا» ستلفت انتباه الملائكة والشياطين على حد سواء! حضورها يجمع الفتنة، والذكاء. تخلق انطباعًا ساحرًا وهي تتحرّك بفساتينها المنتقاة بعناية. يتأرجح جسدها، معتدّة به لا يهمها ما يُقال. إنها خلاصة الغواية. كل حركة تأتي بها تذكّر بمخدع النوم. تعلم أنّ عوني تزوّج من عدوية زيغول غير مكترث بماضيها، فقد سمعته مرارًا يكرر قوله: «امرأة بلا ماضٍ،

وبلا تجربة، هي طعام بلا ملح أو فلفل». لكنّها كانت تعتقد بأنه يقصد نساءً عابرات يعاشرهنَّ، ثم يسلّي ندماءه بالحديث عن أجسادهن وفروجهنّ، كما سمعت من الماشطة آزاد ومن الطباخة زهرة، والخادمات الشقيقات بحرة ومهرة ونورة.. اللواتي ينقلن كلماته وهنّ يضحكن ويكمّمن أفواههنّ. لطالما كان مسليًّا بأحاديثه الجريئة في دار السلاملك. لكن أن يتزوج واحدة منهن! فذلك كان أمرًا مستبعدًا، لأنه أكثر مَنْ يعرف نهاية النزوات.

«إن دادا هجوم مدروس من قبل عوني على أهل منجوك»، قالت لنفسها.

التقطت فهرية أن أخطر ما تحمله دادا، لم يكن جسدها المترَف، ولا جاذبيتها الخرافية. الأخطر هو الحرية، امرأة حرّة، أي إنها تقبل وتصدّ بإرادتها. منحتها هذه الحرية قدرة على المرح والضحك، بقدر ما منحتها القدرة على الصَدّ حين لا تريد!

وتعرف فهرية جيدًا كم يغري الصدّ صيّادًا مثل كيوان.

منذ أن حضرت دادا راحت فهرية تجمع أخبارًا عنها. وعرفت أن والدتها زنبق أفندي هرّبت التبغ والكحول والقهوة والأسلحة، وسُجنت في شبابها المبكّر مرتين، وفي كلّ مرّة كانت تخرج لتعود أكثر نفوذاً وقوة. وأنها بعد أن تقدّمت في السن، اشترت فندقًا صغيرًا، جعلته في الواقع ماخورًا أنيقًا اشتهر بنظافته وحُسن انتقاء بناته وتنظيمه، ليصبح لاحقًا أكثر شهرةً بأسماء زبائنه.

أخفت حقيقة أنها تتوق لمقابلة تلك المرأة، والدة «دادا»، التي لم تزُر قصر منجوك رغم أن ابنتها زوجة رسمية لابن آل أرشدان منجوك. كان ذلك دليلًا حاسمًا على ذكائها وفطنتها، فهي لن تزجّ بنفسها في حربٍ مع فريدة خانم أفندي. والزنبق تعرف آل أرشدان، تعرف الوالدَيْن، وتعرف أن فريدة تعلم أن بكوات آل أرشدان قد عرفوا فندق الزنبق وفتياته، وأن دار السلاملك استقبلت زائرات من فندق «الزنبق» جئن إلى هذا القصر في طلبيات خاصّة للبكوات والباشوات وتجار السلاح.

حمل الهواء البارد رائحة الريحان الذي وضعته فهرية لتوّها على قبر أبيها. أي بؤس يدفع البشر لزيارة المقابر؟ لم تجد لها ملاذًا إلّا المقبرة الكائنة على تل جبرائيل المشرف على أنطاكية إلى يمين نهر العاصي.

أحكمت لفّ خمار من الفوال الأبيض، تدلّى بالتفافة أنيقة من خلال القلنسوة الحريرية البيضاء. قلنسوة من تلك القبعات التي تميّز أزياء بنات الذوات.

لا تغيب صورة «دادا» عنها، بوجهها السافر وصدرها المكشوف حتى التقاء ثدييها، وثيابها المدنية الحديثة. توقّف بصرها على مجرى النهر، وبرقت في ذهنها نظرة كيوان، الرجل الذي جفّف حياتها، كما يجفّف انحباس المطر نسغ النظارة.

19

هنا برميلي، ولن أغادر

يفكّر في أسطورة تيخا، بينما تمرّ أسراب طيور الأوز فوق رأسه. أسرابٌ متماسكة، منظّمة، أنِفة، يغريها سرير نهر العاصي المراوغ. يتذكَّر حكاية الهدهد، فهو لم يصوِّب، سيزار، فوهة أيّ سلاح منذ ذلك اليوم الذي قُتل فيه الهدهد. وقف على إحدى شرفات داره يرقب ثعبان النهر المتلوّي، ويتذكّر يوم غادر وفي باله أن يجرّب البحر لعدة أشهر ثم يقرّر إن كان سيستمرّ أم يعود. لكنه غاب لسبع سنوات. ثلاث سنوات منها قضاها بحّارًا، وأربع منها مرّت عليه سجينًا ومنفيًّا في جزر إيطاليا!

يرى صديقه قادمًا فيتجه نحوه يستقبله. ويطلب عوني منه أن ينزلا إلى الأقبية:

«أريد أن أختار بنفسي أيّ سونينو سأتذوَّق اليوم»، يقول ويضحك مقهقهًا.

يمشي سيزار مع صديقه بين جرار من الفخار التي يخزن فيها النبيذ الأبيض والوردي، ثم براميل الخشب، ويشرح لعوني أن النبيذ الأحمر يخزَّن في براميل خشب، وكيف أن الخشب يؤثّر كثيرًا في طعم النبيذ.

توقّف عوني بينما يمرّان أمام البراميل عند أحدها باهتمام كبير. وبدا على طرف فمه الممطوط طيف ابتسامة تحوّلت إلى ضحكة، وهو يقول فاردًا كلتا يديه:

«برميل ديوجين»؟

ضحك سيزار:

«نعم يا صديقي، إنه كذلك، كنت أعتقد بأنها خرافة تلك الحكاية الشهيرة عن ديوجين الفيلسوف الذي رفض عرض الإسكندر الكبير بأن يمنحه ما يشاء، واختار برميله ليعيش فيه... الآن، وبعد أن مررت بكل ما مررت به، غدوت أفهم أنه على كلٍّ منّا أن يختار برميله».

فهم عوني ما يقصده سيزار من عبارة «أن يختار كل منّا برميله»، فعلّق:

«كم كان الثمن غاليًا لنفهم أنه علينا أن نعثر على هذا البرميل وإلا فإننا سنبقى تعساء، حتى لو ملكنا العالم... حدّثني عن برميلك يا سيزار الفايز».

«هنا، برميلي هنا حيث هذه الكروم والمزروعات، حيث هذه البقرات والعنزات.. هنا، بين أهلي. يوم رحلت متتبّعًا مجرى العاصي حتى وصلت البحر. وعندما ركبت سفنه، كنت أريد أن أمخر عباب الدنيا وليس البحر وحده. لكني سرعان ما اشتقت إلى هذه الديار وأهلها. صدّقني، كانت عودتي نهائية في تلك الرحلة التي التقيت فيها ذلك الرجل الليبي.

عندما ركبت السفينة أول مرة اعتقدت بأني سأعثر على شيء غامض من نفسي لم أجده بعد. لكن، تلك السنوات في المنفى، بكل ما لها وما عليها، علمتني شيئًا واضحًا: إنني أحتاج إلى وطن، وأن الوطن ليس اسمًا، ولا هوية حتى... إنه

مكان نرتاح ونطمئن للعيش فيه بين أولئك الذين كوّنوا ما نحن عليه!! نعم، إنه الحياة هنا مع أمي ومع أبناء جلدتنا.. إنه هذه الوهاد والجبال، هذه الغابات...الظباء والذئاب والثعالب والعصافير... بل كل تلك الخرافات والأساطير التي لا أؤمن بها... كلّها أحبها. بل عرفت أنني لن أستطيع العيش غريباً عنها».

«والآن يا ابن جلدتي وابن برميلي إذا صحّت فرضيَّتك! يريد الأتراك سلب أنطاكية وسلخها عن سوريا. وأنت تعلم كره أتاتورك للناطقين بالعربية، وامتعاضه من كلّ ما هو شرقي إسلامي أو مسيحي، فالرجل علماني لا يرحم. سيقرّر بأسرع وقت أننا نشكل تهديدًا على أمن الدولة التركية الحديثة، وستصطادنا عيون «الكركول»، آه لا، سمعت أن شبكة الجاسوسية المسماة «كركول» قرّر أتاتورك تحديثها، وسُميت «فرقة مسلح مدافعة ميليه»، وقد عادت الدفعة الأولى من الضباط المدرّبين على الأعمال الاستخباراتية من ألمانيا، وسرعان ما سينشرهم المارشال فوزي جاكماق في الأماكن التي يعتبرها تهديدًا لأتاتورك، وأولها أنطاكية ومناطق الكثافة الكردية. تعلم أن الأتراك اشتروا خمس غواصات حديثة من هولندا وإسبانيا، ولم تعد غواصتهم «كوملويينا صقاريالا» يتيمة. بينما مُلئت كتبهم المدرسية بعبارات مثل «نحب الغازي، إنه منقذ الأمة أنقذَنا من الحروف العربية... أتاتورك هذا غدا بطل الأمة التركية»».

هزّ سيزار رأسه موافقًا بأسف:

«الأرجح أن يعطينا الأولوية في تصفياته. لكن سمعت أنه مريض، ما أدراك أن يموت هذ الرجل ونرتاح.. مع أني أظن أن هذه السوسة زُرعت، ولن نرتاح..».

ردّ عوني بلهجةٍ يشوبها الحزن:

«للأسف، إن الأقليات المسيحية، مثلك يا سيزار، ستتعرّض أكثر منّا للظلم. فقد هجّر أكثر من مليوني مسيحي من تركيا، وغادروا إلى اليونان...».

«أعتقد بأننا كلنا سنكون سواسية، فالدين لا يهمه. يريد القضاء على كل معارضة. ألم يهجّر الأكراد المسلمين الهاربين من التتريك عقب ثورة سعيد بيران، إلى شمال سوريا... وهل فعل ما فعله بالأرمن لأنهم مسيحيون!؟».

«أعتقد بأن القرار اتُخذ، ولن يتأخّر تنفيذه. وعلينا أن نختار بين البقاء أو الهجرة».

«أنا عدت إلى هنا لأبقى، ولو حدث وصارت أنطاكية تابعة لتركيا، سأتكيف مع الوضع الجديد، فهنا أهلي وأرضي وسمائي ومياهي وكرومي، وهذه أشياء لن تتغير..».

«هل تظن أن الكماليين سيتركون لنا ملكية هذه الأراضي الخصبة؟! ألم يعلنوا أنه «لا حداثة من دون القضاء على الإقطاع؟!»».

يعترض سيزار:

«لم أكن يومًا إقطاعيًّا، نعم، أملك الأراضي لكن من يعملون معي يعملون لوقت محدّد ويأخذون

أجورهم كاملة»، ثم يضيف مبتسمًا: «المشكلة عندكم أنتم آل أرشدان».

مرّر عوني أصابعه بحركة دائرية كأنما يحتوي الأفق بقبضة يده، وقال:

«هذا البرميل.. لن يبقى كما هو. اسمع، يوم غادرت أنا إلى أمريكا كنت أظنّ بأني لن أعود. لكن بعد أشهر فقط، اكتشفت أن ما فعلته هو «الهروب إلى الأمام». هناك رأيت الروس المهاجرين، معظمهم تخرّجوا من كلية «كاتكوف»، كلية النبلاء والبرجوازية الروسية، يعملون ندلًا وفرّاشين وقوّادين، ويضنيهم تعلّقهم العاطفي بوطنهم، ورأيت الأرمن كسرهم الحزن من الطرد والمذابح.. ورحت أتنقّل من بلدٍ إلى آخر، لأكتشف في مرحلة من الرحلة أن المهاجر الذي يتحوّل إلى مواطن، هو المهاجر المكسور غير القادر على العودة... لذلك عدت».

وصلا أمام جرنٍ فيه بضع قنانٍ وضعها سيزار لتبرد في الماء المثلجة التي تنزل من جبال الأمانوس. فتح زجاجةً وصبَّ كأسين وهو يقول:

«أعرف أن الحياة لا تعطي فقط. لكن فلنأخذ منها عندما تعطينا.. هيا، في صحة ملك النسيان!». ورفع كأسه.

كان سيزار يمرّر أصابعه على حواف البرميل الذي يفصله عن عوني، عندما أخرج سجائره وأشعل واحدة ونظر إلى صديقه الذي كان شاردًا مغمضًا عينيه. وعندما ضحك فتح عوني عينيه، وقال:

«مَن نحن، وما هي أصولنا؟! كيف لنا أن نعرف

ونمتلك مثل هذا اليقين الأخرق؟ في مكان تتعايش وتتجاور فيه قرى وضياع سكانها تركمان أو كرد أو شركس أو بقايا رومان وبقايا فينيقيين..؟ نحن بقايا حضارات بائدة يجمعها فقط أنها تتكلّم العربية؟!».

«أراك نسيتنا نحن، بقايا المَرَدَة الجراجمة، أو ربما بقايا الصليبيين!؟ وأنت، «منجوك»، ما يعني أن عائلتك من أصل سلجوقي.. وأيضًا من هنا مرّ امرؤ القيس، حزينًا معطوبًا بالخيانات.. وهناك بنَت زبيدة دارًا للضيافة قد اندثرت الآن، والبحتري ذكَرَ اسم قلعة بغراس في أحد أشعاره. نحن أبناء كل ضروب التهجين..».

قال عوني وهو يضيّف سيزار سيجارة ويشعلها له:

«الوطن ليس فقط الأرض والأهل. إنه أوّلا الشعور بفخر الانتماء إليه، إنه الحلم بأن تتوفّر وحدة الشعب في ضمير الأمة. العدالة لا تكون من دون القوّة التي تحميها، قوة لا تتحقّق بوجود هويات وإثنيات وعرقيات...».

كان عوني يتكلّم بحنق وهو يهز خصلات شعره الجعداء التي تتجاوز أذنيه، متعرقًا وقد فاحت منه رائحة الكولونيا مختلطة مع رائحة التبغ.

أدرك سيزار أن صديقه يردّد أفكار الكمالية التي تريد تذويب كل الإثنيات. لكنه فضّل إزاحة الحديث:

«لا شيء يجعل الناس يتخلون عن خوفهم سوى تحقيق العدالة، لكن هذا حلمٌ حلُمَ به الرسل والأنبياء والمصلحون والفلاسفة، وكما

قالت غلوريا يوماً: «... الفن والفلسفة وحدهما ما يبني الروح الإنسانية العظيمة... وحدهما يبقيان والباقي يزول.

انتصب عوني واقفًا، وقال:

«صدقت الرائعة غلوريا. كيف تركتها أيها الأبله. ومَنْ هي الأكثر روعة التي أعادتك؟». وضحك.

ضحك سيزار وقال: «السيدة مقبولة أفندي تنتظرني على الغداء، فما رأي البيك عوني أرشدان في طعام مع الفلاحين؟».

«ستسعدني زيارة مقبولة أفندي. فأنا اليوم في مزاجٍ مرح، ولا أحد ينتظرني».

تفاجأ سيزار: «أنت دائمًا مرِح، لكن يبدو اليوم أن هناك ما يزيد المرح عندك!».

«نعم، أفقت في الصبح لأجد دادا استيقظت قبلي، على غير المعتاد، وأخبرتني أنها ستخرج في نزهة طويلة على الأحصنة مع فهرية. وعندما خرجت من غرفتي وقت الفطور كان كيوان يغلي غضبًا وعجزًا عن فعل أيّ شيء، فهو يرى في دادا خطرًا كبيرًا على سلطته... عندها وجدتها أفضل فرصة لآتي إليك صديقي أتحدّث معك، وأتذوّق نبيذك، وها أنا أكسب غداءً أيضًا».

كان ضحكهما مسموعًا إلى حدّ جعل مقبولة أفندي تخرج إلى مدخل الدار لتراهما مقبلين نحوها.

20

«عشيرة» في العرزال، وحادثة النهر

تدندن الربة الخفيّة، سعيدة، بألق نورها وجمالها. عشيرة، المولودة من زبد البحر، ربة الغوايات، المتلألئة في السماء ومن أسمائها «نجمة الصبح». الملكة اللعوب، محرّضة الأشواق ومهيّجة الصبابات، إنها المبرقشة بكلّ الألوان، تبعثر، وتعبث.. تضلّل، وترمي القلوب بسهام الحيرة.. إنها جنّيّة الوثوب المباغت، العشق الصادم، والارتماء المجنون. ما أبرعها عشيرة بتأهيل البشر لأجل الوثبة الأولى، وثبة القلب في المجهول.

تردّد سيزار مرّات كثيرة على دار السلاملك منذ عودة عوني إلى تلّة عشيرة. صداقته لعوني امتدّت إلى دادا التي أُعجب بها. لمح فهرية أكثر من مرّة في زياراته، وتبادلا التحية.

علّمت غلوريا سونينو سيزار القمري ألّا يخفي أهواءه. وفهرية كانت الهوى السرّي. كلما لمح فهرية تذكّر كلمات غلوريا: «لا يتعلّق الأمر بأن نكون شجعانًا أو لا، علينا أن نختار الوقت، متى ينبغي أن نقدم وننزع الخوف؟».

جاء الوقت، وحضرته الشجاعة. نهض القدر النائم على جناحيه وتدخّل باللعبة على طريقته. كان عائدًا من أنطاكية ويحمل «تلغرافنامه» من أزمير لعدوية زيغول، بعد أن كلّفته عدوية بإيصال رسالة. صادف المرأتين على جوادَيْهما خارجتين من بوابة القصر للتنزّه. انشغلت دادا بالتلغراف

ولحق هو بجواد فهرية التي بدا له أنها تباطأت عن عمد.

توقّف الزمن في تلك اللحظة. قال سيزار بصوتٍ هامسٍ وبكلمات متلاحقة كأنه حفظها عن ظهر قلب: «فجر الغد ستظهر النجمة السابعة من نجمات كوكبة الثريا، إنها تبزغ فوق عرزالي في كروم العنب. أدعوك لشرب الشاي حيث ستكون نجمة فريدة بانتظارك ». نطق بما أراد، ولما بقيت صامتةً لكز حصانه وانطلق من دون أن يلتفت وراءه. كأنه كان خائفًا مما قد تقوله. في الطريق، وبعد أن هدأت نفسه، داخلَه شعور مفرح لأنها لم تنطق بشيء، تمامًا كما يوم قبّلها قبل سنوات طويلة.

تحضر عشيرة من دون موعد، تخترق الزمن، وتهتك المحظور. إنها الهدّامة، تحملها الريح بخفّة وحولها تتجمّع العصافير والحمام وتقود مركبتها طيور البجع.

حلّقت ربة الجمال ومحرِّضة الشوق والجوى، وعقّدت الخيوط أكثر في متاهة قلوب آل أرشدان. هيّجت الذكريات.

لا فوضى في عالم أنطاكية وكلّ الأشياء لها أسيادها، وللحب هذه السيدة المخادعة، التي اقتلعت خوف فهرية، حملتها على ظهر فرسها لتصل في ذلك الفجر من أحد صباحات قطف العنب من أواخر شهر أيلول، وقد عاث الشوق والإرباك في جسدها وعقلها. ذهبت محمولة بتمرّد نفس مجروحة، محزونة، وعاشقة، خانها الحظ عندما ثملَ ابن عمها كيوان ذات ليلة.

جاء الفجر الذي حلّقت فيه ملكة الشهوة، مسحوبة عربتها بطيور البجع ورتبت ذلك اللقاء بين فهرية وسيزار.

ذهبت بعزم المرأة المغدورة من القدر. ذهبت بنفسها إلى سيزار الذي اقتنص قبلة متشهّية من عنقها قبل سنوات طويلة. وبقي طعمها على فمه ورائحتها في رأسه. كان ذلك وقت جني العنب وسيزار ينام في عرزال مشرف على كرومه. صهلت فرسًا كميتًا، استجاب لزفرات حزنها. كان سيزار معذَّبًا مثلها.

مجيء فهرية في ذلك الشفق المحمَّل بمباغتة الحب، كان اعتداءً غراميًّا بقدر ما انتظره، خشي من عواقبه. لم يكن سرًّا ما يحدث في قصر أرشدان. كان يخاف أن يكون قرارها نتاج غضبٍ من كيوان. لكن وهو يراها أمامه لم يستطع المقاومة. لم يسألها شيئًا. أخرسته عفريتة الشهوة، أسكتته، جرّدته من كل احتمالات التفكير، نسفت عقله. فالشهوة تتغلّب على العقل.

كيف لسيزار أن يقاوم فهرية التي جمدت على ظهر فرسها تنظر نحوه باستسلام لم يخفَ عليه. وكانت نظراته أشبه بتضرّع أن تكون جاءت لأجله، بل لأجل تلك القبلة. وضعت فهرية يدها على رقبتها حيث كانت تلك القبلة. كانت تريد أن تُفهمه أنها لم تنسَ. أدرك سيزار ذلك فنزل من عرزاله وأمسك بخصرها وهو يحملها ليُنزلها عن فرسها. احتضنها بهدوء لم يستمرّ طويلًا قبل أن يتحوّل إلى عاصفة رغبة. وسط الكروم احتواها

تحت لحاف طرّزته مقبولة بكل الحب. انفرط توقه ما إن لامست شفتاه عنقها. انطلق من نقطة وجعه بالضبط. العنق الذي أحْرَقَ خياله ولم تفارقه نشوته طوال سنوات النفي والسجن في جزر إيطاليا.

بتوقٍ جارفٍ كان يريد تحقيق الحلم العتيق الذي أرّقه طويلًا، وبالتوق نفسه كانت فهرية تبحث عن عاشقٍ يجعلها تشعر بأنها ملكة، سلّمت جسدها لشهوة ذلك العاشق الذي انتظر تلك اللحظة طويلًا. ضاجعها مشتاقًا، مغتاظًا، شغوفًا، عاصفًا، مشبوبًا، صاخبًا كنهر العاصي، الذي كان يُسمع هديره في الجو. كحصان جامحٍ ينزو على أجمل فرسٍ رآها. سوّغت لهما عشتار تلك الشهوة العارمة، وأعطتها الحق بالصراخ انتشاءً هي التي حُرمت لذة التعبير عن نشوتها طوال حياتها بسبب لعبة الكتمان. بسبب السرّيّة المفترضة بينها وبين كيوان، مع أنها تعرف أن الكل يعرف بما يجمعهما. لكنه كان يصرّ على أن يظلّ شبقهما محصورًا بالأقبية المعتمة والرطبة. ملّت من الذرائع والحجج ومبرّرات الغياب التي تضطرّ لتقديمها إلى أمها وشقيقتها كتلميذةٍ تقصّر في واجباتها. تعلم المرأتان أين تغيب فهرية وما الذي تفعله. يعرف الجميع أنه دائمًا، عندما تُفتقد فهرية يُفتقَد كيوان.

جنّنت فهرية سيزار، باغتته، جعلته يُخرِج الرجل الشغوف الجائع لحبٍّ طالما أرّق لياليه. تخلّى عن كلّ مخاوفه التي جعلته يتردّد طويلًا، نسي الحذر الذي عوّد عليه أصابعه وهو يتعامل مع حبات

العنب بحيث لا يجرح قشرة حبة عنب واحدة حتى لا تُفسد النبيذ.. لكنه كان مجروحًا بشدّة من الشوق والرغبة التي انتظرها كل تلك السنوات.

حنّت عليه جنيّة الحب وأرسلت له امرأة تليق بها تلك الأسرار والفنون التي تعلّمها في التقبيل والملامسة.. فنونٌ لقّنته إيّاها قبل سنوات ليتقن أصولها ويوزّعها على جسد فهرية.. منذ عودته وهو ينتظر استيقاظ ذلك الفنّ في نفسه. كان يتقزّز من نفسه ويبتعد كلما حاول تفريغ شهوته على عجل مع بعض العاملات لديه. أخيرًا، وقد وصلت إلى حضنه فهرية أرشدان منجوك، ها هو ينطلق في خلق الرغبات وسحبها من مكامن لا يعرفها سوى فنّان.

ما أبلغ كلام غلوريا سونينو وهي تخبره بينما تقرص خده وتمعكه بشهوة: «نحن النساء قطع من الجنان، إذا أردنا». عندما نهضت «جنته» فهرية ورتبت ثيابها بعد أن ارتويا، وأرخت خمارها على وجهها وامتطت فرسها، لم تنظر إليه. ابتسمت له فقط. تبسّم وهو يعلم أن كلّ ابتسامة اعتراف.. لكزت مطيّتها، بينما حلّقت بجعات ربة الحب في السماء. كأنها تقول، وحدي رأيت، وأنا أحمي العشّاق... غادرت فهرية، لتعبر نهر العاصي الذي قيل إن جنية الحب عبرته مصادفة وخاضت في مياهه، ومنذ ذلك الوقت ومياهه لا تروي الظمأ، وكلما شرب العطشان من مائه زاد ظمأه للماء.

***

وقفت مريم الهدهدية حائرة أمام حكاية يصعب

عليها تصديقها، فهي تعرف القوة التي تتمتع بها فهرية. كما لم يفهم أهالي ضيعتَيْ نيكال وشباش حقيقة ما جرى في ذلك الصباح الخريفي البارد، فقد اختلطت الأمور، وبدت غريبة؟!

في البداية كان هنالك خلط بين السيدتين، توأمتي آل أرشدان: فهرية وبدرية. هل رمت إحداهما نفسها في النهر؟

تراكض أطفال صغار في أنحاء قرية «نيكال». الطين والوحل في كل مكان. يصيح ديك فتجيبه بقية الديكة كأنها في جوقة. تُسمع أجراس الماشية وثغاؤها من أطراف القرية، بينما يتردّد نباح كلاب الرعي أكثر فأكثر، وحملت الرياح زنخة المستنقعات، وسُمع حفيف عيدان القصب، كنحيب غامض لا يهدأ.

حالة من الوجل والاندهاش تسود كل شيء.

عادت العربة ذات العجلتين تمعس الأوراق اليابسة المختلطة مع طين الطريق، حيث دُثّرت فهرية خانم أفندي بفروة من صوف الغنم انتُزعت على عجل من راعٍ كان يرعى ماعزه بالقرب من النهر، بينما جلس عوني بيك المبلّل تمامًا إلى جوارها وهو يشدّ أطراف الفروة هنا وهناك لتغطي جسد ابنة عمه التي أخرجت للتو من الماء، وإلى جانبه أخوه كيوان. بينما الوكيل المبتلّ بالماء بالكامل، الذي يقود العربة، يسوط البغلين بقسوة حتى يتحركا بسرعة هربًا من أعين الذين وقفوا خارج منازلهم بأعينٍ فارغة إلّا من الدهشة والتساؤل، وأمامهما هدلت فرس كيوان بيك إلى جوار العربة، وهو لا يفتأ يستحثّ بدوره البغال

والوكيل.

بين حين وآخر كان كيوان يناول شقيقه قنينة صغيرة كانت في أحد جيوبه، فيتجرّع عوني قليلًا من الشاي البارد مع الروم، مشروب كيوان المفضل خلال الأيام الباردة.

خرجت ثلاث خادمات من تلك الفتيات اللواتي تتبنّاهنّ السيدة الأم من عوائل الفلاحين وترعاهنّ، فتقوم بإكسائهنّ جيدًا وتجعل منهنّ مع الوقت خادمات مخلصات، وعيونها أيضًا في قصر منجوك.

بعد أقل من ساعة دثّرت فهرية بثيابٍ جافّة ونامت في فراشها.

دار حديث السهرة في بيت المختار أبو طنوس عن الحادثة، ووصف بعض شهود العيان كيف اندفع كلّ من كيوان بيك وأخوه عوني والوكيل في الماء الهادر، كان الماء يصل إلى صدور الخيل التي كانت تحمحم وتصهل في مواجهة ضغط الماء المندفع، بينما يشكّل الرجال الثلاثة حاجزًا في وجه التيار الذي حمل فهرية، إلى أن استطاعوا التقاطها وسحبها.

خرجت الخيول مبلّلة حتى الأعراف، وتبلّل شعر عوني الكثيف الأجعد والتصق بوجهه، واختفى ذلك التعبير المستهزئ الذي لا يفارق ثغره.

كان الصمت يعمّ الجميع، وتظهر الدهشة على الوجوه وهم يستمعون إلى وصف الراعي الذي كان في المكان، ويصف عملية انتشال الخانم من الماء. دار النقاش بين الرجال حول الحادثة

التي كان الجميع يميل إلى أنها انتحارٌ! وإلّا ما الذي أوصل فهرية إلى ذلك الجزء الهادر والضيّق من النهر؟ وانصرفت النساء إلى الثرثرة بأصوات خفيضة في تكهّنات عن السبب الذي دفع سيدة مثلها لتقذف نفسها في نقطة يعرف الجميع أنها دوّامة يصعب على أمهر السبّاحين أن ينجوَ منها!؟

في اللحظة التي أُنقذت فيها فهريّة من النهر، كان يسود ضباب من ذاك الضباب الكثيف الذي يعمّ أجواء أنطاكية كلّما تحركت أم الحيّات ذات الرؤوس السبع. ضبابٌ كثيفٌ يكاد يمنع الرؤية، ويستمر حتى ساعة متقدّمة من النهار. ورغم أن السوريين القدماء زعموا في خرافاتهم أن هرقل العظيم أطاح برؤوسها الساقّة وماتت، فإن أهل أنطاكية يؤكّدون أنها تعيش في قلعة بيلان، ويتحدّثون عن أشخاص رأوها. ولم يزل الأهلون يقدّمون لها القرابين خفية لأنهم يعتبرون أن هذا الضباب يؤشّر إلى تبدّل الطقس وتحوّله إلى الربيع. لذلك تقول النساء العجائز إنّ الضباب الذي تحرّكه أمّ الحيّات يجعل الزنابق تزهر..

21

يبرق.. الضحيّة

لم يكن أمر فهرية أرشدان وقصة انتشالها من الماء يشغل بال فجر إسطفان. كانت مشغولة بأمر آخر: أمّها.

في وقت مبكر من حياتها تمرّنت فجر على مواجهة الصبيان وهم يحاولون التحرّش بها ومد أيديهم تحت ثوبها. وكان بكري ابن القصاب أكثرهم إلحاحًا وإزعاجًا، فهو كلما رآها يهدّدها ويهمس لها: «ستكونين عاهرتي الصغيرة.. مثل أمك»..

كبرت فجر ولم تعد تلوم القدَر على فقرها، في قرية تتميز بعدد من البيوتات الميسورة مقارنة ببقية الفلاحين في القرى المجاورة، مثل قرية شباش التي كان معظم أهلها يخضعون لنظام أشبه بنظام القنانة. فآل معراتي يملكون مصبنة تنتج صابونًا شهيرًا، وآل عيدو وآل فارس وآل فضالة يربّون دود القز وينتجون الحرير، ولديهم أنوال ينسجون عليها قماش الكرمسوت المنسوج من الحرير والقطن المموّج، وآل سمقة يعملون بالنجارة فينتجون أثاثًا من خشب الجوز طارت شهرته إلى أبعد حتى من أنطاكية. وآل داغر يصنعون مسابح من أحجار كريمة ومن نوى الزيتون وأمشاط من خشب البقس، وآل كجك يعملون في صناعة وتزيين الفخار.

كانت صناعة الفخار تلفت نظر فجر التي ربطتها صداقة مع إحدى بنات آل كجك. حتى إنها صنعت

لبيتهم زيرًا كبيرًا لجمع الماء. صنعته أمام الكوخ وشوته بالقش وروث البقر، وبعد أن شوته زخرفته بعود القصب بمربّعات ومثلثات ودوائر متناسقة، منحته جمالًا قد يفوق ما رأته عند آل كجك.

على الرغم من بعض الصداقات، إلّا أنّ فجرًا لم تتشارك أسرارها إلا مع روزا ابنة المختار، الهيفاء القامة والتي سُمّيت على اسم ماركة حرير قشدي لامع، تنتجه أنوال مربّي دود القز في المنطقة، وتعَدّ هذه القماشة أغلى أنواع الحرير. مذ كانت طفلة تعرف أن قصّاب القرية أبو بكري كان يرسل إلى أمّها عظام عجل عليها بقايا لحم، أو جزءًا من الكرشة، أو بعض قوائم الخرفان. وكان وصول هذه الأعطيات مثار فرحة في البيت، إلا عند يبرق. لكنّها مع ذلك، تقضي نهارها في غلي العظام، وتجتمع العائلة فيبدو الأكثر سعادةً هو إسطفان الذي يلتهم هذا الطعام اللذيذ حتى يعجز عن الحراك فينام في مكانه.

كانت في العاشرة تقريبًا عندما علمت لماذا كان «أبو بكري» حنونًا، على أمها. فقد رأتها مرّة تلوذ في الدغل المطلّ على فتحة الساقية الرومانية، حيث كانت تمضي معظم وقتها. يومها علمت أن ثمة شيئًا خطأ، شيئًا سرّيًا غامضًا، يحصل. وعندما قرّرت أن تعرف هذا السرّ رأت أمها تضطجع تحت أبو بكري باستسلام بينما هو يؤرجها بحقد وعنف ويعصر إليتيها، ويتعرّق.

تعمّدت عدم مراقبة أمها بعد ذلك اليوم. لم تكن تريد رؤية ذلك الرجل المشعِر العريض البنية والمكرّش يرمي بقذارته فوق أمها التي لم تكن

بلهاء وخرساء كما يعتقد أهل القرية. وصمتت.

حتى هي نفسها، صارت تدرك يومًا بعد يوم أنّ جسدها هو عائلتها، طالما أن لا عائلة لها تحميها، مع أنها تحبّ أمّها وأباها كثيرًا. تخفي معرفتها، تحتفظ بها لنفسها، مثل أسرار كثيرة أعظمها سرّها مع الخوري شعيرات.

تجلس فجر في عتمة المكتبة وتفكّر في حالها وحال والدَيها. تعلم أن الخوري يمنحها التعليم المجاني ويتيح لها الحصول على الكتب، مقابل موافقتها على تقبل لزوجة ودبق فمه المرتخي على جسدها. وحصلت في سن الرابعة عشرة من عمرها، على أوّل ليرة ذهب من الخوري الخجِل، الورِع. فبعد أن تمنّعت عن تلبية طلبه، أخرج من جيبه ليرة عصملية قدَّمها لها. ومع أنها تعرف الثمن، لم تتردّد في قبول تلك الأعطية الثمينة من الخوري.

بفضل الكتب، لم تعد فجر تلك الطفلة التي تصرف وقتها باكتشاف أعشاش اللقلق الفارغة، تلك الطيور التي تحبّها وتحاول أن تحميها من صبيان القرية الذين يصطادونها. وبفضل الكتب أيضًا، تعلّمت فجر أنه لا يجدر بالفقراء اجتراح البطولات، فلا أحد سيهتمّ، بل ربما إن حاولوا سيتعرّضون لمزيد من الضغوطات، وإن واجهوا قد تُدمَّر حياتهم. عليهم أن يمتلكوا قوة تحميهم قبل أن يفكروا في مواقف البطولة، فللبطولة شروطها، وكم من أبطال قرأت عنهم، دفعوا ثمن بطولاتهم لأنهم لم يستطيعوا حمايتها.

أخذت الليرة الذهبية واشترت منزلًا قديمًا

مهجورًا أصلحه إسطفان بفرح كبير، وسكنته مع أبويها المعتوهَيْن وسط دهشة أهل القرية، وثرثرات النساء اللواتي نعتنها بالزانية والعاهرة، لأنها رفضت أن تخبر أحدًا عن مصدر تلك الليرة. حتى زوجة المختار التي انتظرت من فجر أن تغدو خادمة في منزلها، حنقت عليها وكرهتها.

تفكر فجر في أمها، فالظنون التي راودتها بشأن أمها، لم تكن في الحقيقة إلّا أمرًا واقعًا. إنها حامل. يبرق التي فقدت عقلها عقب ثلاثة أيام من الاغتصاب والضرب؟! ها هي تتعرّض مرة أخرى لتلك التجربة المرّة. لاحظت فجر بوضوح التحوّل الذي أصاب أمها. وتعرف أنه ذلك القذر أبو بكري.

ها هي الآن تفكّر ماذا ستفعل؟ ولم يكن أمامها سوى الهدهدية.

أطرقت الهدهدية مليًّا وهي تفكّر بحلّ ليبرق التي سبق وأنقذت حياتها بتزويجها من إسطفان.

كانت فجر تحتضن رأسها بيديها وتمسح بين حينٍ وآخر دمعةً تنزل على إحدى خدَّيْها بينما تنتظر ما ستفعله الداية، عندما علا لغط أصوات غريبة ومختلفة. لم يخطر في بال أحد من أهل تلك القرية أن المرأة التركمانية يبرق ستنتهي شبه مهشَّمة بعد أن زلت ساقها وهي تجمع حبيبات البطم من شجيرات مندفعة صوب منحدر صخريّ سحيق.

هبط إسطفان وهو يبكي مثل الأطفال، اختلطت دموعه بلعابه بينما يساعده طنوس وشابان آخران

من القرية لرفع جثة تلك المرأة المسكينة.

اجتمع كلّ أهل القرية أعلى المنحدر بجوار شجيرات البطم يراقبون رفعها وإخراجها من تلك الوهدة، بينما اختفى القصّاب وابنه. أمرٌ لم يفت مطلقًا فجر التي كانت وحدها تعرف السبب.

كانت الزيزان تصرصر وتهسهس على أشجار السرو المعمّرة التي تحيط بالكنيسة، فيما الشمّاس يلوِّح بالمبخرة حول جثمان أمها، بينما وقفت فجر وقد أسدلت على رأسها غطاءً أبيض طُرِّز على الجبهة منه صليب ذهبي. تراءت لها كل أشباح خوفها من الحياة.

واظبت لأيّام على زيارة الكنيسة والمشاركة في الصلوات والتراتيل. بينما كانت تحمل بيدها الشمعة وتمشي في صف من الراهبات يرتّلن الأناشيد، تنير وجوههن أضواء الشموع، حدّقت فجر في عتمة الكنيسة التي تعرفها واعتادتها جيداً. عتمة لم تختلف عن عتمة المكتبة حيث يعرّيها الخوري. ماذا بوسعها أن ترى في العتمة؟؟ استدارت بغتة وخرجت. خطت بتمهّل وغادرت المكان.

مرّ شهران حزينان على فجر. فوق حزنها على أمها كانت خائفة على أبيها الذي لم يعد يخرج للرعي. وصار يقضي معظم وقته يفتل باكورته الخشبية بين يديه وينوح على يبرق. وحده الخوري شعيرات كان يزورهم، فلم يكن يستطيع أن يبتعد طويلًا عن فجر. وكان يحمل لهما ما يحتاجانه من الطعام. لكن زياراته راحت تتناقص لأن فجر، الحزينة، رفضت أن تمنحه ولا حتى لمسة من

جسدها. لقد وقفت في وجهه وصرخت: «هل تعرف أن أمي قتلت نفسها؟ لقد كانت ضحيّة، فهل تريد لي مصيرها؟».

وعندما شكا إسطفان من ألم حاد في خاصرته لم تتوقّع فجر أنها ستفقده في أقل من يومين.

لكن إسطفان مات. فقد كانت تلك المرأة البلهاء الغريبة سببًا لاستمراره في حياة بائسة لا معنى فيها غير وجودها بقربه. كانت فجر ترتدي أسود الحداد، وهي تكنّس أوراقًا وأعشابًا يابسةً أمام عتبة الكوخ المتهالك الذي اشترته بفضل دروسها السرّية في مكتبة الكنيسة، عندما وقف أمامها حمار ينوء بثقل رجل بدين يرتدي ثيابًا غريبة، تفوح منه رائحة عطر تحوّلت إلى زنخة منفرة بسبب اختلاطها بتعرّقه وبدانته المفرطة.

كان ذلك الرجل قد غادر القرية قبل أكثر من ثلاثين سنة إلى أمريكا. واليوم جاء يسترد بيته الذي يعتبر أن أهله باعوه بغير حق.

لولا المختار والخوري لوجدت نفسها مرمية خارج مأواها. فالرجل ينتمي إلى واحدة من العائلات الكبيرة في القرية. تحزّبت له عائلته، حتى إن قسمًا من عائلة المختار، وهي أكبر العائلات، وقف إلى جانبه بتحريض من بكري الذي جمع بعضًا من «الزعران»، أصدقائه، بهدف طرد فجر من البيت.. لكنّ الرجلين، المختار والخوري، وقفا في صفها بحزم وهو يطلب الثمن ذاته الذي دفعته فجر للكوخ. تعالت مرة أخرى أصوات شاتمة تنعت فجر بـ«اللقيطة، ابنة الزانية، وبنت «الأخوت»». لم تعد فجر تكترث لكلامهم. تعلم أنّ أهل قريتها

استكثروا عليها أن تعيش خارج الوجار المظلم الذي عاش فيه إسطفان المسكين وتنتقل إلى بيت. حتى روزا التي دافعت عنها وطلبت من والدها أن يتدخّل لحمايتها وعدم طردها من بيتها، أعربت عن دهشتها بطريقة لا تخلو من الخبث، عندما اشترت فجر ذلك البيت القديم المتهالك، الذي كانت تنخر الديدان أخشابه. ولولا أنّ إسطفان ظلّ شهورًا يصلح أخشابه وحجارته وسقفه، لما أصبح قابلًا للسكن.

استكثر عليها أهل القرية تلك النعمة الصغيرة، وأعادوا طرح الشكوك حول من أين حصلت على ثمن البيت، ولم يقنعهم قولها بأن والدها كان يخبئ بعض المال وأنها وأمها جمعتا القليل من صنع الأمشاط وبيع البيض والخضار للكنيسة. وهو ما كان الخوري علّمه لها عندما جاءته باكية تريد التخلي عن البيت وردّ الليرة الذهبية له لأنها لم تجد ما ترد به على الاتهامات بأنها وأمها عاهرتان.

تتطلّع فجر عبر زجاج النوافذ المغبشة بالبخار المنبعث من سماور الهدهدية المستغرقة في التدخين، مسترخية في جلستها. بينما تنزع فجر حذاءي اللباد من قدميها المتلفعتين بأجربة صوفية وتجلس على صندوق خشبي مغطى ببساط ناعم.

لم تعد تستطيع فجر بكل الأحوال النوم في كوخها الذي كان يصلحه والدها كلما دلف ماء المطر من أحد أركانه. تخشى على نفسها أيضًا، وتخاف أن تقضي ليالي الشتاء الموحشة

بمفردها. لجأت إلى الهدهدية التي استقبلتها، فصارت تبات عندها وتقضي نهاراتها في القرية تؤدّي خدمات مختلفة للنساء الموسرات. وتمرّ قبل المساء على بيتها فتأكل هناك وتطعم دجاجاتها، وفي آخر المساء تؤوب إلى دار الهدهدية، تساعدها وترافقها في حالات الولادة. اقتنصت الفرصة لتتعلّم مهنة تساعدها على العيش.

***

ستمرّ عدة سنوات على فجر لا تجد فيها إلى جانبها غير الهدهدية التي علمتها الكثير في مواجهة مصاعب الحياة، وروزا ابنة المختار، التي جرّتها من يدها في ذلك اليوم، وهي تقول:

«يا إلهي!! يقولون إنها عارية.. عارية تمامًا...».

يضحك الفلاحون، قمريون وشمسيون على حدّ سواء، بتلذّذ وهم يعيدون قصّة وصول التمثال. وينقلون ما تفعله تلك المرأة «دادا». يتدخّل المختار ويشرح أن اسمها عدوية زيغول، وأنها ابنة امرأة اسمها «الزنبق»، وهي مغنية وتملك فندقًا في أنطاكية وهي... ثم يصمت حتى لا يُسأل كيف يعرف عن بناتها.

غدا واضحًا لكيوان أن عوني يتعمّد استفزازه. يريد تحدّيه ليرى إن كان قادرًا على طردها. زاد التفكير بالأمر من مللِه. اعتمر قبعته وزرّر معطفه بحزم، وخرج.

لم تكن سيرة على ألسنة الفلاحين، مسلمين ومسيحيين، في الأيام الأخيرة غير حكاية تمثال سيّدة عارية نُصِب مؤخّرًا في حديقة قصر آل

أرشدان!

من أمام القصر مرّت الفتاتان، روزا طنوس بقامتها الهيفاء وقدّها النحيل، وإلى جوارها فجر إسطفان ابنة الراعي، الجميلة الممتلئة، بشعرها اللامع الطويل ونظراتها التي تعبّر عن ذكاء. تحرّتا عن بعد، وعبر البوابة المزينة بطيور نحاسية مزخرفة في حديد مفرّغ على نحو يسمح للفضولي برؤية بعض أنحاء الحديقة التي تتدرّج أنحاؤها من أعلى إلى أسفل على ثلاث فسحات. أسَرَت بصرهما تلك المرأة الرخامية العارية. امرأة من حجر لا يؤرقها شعورها بأنها مُدانة قط، ولا تنتظر عفوًا أو تضامنًا من أحد. بل من يراها يسأل نفسه: يا ألله مَنْ منحها هذا القدر من اللامبالاة؟!

روزا المتعلّمة في مدارس أنطاكية، والتي تتكلّم وتكتب التركية والفرنسية، أخبرت فجر التي تقرأ الفرنسية جيّدًا بسبب فضائل الخوري شعيرات، وتتكلّم التركية بحكم عادة الناس في التحدّث بها، وتعلّمت أصول القراءة والكتابة بالعربية، أنّ صاحبة التمثال سيدة تدعى «فينوس»، وأنها هكذا دائمًا، عارية. إنه عري أرباب العالم القديم. هذه السيدة واحدة من حكّام الماضي الغابر. إلهة، ملكة، تتحكّم بمصائر البشر. سعيدة، لا تعرف الندم، ولا الخوف. لا تصغي لأحد، ولا تنتظر شيئاً من أحد..

سمع أهالي القرى الحكايات عن التمثال ونعومته وعريه بأعين واسعة ومفتوحة. تحدّثوا سرًّا أنها تشبه الملكة «عشيرة» المغوية التي تعمر القلوب بذلك الحب الشغوف الذي يخرب

البيوت.

مرّت سهرات الشتاء في منزل المختار أبو طنوس والشبان من قريتي نيكال وشباش يتهامسون بصراحتهم المبتذلة، عندما يسمّون الأعضاء بمسمياتها الحقيقية، عن تلك المرأة المرمرية العارية. بل أكثر من ذلك فابن القصاب بكري زعم أنه ضاجعها؟

بينما تحدّث غالب الشبان عن ملمس نهدَيْها وورِكَيْها.

انتفضت الفتاتان بغتة، عندما لمحتا فرسًا يمتطيها رجل متدثّر بمعطف طويل ويغطي رأسه وصدغيه ونصف وجهه حتى عينيه، بقبعة من الفراء البنّي الداكن. تقدّمت الفرس صوب البوابة المحروسة بخمس أو ست أشجار من السرو الضاربة بالقدم. تراجعت الفتاتان إلى الوراء، بينما أكملت الفرس سيرها عبر السور في خبب واسع رشيق.

أمسكت روزا بكمّ رداء فجر وشدّتها لتغيرا طريقهما عائدتين صوب القرية، وقالت: «لا بدّ أنه كيوان بيك أرشدان».

سألت فجر: «من قال لك إنه كيوان بيك؟ كيف تعرفين؟ لم لا يكون شقيقه عوني؟».

«بل هو كيوان بيك، هل نسيتِ أني درّست ولديه اللغة الفرنسية في أشهر الصيف المنقضي؟!».

كان أكثر ما نجح فيه ذلك البيك الطاغية، هو بسط هيبته من خلال الإقلال من ظهوره بين الفلاحين، عكس عوني الذي كان قريبًا منهم، بل ورافق صبية القرى والضياع المجاورة في رحلات

الصيد على متن تلك القوارب التي تشقّ مياه المستنقعات، وزار العديد من بيوت الفلاحين.

غادرت الفتاتان المكان، بينما ظلّت المرأة العارية في مكانها، تشرئب فاتنة، متفرّدة، لا مبالية، تضطهد مَن حولها بشعاع جمالها، فيما تنداح حولها الفسحات المتدرّجة للحديقة التي تميّزها رومانسية العزلة الأشبه بعزلة الأديرة النائية، والقصور المغلقة، وسِحر الذرى المرتفعة..

22

دادا وفهرية

تعرف دادا أن الحبَّ أمر يمكن للمرء أن يموت من أجله، كما يمكن أن يَقتل أيضًا، بسببه.

«قد لا نختار الأقدار التي تواجهنا، لكننا قطعًا يمكننا اختيار طريقة تعاملنا معها».

قالت دادا لفهرية بنبرة غاضبة وهي تجلس على حافة السرير الأبنوسي العريض الذي تمدّدت عليه فهرية لأيام عقب إخراجها من ماء النهر. وقد اختارت كلماتها من قاموس أمها الزيبق.

فهمت دادا، الذكية والخطيرة في آن، كل ما يجري بين أروقة قصر منجوك. التقطت سرّ تلك النظرة الشاردة في عينيّ فهرية، كما لو أنها تنظر إلى شيءٍ غامض في الفضاء البعيد. غدت تعرف أسرار وماضي هذا القصر. فهمت أن زوجها عوني، مكسور الفؤاد بسبب فهرية التي لم تعِره انتباهها، واختارت كيوان المسيطر والمتنفّذ الحقيقي في كل شيء.

قرّرت دادا منذ فترة أن تتقرَّب من فهرية. فهي وحدها من بين سكان القصر يمكن أن تكون صديقتها، بل ترى فيها نموذجًا مرِحًا وودودًا تعرّضت لظلم جعلها كئيبة على غير طبيعتها.

وفهرية، من جهتها، انجذبت منذ البداية إلى «دادا». أدهشتها تلك الشخصية التي بقدر ما تبدو لاهية عابثة، فإنها قوية وقادرة وتمتلك معرفة مدهشة حول الحياة. أثارتها حكاية ذلك

الوجه الشاحب للمرأة الشقراء في الأفيش المعلّق على جدار غرفة دادا. ناداها ذلك السحر.

المرّة الوحيدة التي سمح لها فيها كيوان بمشاهدة فيلم لشارلي شابلن كان في سينما كوزموغراف قرب مطعم العندليب، حيث تناولت العائلة غداءها بمناسبة زواج أحد الأقارب في حلب. سمعت الكثير من ثرثرات عوني قبل أن يغادر إلى أمريكا، فقد كان يذهب برفقة سيزار الفايز لمشاهدة أفلامٍ مليئة بالنساء الشقراوات في سينما «لوكس» الحلبية.

كان حزن عميق يغمر قلب فهرية. لم تحظ بفرصة دادا في زيارة أشهر مدن العالم مع طليقها الطبيب، ولا في مرافقة عوني إلى أوروبّا. ولم تشاهد العديد من أفلام السينما وترى سحر رودولف فالنتينو وهو يأخذ دور الشيخ العربي. حكت لها تلك المرأة التي تعشق اللون الأصفر، بدهشة وهمس عن جسده وفتنة ذراعيه، وعن هيجان حركاته وهو يلامس حبيباته، والشغف المتدفّق من عينيه مع ذلك البريق الغامض الذي يومض برغبة جسده. حدّثتها عن سحر صالة السينما وعن تنهّدات النساء وهن يحلمن بجسد فالنتينو. حكت لها عن الممثلة الألمانية الشاحبة «مارلين ديتريش»، وعن هيبة نظرتها وسكينتها المخادعة ودلالها الفتّاك. وعن «لولا» التي تغنّي «إني مخلوقة لأجل الحبّ، من رأسي حتى قدميَّ». شرحت لها دادا كل ذلك مع تمثيل لبعض ما تشرحه: خاصّة حركات فالنتينو وهياجه وهي تلمس جسد فهرية كما

يلمس فالنتينو حبيباته. وترفع بدورها فستانها عن سيقانها المشدودة السمراء وتخفض رأسها وتلوي عنقها بغنج، وتقلّد «لولا» وهي تدسّ القيثارة بين ساقيها الصاخبتين وتعزف وتدندن بما يجول في رأسها بحرية لا مثيل لها.

كيف لفهرية أن تفهم ما تحكيه السمراء الشامخة الممتلئة القوام، المشعّة بالحرية، ذات الثغر الباسم والمستهزئ، التي لا تتردّد في أن تنظر مباشرة في أعين محدّثها كائنًا من كان!؟ السمراء التي تغني لمنيرة المهدية «الحب دح دح»، وتستطيع أيضًا أن تردّد ما تشدو به امرأة شقراء في فيلم سينما أمريكي؟!

سمحت لها دادا أن تتفحّص كل ما حوته حقائبها المبطنة بالساتان والتي نقش عليها أحرف اسمها بالخيط الذهبي. وتتفحّص الأمشاط ذات المقابض العاجية التي تحمل فراشي الشعر المصنوعة من شعر الخنزير وكانت سببًا لشجار عنيف بينها وبين فريدة خانم.

كانت دادا هي الوحيدة التي اعترفت لها فهرية بحقيقة حادثة النهر. فبعد أن عبّرت دادا عن غضبها منها وهي تجلس إلى جانبها على السرير، أخبرتها أنها لم ترمِ نفسها، بل وقعت عن ظهر فرسها بينما كانت تعبر النهير الفاصل بين مزرعة القمريين ورياض تلّة عشيرة وانجرفت. وأنها وجدت في اعتقادهم فرصة لعدم التحقيق معها عن المكان الذي كانت فيه. ضحكت دادا مستمتعةً بذلك التواطؤ الأنثوي بين المرأتين. كما أفرحها قرار فهرية بالتمرّد.

غدت دادا تستقبل فهرية لفترات أطول. وتخرج معها في نزهات أطول. وذلك لم يكن مريحًا لأحد من بقية أفراد العائلة. وكانت بدرية هي الأكثر انزعاجًا. عبّرت عن ذلك مرارًا وهي تراقب المرأتين تحضّران أطباقًا غريبة في المطبخ. وعندما يأتي الضيوف في العطلات، تظهر فهرية وهي ترتدي بعض أغراض دادا، كالقفازات أو الساعات أو الشالات أو الأحذية. ولم يكن عوني مرتاحًا من تقرّب زوجته السوريالية والجريئة من فهرية التي صارت تخالط ملامحها تلك الابتسامة الفرحة كابتسامة المنتصرين. فهو رغم كل ما حدث، تتملّكه مشاعر عميقة تجاهها. يكرهها ويحبّها، ينفر منها ويشتهيها.

صارت فهرية أكثر جرأة على محادثة الضيوف، لم تتوانَ عن مرافقة الخدم لتقديم المشاريب بنفسها للرجال والنساء على حدّ سواء. ثمة وميض تحدٍ في نظرتها. غدت ماكرة على نحو ما، الم يبدُ عليها أي خوف عقب حادثة الانتحار بل ازدادت مرَحًا وفتنة. ذلك المرَح وتلك الفتنة أربكا كيوان أيضاً وأثارا حنقه. لم يخفَ عليه أنها فتنة البشر الذين يحملون أسرارًا خطيرة. كان متأكّدًا أنها تخبئ أشياء عنه. لم تعد تنظر إليه، وعندما حاول منعها من مرافقة الخدم لتقديم المشروبات، صرخت بوجهه ورمت الصينية من يدها لتحدث ضجة وتلفت انتباه أهل القصر إلى كيوان الذي لحق بها. ولكنها لم تذهب إلى حيث كان يتوقّع، بل قصدت غرفة دادا. صدمته. لم تعد تريده. أفهمته ذلك بوضوح. كسرت كبرياءه. لم

يعد كيوان المقدّس لديها. نهرته وهي تقول: «اذهب إليها وإلى نسائك، لا أريدك!». كان كلامها قاطعًا بحيث أذهلته في نبرتها التي جعلته يشعر أنها جادة ولن تتراجع.

أما عوني، فهو يعلم مسبَقًا نفور فهرية منه. ولا يزال أثر تلك الصفعة التي تلقاها منها قبل سنوات يحرقه كلما تذكّرها.. صفعة كانت السبب المباشر في تقديم قرار السفر ودفعه للسفر إلى أبعد نقطة في العالم. اختار أمريكا البعيدة ليهرب من أثر تلك الإهانة، فلا يعود إلى قصر منجوك. وها هو اليوم يعود، فقط لينتقم من فهرية ومن كيوان عن طريق دادا، فهو يعرف أن شخصية مثل دادا ستجعل فهرية التي كانت تعتبر نفسها سيدة قوية، تبدو غبية وضعيفة أمام هكذا امرأة. فيكون بذلك قد انتصر على فهرية بأن تزوج مَن هي أعلى منها في مراتب قوة النساء. ويعرف أن دادا ستُدخل أشياء تقلق حياة قصر منجوك. ستكسر قوانين كيوان في القصر وتشريعات فريدة خانم أفندي. ستتحدّى شقيقه المتسلّط ولن يستطيع كسرها، بل سينكسر هو ويتراجع أمامها.

لكن ما لم يتوقّعه قط هو ذلك التقارب الشديد بين المرأتين: دادا وفهرية.

راقب كيوان كل شيء على عادته، بصمت وذكاء. وحرص على متابعة الأخبار التي ينقلها له وكيله من خلال العاملين في منجوك وبساتينه.. انتبه إلى أن فهرية لم تعد تنظر إلى أحد من أهل القصر. ما عاد يهمها سوى «دادا». رفضت

ملاقاته في السلاملك بشكل قاطع وصريح. حدث ذلك قبل عدة أيام من حادثة النهر. لم يكن ليصدق أن فهرية المستسلمة يمكنها أن تتمرّد عليه أو تتحرّر منه. لكن فهرية التي اعتادها مطيعة بين ذراعيه صارت تواجهه بالرفض!

شعر بأنها مواجهة، وأنه لا بد له من خوض معركة تكسر ما تمثّله دادا، لفهرية. كان يمتلك جهازًا استخباراتيًّا أخطبوطيًّا، سواء في قصره ومزارعه، أو في أنطاكية حيث تربطه علاقات مع تجار وضباط. ولم يكن صعبًا عليه أن يكوّن المعرفة التي يحتاجها عن «دادا»، فهو يعرف أمها معرفة جيّدة.

فمن يجهل الزنبق؟ كان يعرفها من خلال بناتها الشهيرات. صار يعرف الآن أنها دخلت السجن بسبب تهريب السلاح، وأنه بعد مقتل زوجها ألقي القبض عليها، وولدت عدوية في السجن، وخرجت بعد سنتين لتبدأ حياتها الجديدة مغنّيةَ أعراس. وهكذا انتقلت إلى مهنتها الجديدة، فرقصت وغنّت على إيقاع الموسيقى العربية والتركية واليونانية، متنقلة بين أزمير وسالونيك وأنطاكية وحلب. ورقصت على إيقاع عازفين مشهورين ومغنيات معروفات، مثل ماريكا نينو وستيلا حاسقيل، إلى أن تعرّفت على صاحب مطعم مالطي عجوز رآها في أحد الأعراس ترقص رقصة الزيبق، فصاح وهو مفتون بقامتها الهيفاء وقدّها الميّاس: «الزنبق يرقص الزيبق». وفي الليلة نفسها عرض عليها الزواج. وافقت على عرضه بعد أن غدت تعلم أن الرجال الشبان

الوسيمين يؤلمون ويكسرون قلوب النساء، بينما الشيوخ والعجائز يحقّقون لهنّ بعض أحلامهنّ ولا ينحصر همّهم بالجسد.

تزوَّجها المالطي «زيغول»، ومنحها اسمه والأوراق الثبوتية والمعمودية الرسمية التي تحميها لتعيش كإفرنجية ومسيحية، وتستثمر كل العلاقات التي أنشأتها في السجن مع الضباط الذين كانوا يُخرجونها ليلًا مع سجينات شابات لُفقت لبعض منهنّ التّهم عن عمد، لأجل استثمار أجسادهنّ في العمل في مواخير المدينة. خرجت بعد انقضاء سنتين في السجن وقد عرفت الوجه الحقيقي للعالم.

لقد تخرّجت الزنبق من مدرسة الشيطان.

رغم أن كيوان قرأ خطر قرب فهرية من دادا التي تتميّز بأخطر صفة يمكن أن تحملها امرأة: الاستقلالية. رأى أن يصبر قليلًا بشأن رفض فهرية له وتمرّدها عليه. يعلم أن ثمة فرقًا بين النسيان والتجاهل. يكون النسيان أصيلًا عندما يحدث على نحوٍ تلقائيّ وليس قسرًا، لكن التجاهل هو تلك المسافة التي نتعمّد أن نُظهرها تجاه الشخص المقصود.. لم يكن مقتنعًا بأنه يمكن أن يكون شيئًا مهمَلًا أو ماضيًا لفهرية التي طالما عرفها كما يعرف نفسه.

23

فهرية تكتشف روعة أن تكون معشوقة

يستلّ كيوان علبة السجائر من جيبه ويشيح ببصره عن الجميع. لا يريد رؤية أحد. يحضر المشهد نفسه إلى رأسه: عينا فهرية الساخطتان وهي تسحب أصابعها من أصابعه. تمرّدت عليه تلك اليد، فحاول استعادتها، لمسها بشفتيه، لكنها ظلّت باردة وقاسية. بدأت تفقد شيئًا من حيائها. ترفع رأسها صوبه بتحدٍّ، لتفهمه أنه لم يعد يبعث فيها الخوف. أخافه ذلك الانشراح الحقيقي الذي بات يلمحه في حدقتيها السوداوين، انشراح مَنْ تخلّص من عبء.

فسّر كيوان انجذاب ابنة عمه إلى دادا، بكونها من كريمات النسب. نساء تربّين على الهشاشة والجفول. وادعات، مطيعات، هانئات، متعاليات لا يتصوَّرنّ وجود نساء مثل دادا وأمها الزنبق ومثيلاتهما، ولذلك أصابها الفضول لمعرفة هذه الطينة المختلفة.

في البداية اتخذ موقف الحياد إزاء المشاحنات بين فريدة خانم ودادا، وأدهشه أنها بقيت رغم قسوة لهجة الخانم الأم ضمن حدود التهذيب في ردودها. وهذا ما كان يحيّره في دادا، فهي قوية لها سيماء المنتصرين كيفما تحرّكت من دون أن تكون سفيهة أو دنيئة.

انحازت بدرية من دون أدنى تردّد إلى صفّ أمّها. فأمها ترسم لها حياتها. تُهدّئ غضبها من

تصرّفات كيوان وإهماله لها، بقولها إنه على الرغم من كل ما تراه تبقى هي الأكثر أهمية، فهي أم ولدَيه. وعوني لن ينجب من هذه اللعبة التي اشتراها. هي لعبة مثل لعبها التي حملتها معها وتضعها في كل مكان. بل إن عوني لم يتزوّج، فهذه ليست زوجة، وأصلًا لا يمكنها أن تعيش طويلًا هنا، وهو سيملّ منها.

تقول لها:

«مستقبل هذا المكان لكِ لأنه لأولادك، فما من وريث لوالدك وعمّك معًا غير أولادك».

وعندما تعبّر بدرية عن ألمها من غزوات زوجها النسائية تطلب منها الصبر، فهو أيضًا سيملّ.

«يكفي أن تنظري كيف يملّ منهنّ واحدة بعد الأخرى»، وأرادت أن تكمل: «وفهرية آخرهنّ، وها هي حكايتهما انتهت»، لكنها تردّدت وصمتت.

أما فهرية فما عاد يهمها شيء من كلام أمها التي اعتادت أن تتكلّم مع ابنتَيها عن الصبر في كل مرة. «اصبري يا فهرية فأنت ابنة منجوك أكبر باشوات المنطقة، وأفضل الشباب يتمنّون التقرّب منك... اصبري...»، تقول الأم ذلك وتكرّره وهي تعلم أن كيوان يمنع أي أحد من التقرّب منها أو السعي إلى خطوبتها. فهي عندما تزوّج كيوان من أختها قاطعته لفترة، حانقةً، لكن لا الغضب ولا الصبر نفعاها، فاستسلمت وصارت لعبة بيد كيوان. وعندما رأت الطراز الجديد: «دادا، صانعة الدمى،»، قلّدتها. تعلمت الكثير منها، أُعجبت بها وبجرأتها وعنفوانها الرهيبين. لولا دادا وكلماتها

المشجّعة لما تجرّأت قط على موافاة سيزار الفايز إلى عرزاله.

ضحكا طويلًا، فهرية وسيزار. تبادلا قبلات طويلة ونهمة، وهي تخبره كيف وقعت عن فرسها بينما هي تعبر المجرى الذي يفصل مزرعة القمريين عن منجوك، وصمتت على اعتقادهم بمحاولة انتحارها؟

كيف ترمي بنفسها في الماء وهي تعيش هذا الحبّ؟ تلذّذت برؤية الرعب ممزوجًا بالدهشة في عيون ولدَيْ عمها لم يكن أمامها من تفسير إلا أن تردّد: «أريد أن أموت». أنقذتها تلك الخدعة. لا تريد لأحد أن يفطن إلى أنها كانت عائدة من مزرعة القمريين.

تضحك وهي تخبره عما تفعله دادا. عن الصور الفاضحة في بوسترات الأفلام السينمائية المعلّقة بالغرفة. عن طريقة رقصها وجرأتها. عن الهلع الذي تزرعه دادا في قلب والدتها فريدة خانم.

بوجود دادا، لا يسعهم جميعًا إلا الاعتراف بأن الضجر طار بعيدًا عن قصر منجوك. سقطت عليهم تلك المرأة اللعوب من سماء مجهولة.

سكتت الأم وكيوان عقب محاولة فهرية رمي نفسها في النهر. تمّ التغاضي عن تبدّلاتها نوعًا ما، وحتى عن سؤالها عن سبب غياباتها المتكرّرة في أوقات مختلفة.

لم تعد تشغل بالهم تلك النزهات التي تترافق فيها دادا وفهرية، بمفردهما.

كلما مرّت دادا قرب سيارة «الدودج» التي اعتاد

كيوان ركنها أمام بوابة القصر. وبجانبها سيارة الفورد التي تعود إلى عوني، تقول لفهرية: «سأقود السيارة قريبًا». تبتسم فهريّة وتقول: «سنذهب معًا إلى السينما في أول يوم تقودين سيارتك».

غدت فهرية تستيقظ في أوقات متأخّرة، من النهار.

استرق عوني السمع عدّة مرّات، بينما تكون الاثنتان في غرفة دادا حيث تفوح دائمًا رائحة المخمل والحرير والشموع المعطّرة وعبير الزهور:

«هذا يلائم مقاسك».

«قبّة جميلة، وجوارب حريرية..».

«دمية أوتاتاني.. يابانية، وتعني «الإغفاءة القصيرة».

«آه.. كم هي جميلة».

«هذه من إيطاليا اسمها «هالكين»، وهذه الدمية من ألمانيا واسمها «هانزوست»».

يعرف عوني جيدًا لسان دادا المتبّل بالمكر والدهاء. المرأة التي جمعت دمى من الطين والعظام والحجر والبورسلين والخشب والقماش. كانت أذكى من أن تسمح لأحد أن يسمعها وهي تدفع فهرية لتراجع تصوّرها عن نفسها وعمّن حولها.

صارت العفريتة دادا تعرف عن أهل منجوك أكثر مما يعرفون. تعرف أن بدرية تبتسم وتضحك بصوتٍ عالٍ على نحو متكرّر ولأسباب تافهة غالب

الأحيان، كما كل المقهورين والحزانى. بينما فهرية تستغرق في نوم عميق ولساعات طويلة كما كلّ المجروحين الذين رقّموا جراحهم ورموا آلامهم خلفهم. أما عوني فإنّه يأكل كثيرًا ويمزح أكثر، ليخفي توتّره ومآربه الخفية. بينما يصمت كيوان ويتجنّب الخوض في المجادلات، فهو دائمًا مصيب وعلى حق ولا يحتمل أن يرضخ لأحد.

«يجب أن نكون في هذه الحياة أقوياء ونُفهِم مَنْ حولنا أننا لسنا ملكًا لهم ولن نكون طريدتهم». تقول دادا لفهرية.

في آخر مرة حمل فيها سيزار فهريته، وعرّاها، مازحها، وضحكا كثيراً. وهما ممدّدان عاريين، همس: «انظري إلى السماء. كلما رأيت كوكباً مشعّاً، أراكِ فيه. وكلما رأيت زهرة نادرةً أتذكّركِ».

لم يسبق لفهرية أن سمعت كلامًا من عاشق. رمت نفسها في البداية بأحضان سيزار انتقامًا من كيوان. لكنها اكتشفت أنّ هناك عاشقًا ينتظرها لينظر في عينيها، يتأمّل جسدها بشغفٍ، يلاعبه قبل أن يندفع فيه. عرفت معنى أن تكون كائنًا معشوقاً، وأن ينتظرك العاشق بلهفة مهما تأخّرت. ما من مرّة ذهبت إلى ملاقاة كيوان في دارة السلاملك ووجدته ينتظرها. تصل دائماً قبله وتنتظره، انتظار قد يصل لساعات أحيانًا. الانتظار بين العشاق هو إذلال لمن ينتظر.

عثرت على نفسها بين ذراعي سيزار. عرفت أن كيوان ضيّعها، باستهتاره وإهماله لها. لم يعد يكترث بتعريتها، ولا بتقبيلها على ثغرها، غدا يندفع صوبها على عجل وبقسوة، ومن دون

تلك الكلمات المثيرة التي تجعل جسدها معطاءً مستمتعًا. بالمقابل عامل سيزار جسدها برقّة أدهشتها، كما لو أن جسدها فراشة يحتار من أين يمسكها من دون أن يتلفها.. لا يكذب الجسد أبدًا، في حين قد تفعل ذلك عقولنا وقلوبنا لخاطر الكبرياء. اتّبعت جسدها، كان على صواب وهو يتفجّر بين يدي سيزار، الذي رمت نفسها في مياهه القمرية، لتنتقم من كيوان الشمسي الحارق، اليابس بقسوة خشب الجوز الذي يتاجر به ويبيعه للروس ليصنعوا منه أعقاب البنادق. نعم غدا كيوان أقسى من عقب بندقية. وهي لم تعد تجذبها تلك القساوة.

عرفت مذاقًا جديدًا للحب والنشوة واللذة مع ابن سلالة القمر. ولجت العوالم السرّية لهذا اللغز الحميم: «الحبّ»، الذي تحتفظ به الحياة لنفسها لتصون سلطتها على بني البشر، فللأسرار والغموض سطوة تلك الأشياء المتغطرسة التي لا تُفسَّر. «آه! أيّ شعورٍ هذا! ما أجمل أن تكون محبوبًا، وما أروع أن تكون معشوقًا»، كانت تقول لنفسها وهي تعِدّ نفسها لملاقاة سيزار. تجد عاشقًا ينتظرها وقد أعدّ لها ما تشتهي من الكلمات. تتنهّد وهي تنظر في عينيه بينما يُسمِعها كل يوم حكاية عن انتظاره لها وعن شغفه بتلك الفتاة التي بقيت رائحة عنقها تفعم أنفه. ولم يُخفِ حكاية تلك المرأة الرائعة «سونينو». التي علّمته كل شيء. وكيف أنه يتمنى لو بإمكانه أن يُنتج نبيذًا يسمّيه «فهرية».

«كم أتمنى لو يأتي ذلك اليوم»، قال.

ضحكت واحتضنته.

سمعت من سيزار كلمات جديدة لها معانٍ مدهشة. عرفت معنى أن يحتفي رجلٌ بحضورها. حدّثها عن انتظاره لسماع وقع حوافر فرسها ليحملها من خصرها ويتشمّم رائحة رقبتها.

حوّل سيزار انتقام فهرية من كيوان إلى متعة قلبت حياتها. كم غضبت بصمت، وكم بكت عندما أهملها كيوان الذي انشغل بروزا، ذلك الجسد الأكثر فتوّة. في تلك اللحظة، بينما تستمع لكلماته كموسيقى كونية، قرّرت فهرية أن يكون انتقامها مدوّيًا. هي، فهرية «المحبوبة» ابنة عائلة منجوك، المسلمة، سليلة الباشوات، وحفيدة جنية الشمس، أبلغت سيزار، ابن الفلاحين، البحّار، والسجين السابق، المسيحي، صانع الخمرة.. ابن القمر، أنها ستهرب معه.

24

الظبية في المشهد الأخير

لا أحد يستطيع أن ينزع من الموت رهبته، فكيف إذا تعلّق الأمر بامرأة شابة، جميلة، انتشلت ميتة للتو من مجرى النهر الهادر.

انشغل الصبية بالنظر عن بعد، إلى المسدس الصغير ذي المقبض الفضّي الذي ظلّ معلقًا ببيته الجلدي المثبت بإحكام بزنار يحيط بخاصرة الخانم. بينما تعلّق بصر الفتيات بثيابها الفاخرة المثقلة بالماء: فستانها المخمل الأسود، ياقة الفراء المتدلية أطرافها على الجهتين، جزمتها المزيَّنة بالمشابك الذهبية مع نقش لغزال ذهبي لامع أعلى الجزمة، التي تتجاوز الكاحل من دون أن تصل إلى الركبتين.

وصلت إلى ذلك المكان الرطب والموحل تحت أشجار الدلب، «مريم الهدهدية» التي يثق بها الفلاحون وبقدراتها. صمتت باستسلام حزين، وهي تقترب من الجثة. فهي تطبّب الأحياء وليس الأموات!

تمازج صوت رنين أجراس الماعز القريبة مع الأصوات المختلفة للغط المجتمعين حول المكان، واستيقظت رائحة ندية لطحالب الضفاف، وانبعث ضوء الشمس من فرجات ضيقة بين الغيوم الداكنة. أخرجت الهدهدية منديلًا من جيبها ومسحت قشرة من الدم متخثّرة ويابسة فوق الشفة العليا للمرأة الميتة.

استمر اللغط وسُمع وقع المزيد من خطوات

الأطفال والنساء. يستحثّ الأطفال بعضهم بعضًا بكلمة واحدة: اركض.. اركض. من خشي على حذائه من الطين، خلعه وعلّقه حول رقبته وركض صوب النهر حيث جثة الخانم الغريقة.

وضعت بضع فتيات سلالهنّ المليئة بالحلازين التي جمعنها منذ الصباح الباكر ورحن يتبادلن كلمات مختصرة:

«أمان يا ربي أمان».

«غرقت؟».

«لا. رمت بنفسها!».

«أمان يا ربي أمان».

«أترمي نفسها مرّة أخرى؟».

«واضح أنها تريد أن تموت؟».

طفل صغير بثياب مهترئة وشعر متّسخ، قال بصوت مشاغب: «كيف خانم؟ وتموت؟».

كمّمت فمه فتاة حافية القدمين، بدت أكبر منه بقليل. عادي جدًا أن يندهش هؤلاء الفقراء من سيدة ثرية ترمي نفسها في النهر لأنّ هنالك ما يحزنها! ما الذي يُحزن امرأة تعيش في القصر!!؟

لم تكترث الهدهدية لأي ثرثرة من التي يهذر بها جمعٌ لا يعرف شيئًا عن الحقيقة. بأصابع متردّدة، تلمّست الأجفان المتورّمة والمحتقنة بدماء لم تنزف. قالت لنفسها: «الحقيقة واحدة والخطايا كثيرة». وراحت تعدل من خصلات شعر جعداء كستنائية مشوبة بالشقرة، فلتت من الجدائل المعقودة إلى الخلف.

ستُدفن الخانم في ذلك المساء. ستُدفن معها ذكرياتها المؤلمة والجميلة، رغم أن الماضي شيء مستحيل دفنه.

قال ابن المختار الغرّ، الذي وقف خلف الداية، وهو يتمعّن بتفاصيل المرأة الميتة: «يا ألله انظروا إلى أصابعها». انتبهت الهدهدية أن يدها اليسرى لم تزل محشوة بالقفاز الشامواه الأسود وقد انفرطت حبّات اللآلئ من أعلاها، حيث يثبّت حول الرسغ بإبزيم ذهبيّ وَمَضَ كشيء حيّ على الجسد الميت. بينما كانت يدها اليمنى حرّة ومرتخية شاحبة، مفاصلها مزرقّة وأطراف الأصابع بلون الشمع.

انقطع سيل الهواجس والأفكار في رأس الهدهدية عندما انسابت همهمة بين الجمع وهم يتراجعون إلى الوراء.

كل الأصوات تردّد: «البيك».

«وصل البيك»..

***

بدا مطر الليلة الفائتة أشبه بنشيد لا يتوقّف. اختبأت الثعالب والسناجب والطير والنسر... وحدها الغيوم حضرت بدكنتها الشتوية. كل شيء كان مشوَّشًا: السماء والغابات والمستنقعات وأجمات القصب والبساتين التي عرّاها الشتاء. كان نهر العاصي يهدر شرسًا كوحش مستمتعًا بالمطر.

«رمت نفسها في الماء مرة أخرى!؟». عقدت الدهشة ألسن الجميع. لماذا تلك المرأة ذات الشامة الواحدة تحت عينها، التي تمنحها جمالًا

إضافيًّا، تصرّ على الموت؟

لولا ذلك الفَجّ العميق حيث تتفجّر المياه متّجهة صوب نهر العاصي، لما عُثِرَ على جثة فهرية خانم أفندي.

لم يبق بها رمق من روح عندما نجحوا بإخراجها. انتشلوها جثة زرقاء باردة. أُعلن الحداد رسميًّا، على فهرية. رمت بنفسها مرّة أخرى في ماء الفَجّ الهادر؟! هل أقدمت على ذلك ليلًا حتى لا ينقذها أحد؟!

يُسمع خرير الجداول عن بعد، تصمت الهدهدية وتغادر وسيجارتها في فمها. تريد أن تنسى السرّ الذي باحت به النجوم المعلّقة في السماء. المعرفة فخ..

امتدت سحب ثقيلة في ذلك الصباح، وطفح الضباب الكثيف من الوهاد القريبة من سفوح الجبال. تجلس زوجة المختار، وهي تلضم إبرتها بقلنسوة الحرير السوداء التي تحيط بقمة رأسها، ومنها تتدلّى شراريب غامقة غير مشذَّبة.

تسألها روزا:

«لماذا هذه المرأة التي تتمتّع بكل ما نحلم به، تصرّ على أن تنهي حياتها بيدها؟». ما الذي يدفع سيدة مثلها إلى أن تنهي حياتها؟».

تردّ أمها بصوت الخبير والعارف:

«تفعل ذلك عندما يعجز النوم عن شفائها، وعندما تصبح المشاعر لا تُحتمَل».

فهمت الفتاة أن أمها تلمّح إلى شيء يتهامس

به أهل القرية سرًّا.

تابعت الأم:

- «يمكن للرجال فعل ما يريدون. يستمدّون السلطة من شواربهم ولحاهم، أما نحن بنات حواء، لنا الله».

ارتدى المختار والمطران والملّا ووجهاء القرى المجاورة قفاطينهم الصوفية النظيفة التي لا يرتدونها إلا في المناسبات قبل المغيب. تجمّعوا تحت شجرة الجوز أمام بيت المختار أبو طنوس. وصل وكيل أملاك منجوك وهو يمضغ سيجارة يضعها في زاوية فمه، ثم راح ينقّلها بين زاويةٍ وأخرى. ساد لغط القرويين الرتيب، وهم ينتظرون مخاتير بعض الضياع القريبة، وكل أولئك الذين يستطيعون ارتداء جببٍ وقنابيز من الصوف والحرير النظيف. تناهى صرير عجلات عربات المعزّين بينما فاحت رائحة الدريس الممضوغ المنبعثة من مناخير الدواب التي يمتطيها الفلاحون.

انداحت سماء صافية، وحلّق النسر فوق برج الأختين الذي يلوح في الأفق كطير جارح رابض هناك منذ الأزل.

استقبل كيوان بيك وجوه المخاتير الطافحة بالاهتمام المبالغ به. تلقى تعازيهم من دون أن يتخلّى عن نبرته المقتضبة المعتادة. بينما وقف إلى جواره، شقيقه الذي اكتسى وجهه بملامح ذاهلة، ينطق كلمات الواجب الرسمية بصوت ممطوط سئم، ويرفع حاجبيه عاليًا كلما صافح ضيفًا جديدًا من وجهاء الضياع والقرى.

عقب دفن فهرية، رافقت فريدة خانم ابنتها بدرية التي كانت في آخر شهور حملها الثالث، إلى أنطاكية، ومعهما الصبيان الصغيران، هربت من شؤم موت أحد التوائم. خشيت على حياة بدرية. بينما غابت دادا عن مراسم الدفن لأنها كانت قد غادرت قبل أيام إلى أزمير لحضور حفل زفاف لصديقة من أيام الطفولة.

***

خرجت فهرية من الحكاية. خرجت كبطلة مسرحية إغريقية، كما لو أن حكايتها سبق وأن رُويت ومُثّلت على أحد مسارح أنطاكية قبل أكثر من ألفي عام. يمكن لجان الغابات تذكّر وجوه ممثلي التراجيديا وهم يلوّنون وجوههم برواسب النبيذ وطمي نهر العاصي. وينشدون تراجيديا «فهرية»:

ها هي فهرية قد انصرفت، ماتت، رحلت، وجسَّدت انتصارًا لتيخا، التي جعلت العاصي يُنهي مسيرة الحب والاشتهاء.

وها هي مرة أخرى تتحوّل حياة سيزار إلى «دراما»؟!

للأمكنة ذاكرتها. سيأتي وقت تذكّرنا بماضيها على طريقتها، أو تخاطبنا بلغة منسية، أو حدث حاسم يُعاد تدويره، فتتشابه الحكايات لتحمل المغزى الواحد.

فهرية!! إنها الأشبه بنجمة الصبح التي اقتتل عليها القمريون والشمسيون في مسرحية لوقيانوس السميساطي الذي صعد نجمه هنا بالذات في أنطاكية. وهنا على مسرح أنطاكية

مُثّلت مسرحيته الساخرة التي منحها اسمًا غريبًا: «مسرحية حقيقية».

أعاد التاريخ نفسه وهو يقذف بسيزار بين الملّاحين أبطال «مسرحية حقيقية». أبحروا في الأطلسي، ثم هبّت عاصفة عاتية ولّدت إعصارًا حمل السفينة بملّاحيها ورماهم على سطح القمر. وهناك وجدوا القمريين في معركة مع الشمسيين على ملكية نجمة الصبح، التي تظهر على شكل امرأة!

يرغب العالم بالأنوثة. كم من القصص والملاحم والروايات والأشعار كتبت وأنشدت ليتعلّم البشر تقدير الأنوثة. الأنوثة جمال، ولا يكون الجمال جمالًا إذا لم يجد مَن يشعر ويتمتّع به.

يتصارع الشمسيون والقمريون. لكنهم يتّفقون على أن تبقى نجمة الصبح أرضًا محايدة، لا يمتلكها أحد. لقد أخطأ الأرضيون حين أراد ثلاثة رجال احتلال نجمة واحدة. سيزار وعوني وكيوان، تصارعوا لأجل احتلالها. فلم ينتصر أحد، رفرفت الهزيمة بأجنحتها الساقّة فوق الرجال الثلاثة.

هزمتهم «تيخا» مرّة أخرى، كما حدث وأن لوت عنق نهر العاصي المتعجرف من دون رحمة. أهانتهم، وأذلّتهم. حرمتهم من نجمة الصبح. هكذا تفعل الربّات مع الجمال حين يتسبّب بالحرب. إنه الغياب، سلاح العشق الأخير.. به يبقى خالدًا.

يسهر سيزار الفايز وحده على شرفة مزرعته تحت أنظار باخوس ملك الكروم والخمرة. أي مشروب سيمنحه النسيان الآن؟ تحت ضوء القمر

الكامل، اتفق مع فهرية على موعد للهرب. لم تأت في ذلك الفجر، وبلغه ظهرًا، نبأ انتحارها. لماذا؟ هنالك قطبة مخفية. لن يستطيع أن يسألها، ولن يستطيع أن يتحمّل ذاكرة هذا المكان.

سيرحل سيزار القمريّ، سينحاز للماء، ويعقد حلفًا جديدًا لأجل النسيان. سيغادر أنطاكية وملوكها الخفيين اللعوبين الذين تسلَّوا بعواطفه ولعبوا بقدَره من دون شفقة.

عاد من منفاه ومعه خبرة صانع النبيذ، وخبرة الحب من إنجيل دونا غلوريا سونينو. أنقذه الإنجيل يومًا عندما تكرّمت ابنة كونت معروفة بأعمالها الخيرية، وقامت بتوزيع نسخٍ من الإنجيل على المنفيين الذين كانوا في غالبيتهم مسلمين. علمت أنه مسيحي، وتغيّر كل شيء، وهي تستمع إلى قصّته، وتأخذه عندها ليخدمها في كرومها ويساعدها في تقطير النبيذ.

أخبرته دونا سونينو أن الصحّة الجيّدة تكون بتوازن النار والماء في أجسادنا.

ها هو يفقد هذا التوازن. أكلته النار. يضرب الحزن كل شيء وتمد حوريات الندم برؤوسها وتحمله على أجنحتها الشبحية في سماء النادمين.

25

خسوف القمر

«إنه سرٌّ خطير، لا يجب أن يعرف به أحد». قالت روزا بصوتٍ مرتعش وهي تخبر فجر بأنها مغرَمة.وأنها تحبّه، ذلك الرجل الشاحب، البيك القاسي كيوان أرشدان.

كانت فجر هي الأقرب والتي تضمن روزا أنها ستحفظ سرّها. أخبرتها أنها تعلّقت بالبيك عندما أرسلها أبوها إلى منجوك خلال الصيف الماضي لتعليم اللغة الفرنسية لولدَي البيك الصغيرين. كان كيوان قد طلب من المختار هذا الطلب. وبعد أسبوع طلب منها تعليمهما في دار السلاملك.

بدرية وفهرية، اللتان تعرفان كيوان، عرفتا الهدف من قراره. وأخفت روزا ذلك عن أهلها الذين اعتقدوا أنها تعطي الدروس للولدين في القصر وبين نسائه.

كان صبحًا أشبه بيومٍ ربيعيّ بسماء داكنة الزرقة، وقد بدت القمم الثلجية الساطعة البياض لجبال الأمانوس قريبة لامعة بعد المطر، حين انطلقت فجر مع صديقتها روزا وبضع عائلات مسيحية من القرية، تضمّ شابات وشبان بعمر الزواج، في زيارة للتبرّك إلى مغارة مفتوقة في أعضاد جبل ستوريس. إنها مغارة القديس بطرس، تجري المياه من بعض جدرانها. كانت زيارتها ممنوعة إلا في أوقات يحدّدها الآباء الكبوشيون، ومنها ذلك اليوم الذي كان بداية الصوم الكبير.

كانت روزا قد حدّثت فجر عن خدمة تريدها منها

عند ذهابهما إلى المغارة المقدّسة. شعرت فجر بأنّ صديقتها ستطلب منها شيئًا كبيرًا بسبب التوتّر الذي كان يظهر في صوت روزا وقسمات وجهها. ولم يكن أمام فجر إلا أن توافق صديقتها التي وقفت إلى جانبها في أوقات صعبة، وتدخّلت بقوة لصالحها يوم ظهر صاحب البيت... والآن عليها أن تردّ الجميل، وإن كانت لا تعرف كيف!!

من طقوس تلك الزيارة إلى المغارة، أن يبيت الزائرون ليلة في ذلك الكهف المتواري في عضد الجبل الشاهق. قالت روزا لفجر عند وصولهما إلى ذلك الكهف، وبعد أن راحت الشمس تختفي خلف الجبل: «خلال الليل سنتسلل إلى قصر منجوك». فتحت فجر عينيها على اتساعهما، وراحت ضربات قلبها تطرّق بعنف. أكثر من دقيقة مضت وروزا تنتظر ردّ صديقتها. وعندما سألتها فجر عن سبب هذه المغامرة الخطيرة؟ قالت لها إنها على موعد معه في تلك الليلة، والمغارة المباركة ليست بعيدة جدًّا عن قصر منجوك..

لم يكن متاحًا أمام فجر التردّد.. فقد بدا قرار روزا حاسمًا. وعرفت فجر أنه، ومهما تكن مخاوفها، لا بد لها من مرافقة صديقتها. حاولت أن تطمئن نفسها، فهي كلما جاءت لتتبرّك في المغارة المقدّسة كانت تشعر بحضور روح أمها، بل تكاد تجزم أنها لمحتها أكثر من مرة. رأتها ترفع يديها بالدعاء وتنطق بلسان سليم. شعرت بأن روح أمها حضرت لحمايتها وستحميها.

ولم تكن الرحلة من الدير إلى قصر منجوك ما

يخيف فجر، فهي ابنة البراري، التي تعلّمت أن الإنسان يُخيف أكثر من زواحف وحيوانات البرية. ما كان يخيفها هو قصر منجوك الذي تُروى عنه حكايات، ولا أحد يعرف ما يدور فيه. وذلك البيك الذي كان لمجرّد ذكره أثر ترك رجفةً في جسد فجر.

فكّرت كيف رفضت الخضوع لمطالبات الخوري عقب الحوادث الأليمة التي مرّت عليها. وتجاهلت محاولات طنّوس ابن المختار الجادة بمغازلتها، وردّت بتقزّز وقرف على نظرات بكري الذي توقّف عن التحرّش بها بعد أن حذّرته الهدهدية من الاقتراب منها. فالهدهدية التي لعبت دورًا مصيريًّا في ولادتها ذات يوم، ظلّت تلقي عليها نوعًا من الحماية. خاصّة بعد وفاة أمها، ثم أبيها. ولأن الجميع يخشى الهدهدية كفَّ بكري عن ملاحقتها..

خطر لها كل ذلك وهي تفكّر أن تقنع صديقتها الأقرب بعدم الذهاب إلى ذلك البيك الذي يرتدي صدارًا محشوًا بخراطيش الصيد، والذي يبدو لها أكثر الرجال قسوة! فكيف لروزا، الفتاة الجميلة، الطيبة، أن تقع في فخّ هذا الرجل الذي لا أمل لها بالزواج منه هو المسلم وهي المسيحية. لكنها تراجعت عن قول أي شيء لأنها أدركت من وجه روزا وشفتيها المزمومتَيْن أن قرارها لا رجعة عنه، وايضًا لأن الهدهدية قالت لها: «لا تقولي لأيٍّ كان، شيئًا تخافين أن يُذاع في العلن».

بحثت فجر بعينيها قبل أن تغيب الشمس عن السطح القرميدي لقصر منجوك. تنظر نحوه بينما

شعور وحشي يروِّعها. فهي بسبب الفقر والخوف والعوز تمرّنت على التقاط إشارات الحياة الخفيّة، التي يمكن أن تفوت روزا التي ترعرعت في منزل أب تلقّى علومه في مدرسة الأبرشية في حلب، وربّى أولاده واحتضنهم بعناية كبيرة، فأمّن لهم الرفاهية والاطمئنان والأمان.

فاحت روائح عطرية منبعثة من الورشة الصغيرة التي يعمل فيها بعض الرهبان على صنع الصابون، بينما مُدّت في باحة الدير أغطية متنوّعة قدّمها الرهبان بكرَمٍ كبير، وخُصّصت غرفتان واسعتان للنساء اللواتي جئن للزيارة والتبرّك.

في تلك الليلة كان كل شيء غريباً. تبدّد الطقس الربيعي الذي ساد طوال اليوم، بسبب كتلة من الغيوم السوداء التي حجبت القمر والنجوم وبرّدت الليل، على نحوٍ غير متوقَّع.

قرأت فجر في تلك الغيوم التي جعلت الليل شديد الظلمة إشارة إلى أنّ موعد صديقتها الغرامي لن يكون سهلًا مطلقًا. كما أن المغص المفاجئ الذي عصف بأحشاء روزا، جعل فجر تجرِّب إقناع صديقتها بخطورة خطتها.

لكن روزا، وهي تبتلع دواء الراهبة الآسية التي تصف الأدوية وتحضِّرها وتشرف على تعاطيها، قالت لفجر: بعد قليل نتحرّك.

كان الموعد عند منتصف الليل، وقررت روزا الانطلاق حتى لا تتأخّر.

جرّبت فجر أن تتحجّج بالمطر والبرد الشديد لإقناع صديقتها بعدم الذهاب، وهي ترتجف بشدة

وتصرّ على أسنانها. ردّت روزا بأن خلعت معطفها ووضعته على كتفي فجر لتكفّ عن التذمّر من البرد.

أدركت فجر من حركة روزا، عندما خلعت المعطف، أن قرارها حاسم، ولا تراجع عنه. فكلّ فتيات القرية كنّ يحسدن روزا طنّوس على ذلك المعطف الجوخ الفضفاض ذي الأزرار الذهبية الذي اشترته من أنطاكية. فتبعتها فجر وقد غاصت يداها في عمق جيبي المعطف. كانت الأفكار تزدحم في رأس فجر، وسط صمتٍ مطبقٍ، فلم تكن مقتنعة بأن السبب هو الشوق، أو قرار بعدم إخلاف الموعد. تفكّر بينما تتبع خطى رفيقتها المندفعة.

تردّدت فجر قليلاً في السير، بعد أن عبرتا بوابة الدير، فقد رأت شبح رجلٍ يقف في الخارج كما لو أنه ينتظرهما. وعندما سألتها روزا عن سبب بطئها، صرخت فجر بصديقتها طالبةً أن تفسّر لها سبب رحلتهما المجنونة، وكيف لروزا أن تندفع فلا تخشى الوحوش، والضباع، هي التي كانت ترتجف فزعاً من ثعلب يتسلل إلى قنّ الدجاج..

أخبرتها روزا باختصار كل شيء. قالت لها وهي ترتجف:

«أنا حبلى منه. سيأخذني عند طبيبة بولونية تخلّصني من الجنين».

صدرت عن فجر صرخةٌ مكتومةٌ كتلك التي صدرت عنها يوم سمعت من الهدهدية عن الطبيبات الأجنبيات اللواتي يتوزّعن بين حلب وبغداد ودمشق والمدن التركية.. ويكسبن ذهبًا مقابل

إجهاض الأجنّة. لكنها الآن تدرك أن لا وقت للدهشة ولا للّوم، فالوضع صعب ومعقّد للغاية، وعليها أن تساعد صديقتها، وما عاد من الممكن محاولة إقناع روزا بالعودة! بل على العكس.

لم يكن سهلًا التجوّل على تخوم ذلك التنوّع الفظيع من التضاريس: متاهة من السواقي، والخلجان، والقنوات، والقصب... كلّ شيء لونه أخضر داكن. الأرض تحت أقدامهما رخوة ورطبة. عبرتا الأراضي المحاذية لخاصرة أجمة كثيفة من عيدان القصب.

سيكون على فجر أن تعود وحدها بعد أن توصل صديقتها. نظرت فجر حولها يائسة، وقد وقفت في نقطة تطلّ على البوابة وتحرس المكان المظلم بعينيها. وتقدّمت روزا العاشقة والقلقة في آن صوب بوابة الحديقة المحروسة بمردة أشجار السرو الهائلة التي أصدرت أغصانها فحيحًا هوائيًّا مخيفًا. توارت فجر خلف شجرة توت عندما تناهى إلى سمعها وقع خطوات روزا، قبل أن يُذهلها ظهور ذلك الكائن الغامض الذي انقضّ على روزا من الخلف. ومع أنه كمّم فمها فإنّ أنّاتها كانت مرعبة، وراح يطعنها بشيء حادّ، مصرًّا على أن يزهق روحها.

من هو ذلك الوحش؟ تراجعت بوثبات سريعة ورمت نفسها وسط أجمة من القصب.

أدركت فجر أنه هو ذلك الشبح الذي رأته وهما تنطلقان من الدير. أصابها رعبٌ شلّ حركتها. عرفت أنها هي المقصودة بطعنات تلك السكين. أنقذها المعطف ذو الأزرار الذهبية، اختلط عليه الأمر في

العتمة. قتل روزا ظنًّا منه أنها هي، فجر؟!

انكمشت بين عيدان القصب من دون نفَس، ساعدتها الريح التي حرّكت سيقان القصب ومرجحتها.. أما بكري فبعد أن تأكّد من موت ضحيته حمل الجسد الهامد وابتعد.

وقفت فجر في مكانها بعد أن غاب شبح بكري لا تعرف ما ينبغي أن تفعله.. عادت السماء تتلبّد بالغيوم وأظلمت الدنيا. كان المطر يهطل. التصق شعرها بصدغيها، تبلّلت. كانت ترتجف وتصطكّ أسنانها. تعطّل عقلها بسبب الخوف والبرد والمطر.

لقد هدّدها بكري أكثر من مرة بأنه سيغتصبها إن ظلّت ترفض أن تكون له. لكنّها لم تكن تتصوّر أن يصل به الأمر حدّ أن يقتلها! هدرت أوردتها بدم يكاد يكون صوت اندفاعه مسموعًا، بينما السماء ترعد وتغدق مطرها. توارت النجوم تمامًا، وخيمت العتمة، التفّت حولها أشباح الليل وهمهمت سيقان القصب. ضاع إحساسها بالوقت.

ظلّت عاجزة عن الحركة تنظر حولها، لا شيء يدلّ على ما حدث. بدا أن كل ما حدث كان طلاسم غامضة، كابوسًا رهيبًا. خافت أن تعود باتجاه الدير. ربما رآها بكري. تلمّست خطاها صوب بوابة الحديقة الجانبية. بلغت القنطرة المخيمة على عتبة بوابة القصر ولاذت متكوّرة خائفة متيقظة ومتحفّزة وراء الأسدين الرخاميين اللذين يحرسان بوابة القصر.

***

«القدر؟ هو ما لا يمكن أن نفهمه».

ارتعبت وهي تسمع صوت هدير وترى سيارة تعبر البوابة. وقفت عاجزةً! قلبها يدقّ، ويدقّ، بدا كما لو أنه الشيء الوحيد الحيّ في كلّ جسدها. ماذا ستقول لذلك البيك الذي وصل للتو وركن السيارة ورآها. نعم، القدر هو ما لا يمكن أن نفهمه!! بحث البيك عن شيء في الصدار الرمادي الذي يرتديه فوق قميص أبيض منشّى تحت معطف من قماش أسود ثخين فاخر، لمعت أزراره الذهبية عابرة المسافة التي تفصلهما عن بعضهما البعض، أشعل سيجارة ومضغ طرفها وهو يشير لها بإحدى يديه أن تقترب. هل ظنّها روزا التي كان ينتظرها، فهي ترتدي معطفها؟

قفزت من مكانها وهي تنظر إليه. ورطة رهيبة! أرادت أن تبتلعها الأرض. أرادت أن تهرب وتعود إلى كوخها الصغير. إلى دجاجاتها وديكها.

لكنه القدر! فأين ستذهب؟ لقد فقدت روزا وستكون مجبرة على الإبلاغ عن بكري، ما يعني أنها ستلقى مصير روزا، الذي هو مصيرها، إن عاجلًا أو آجلًا.

لحقت به صامتةً مطأطئةً. فتح بابًا وأشار لها بالدخول. انتبهت إلى أنه كان سكراناً. لم يكن يدرك تماماً ما يفعل. استقبلتها عتمة المكان ورائحة السجاد والمخمل والشموع المعطّرة. بالكاد خطت خطوتين في الداخل بقدمين مرتجفين لكثرة ما عانت من قلق، ولفرط ما تعرّضت لزخات المطر الربيعية الليلية الباردة، التي تواطأت مع حفلة الرعب التي شارك فيها الليل

بكل كائناته الخرافية، وسط احتمال الموت في كل لحظة. لحقت به وهي تشعر بالسجاد الوثير يبتلع وقع خطاها. مشت خلفه صوب درجتين تصعدان إلى ما بدا صالونًا أعلى من مستوى الأرضية. ارتبكت وهي ترى دمى، بقوائم طويلة وقصيرة، ووجوه تخرَّبت بعض ملامحها، كانت مرمية من دون عناية في إحدى الزوايا. ما الذي يريده! ماذا سيفعل بها؟ أشار بيده صوب الأرائك العريضة، وهو يتمتم: «نامي هنا». ارتقى الدرج الحلزوني بخطوات مترنّحة واختفى في العتمة.

فتحت عينيها على خيط نور دافئ أرسلته الشمس عبر الستائر واستقر بين عينيها. فتحتهما لتجد أن البيك قد وقف غير بعيد عنها يشعل سيجارته وينظر اليها بعينين متسائلتين تومض فيهما الشكوك ممزوجة مع الدهشة. شمّت رائحة الكولونيا. وقف أمامها يَزِنها بترفّع لم تشعر به ليل أمس عندما وصل سكراناً. فكّرت بينها وبين نفسها أنه لربما وهو يراها الآن من دون معطف روزا سينتبه أنه أمام فتاة أخرى.

اقترب منها ببطء ودفعها بلمستين من أطراف أصابعه صوب النافذة بحيث أصبحت تحت غمرة الضوء الساطع. نظرت إلى وجهه لأوّل مرّة. تعلم أن حُسنها يلفت الأنظار إليها في كلّ الظروف. فهل سينقذها الآن؟! تستعيد كلام الهدهدية: «الذكاء أهمّ من الجمال». ومضت عيناه الصخريتان الملوَّنتان بالأخضر المشعّ من تحت حاجبيه الكثّين بلون بني أغمق من شعره وشاربيه. في عينيه نظرة كائن اعتاد أن يفعل ما يشاء، يقول ما يريد،

لم تكن نظرة، كانت ومضة انبعثت من ملامحه الحجرية وهو ينظر إلى فجر اللائذة بذراعيها تشدهما على جسدها بكل قوة. كانت تنتظر أن يسألها عن سبب مجيئها، أو ربما عن حبيبته روزا:

«أفندم. أفندم. جنابكم.. أنا..».

شعرت بأنها غبية إذ ارتكبت حماقة التكلّم أولًا، يا ليتها صمتت وتركته يبادر ويقول ما يريد.

لم يقل شيئًا، فأكملت:

« أنا فجر، فجر بنت الراعي إسطفان».

يدور رأسها، تتلاشى قواها، ينعدم إحساسها بقدميها، بينما يدير ظهره وينزل الدرجات الثلاث وكأنه غير مهتم بسماعها، كل شيء يدعو للسخرية. أشعل سيجارة جديدة من دون أن ينظر إليها. غاب لبضع دقائق. كما لو أنّه تذكّر شيئًا، بغتة، بدا أنه جال في كل أنحاء القصر. فكّرت أن مصيرها غامض وهي ترى أسلوبه المتعجرف تجاهها. بالنسبة لها هذا الرجل كان خرافة، يماثل شام وتيخا وعشيرة وباخوس وكل عفاريت وملوك الخفاء، الذين تحكي عنهم الهدهدية. قرأت كل مسرحيات سوفوكل وجان راسين وشكسبير، لكنها لم تقرأ شيئًا يشبه المسرحية الهزلية التي غدت تسحقها. فكّرت في شيء واحد: «الشجاعة»، لأنّ الخوف هو الذي يجعل الظباء تقع في الأفخاخ رغم سرعتها الفائقة.. عاد وكأنه حسم تفكيره بشيء، تذكّرت للحظة أن الخطة التي أخبرتها روزا بها تُختزل بالمفتاح المتروك عند أحد التمثالين، وأنها ستدخل بهدوء وتنتظره حتى يأتي. هل

بحث عن روزا في تلك الدقائق؟ طبعًا لن يجدها! إذًا ما حدث ليلة أمس لم يكن كابوسًا.

شبكت ذراعيَهْا على صدرها. يموج رأسها بأفكار كثيرة عن البطلات اللواتي قرأت حكاياتهنّ. حياتها القاسية أيضًا علّمتها أن الشجاعة والذكاء هما سبيل النجاة.

صعد البيك، الدرجات الثلاث المؤدّية إلى حيث وقفت كظبية وقعت في فخ لا خلاص منه. قرّرت أن تبوح بكل ما حصل، وكيف قُتلت روزا. ثم تراجعت. تراجعت لأن مصيرًا أسود ينتظرها إذا ما علم المختار أن روح ابنته أزهقت بسببها. كانت هي المقصودة بذلك السكين. ما الذي سيفعله بها كل أهل القرية عندئذ؟! سيتخلّى عنها الجميع، وسيصبح بكري بطلًا لو اغتصبها أو قتلها. شهقت حين أمسك البيك بيديها وفكّهما عن جسدها وقد صار وجهه أمام عينيها. لم تستطع رغم كلّ الارتباك أن تشيح بعينيها عن أنامله والخاتمَيْن الذهبيين. فاحت منه رائحة شذية لم تخطئها، إنها رائحة الصنوبر. ضيّق عينيه الثعلبيتين، وهزّ رأسه.

مرّة أخرى تريد أن تقول شيئًا: ولي نعمتم أفندم الله يا بيك.. غب الدعا.. بدوام وجودكم نعرض لسعادتكم عن شي.. لو ملكنا الفرصة لتدريس أولادكم.. الفرنسية وليّ نعمتم أفندم أبوس أيديكم وأيدي حضرة الخانم والبكوات والستات ووجنات الأنجال المحروسين.. وأدام وجودكم افندم..».. نطقت الكلمات على عجل وارتباك أمام ذلك الصنم الذي يمسك بيديها وينظر في وجهها

ولم يسألها تفسيرًا لسبب وجودها عند بوابة قصره؟

كانت تشعر بأنه يخترق كل مسامها وهو ينظر إلى وجهها.

ستمر سنوات على تلك اللحظة الحاسمة من حياتها. ستتذكّر تلك اللحظة المصيرية.

حضرت كل بطلات المسرحيات والروايات التي قرأتها ليساعدنها كجنيّات طيبات وحكيمات. هنالك كتب تحضر في حياتك كرحمة مباغتة. العلاقة مع الكتب كما الحب: تقع في حبها، تغيّرك، وتطعن قناعاتك، وأفكارك. يمكن لكتاب أن يحرّرك، وينقذك من كل ما علّمته لك المدارس والأهل والمجتمع.

ستفهم الآن، في هذه اللحظة أمام البيك، كل ما لقّنتها إياه سنوات الصبر على الإهانة والألم، والاحتماء بكلمات الكتب التي قرأتها في عتمة الكنيسة، وهي تتعلّم ألّا ثوابت في الحياة. كل شيء يمكن أن يتغيّر. وأن الشجاعة ليست سوى الانعتاق من الخوف. التقطت فجر ذلك البريق في عيني البيك. أرغمتها الحياة على التمرّن على هذه اللحظة بالذات. عليها النجاح في هذا الامتحان.

من دون أن يقول شيئًا، تراجع إلى الوراء خطوتين وقال لها بصوت خفيض وواضح: «اخلعي ثيابك»، ثم استدار. وبعد خطوة واحدة استدار مرة أخرى وأكمل: «كل شيء».

مرّة أخرى جسدها! مرة أخرى يطلب رجل منها أن تتعرّى. هل قدرها أن تكون وسيلتها لحماية

نفسها، هي أن تتجرّد من ثيابها؟

تعرف ما يدور في رأس رجل من خلال عينيه، إنه الاشتهاء، حمّى تجتاحه لا يمكنه ردها.

تعرف أنها لن تستطيع الإفلات. هذه فرصتها إذًا.

تعمَّدت أن تثير أعصابه. تسمّرت في مكانها. بنظرة محيّرة أسدلت ستارة البراءة. احتمت بهشاشتها لمواجهة سطوة البيك. فكرتها عنه تختصرها تلك الحكاية التي انتشرت عن سيدات متبرِّجات ناضجات خرجن في منتصف ليلة من ليالي الصيف، عاريات وكان البيك معهم عاريًا. كان الجميع سكارى يضحكون بصخبٍ غير مفهومٍ، قصدوا الاصطبلات وفتحوا أبوابها لأحد عشر حصانًا، وراحوا يعدون خلفها ويضحكون بجنون.

تبدو بعض لحظات الجنون أكثر ثباتًا من الزمن نفسه. لم ينس أحد قط هذه الحادثة. قالت الهدهدية إنّ الجنّ اتخذوا صورة البيك وخليلاته! وعندما نُقل قولها إلى البيك تبنى الفكرة ونشرها بنفسه، لتتحوّل إلى خرافة لا تُنسى.

إضافةً إلى فهريّة التي عرفت معاناتها وسوء حظّها بما لا تستحق، خصّت الهدهدية كيوان بيك بمحبّة خاصة، ففيه طيف أبيه صادق باشا، الرجل الوحيد الذي عشقته. لمس كيوان ذلك بدوره، وتواطأ معها على نحو سرّي من دون أن يكلّمها أو يزورها.

تعلم فجر ما ينتظرها، رأت أن عروق صدغيه تنبض بشدة. يشتهيها هذا الرجل. لا تريد أن

تستسلم، فلم تنفّذ ما طلبه. لكنه اندفع نحوها يمزّق القماش على جسدها ويعرّيها بيدين متعجّلتين. أراد أن يُفهمها أن رفض تنفيذ طلبه له ثمن. تراجع وتركها تنزع ما مزّقه. قدّرت أنّ أعصابه ستفلت.. بقيت على موقفها تحت سطوة ضوء الصباح.. نظر إليها، أنزل سرواله من دون أن يخلع جزمته السوداء اللامعة، اقترب بخطوتين سريعتين وسحبها من إحدى ذراعيها ورماها إلى جوار إحدى تلك الدمى الغريبة والمخيفة، مزّق ما تبقى من ثيابها، ثبّتها تشقّمها من دون أن يقبّلها.

تحسّس ظهرها وخصرها وعصر ثدييها عدة مرات بشكل سريع ومتتالٍ، جعلها تصرخ من الألم، ثم سحبها أكثر ليكون جذعه مقابلها تمامًا، رفع فخذيها وباعد بينهما وسرعان ما دفع عضوه في جوفها، صرخت وشهقت عدّة شهقات بينما كان يؤرجحها ويلجها ثم يعضّ عنقها منتشيًا مخرخرًا، كهرٍّ برّي.

جعلها الألم تدفع يدها إلى الأسفل. اصطبغت أصابع يدها التي تحسّست بها فرجها المخدَّر بجرحه. إنه دمها، دم عذريتها التي احتفظت بها خطَّ دفاع أخير. إذ لم يستطع لسان الخوري أن يقتحم دفاعات فرجها العنيد.

تذكّرت الهدهدية، التي كأنّها كانت تعلم أن هذا ما سيحصل، حين قالت لها إن ذلك لا يجب أن يكون ذكرى مخزية، فالفقراء لا يحميهم شيء إلا ذكاؤهم. خفّفت من مخاوفها بشأن عذريتها: «أنتِ أهمّ من بضع نقاط من الدم تخبئينها بين

رجليك، العذرية سلاح تستعمله الانثى أو تخبِّئه تبعاً للظرف». لكنها رغم ذلك كانت تخجل بينها وبين نفسها. عاشت لسنوات مذعورة من أن يراها أحد، وقد باعدت ركبتيها وتركت الخوري يمرِّغ لسانه ووجهه بلزوجة فرجها، كان يتذوّقه ويصف طعمه بالعسل، حتى صارت تكره العسل! وتكرهه عندما يمصّ حلمتي ثدييها. تتقزّز منه ومن سعادته فتنزل دموعه. لماذا تنزل دموعه؟ كيف لا يكون سعيدًا ذلك العجوز وهو يعتصر ويمضغ جسد فتاة في السادسة عشرة. يلامسها ويبكي ويشكرها، ويقدّم لها الطعام الذي تحمله إلى أبويها. أما الحلوى التي كان يجلبها لها من حلب، فحتى بيت المختار أبو طنوس يفتقد لتلك الحلوى الباذخة المنتفخة بالفستق والصنوبر.

انتشلت نفسها من صور ذاكرتها وتشويش أفكارها، وهي عارية مسحوبة من ذراعها وراء البيك الذي دفع بابًا بلون أخضر غامق، منقوش بزهور حمراء مذهَّبة. وقفت في وسط الغرفة لا تدري ماذا تفعل. جلس كيوان على كنبةٍ من المخمل النبيذي ونزع جزمة الجلد الأسود، ثم وقف وراح يفكّك أزرار بنطاله الضيق من الأسفل، الواسع من الأعلى. رمى ثيابه كيفما اتفق على سرير بأعمدة نحاسية مزخرفة، واندفع نحوها ليطرحها أرضًا فوق السجادة السميكة وارتمى فوقها مأخوذًا بهذا الجسد الذي يجمع الصلابة والليونة في آن. استسلامها اللامبالي أجّج جذوة شهوته. فلا يعرف هل هي معتادة على الرجال أم أن لا أحد لمس جسدها من قبل.

قرّر أن يهدّئ نفسه قليلاً ليستثير هذا الجسد الفتيّ الطاغي حتى يمنحه ذاته. استطاع بخبرة خبير أن يوقظ في جسد فجر تلك الطبيعة الوحشية التي عاشتها. كان كل ما بدر عن جسدها المتقوّس تحته: حركات حادّة خجولة، عميقة، مديدة، بينما هو يتشنّج بعنف.

انقلب من فوقها وتمدد بنصفه العاري على السجادة شاعراً بأنه استنفد كل قوّته. نهض فجأة، واتجه صوب خزانة بدرفات أبنوسية قاتمة، فتحها وسحب فستانًا، ثم سحب سروالًا نسائيًّا من رفّ علويّ. رمى الثياب نحوها، وقال وهو ينظر عبر النافذة إلى قلعة بغراس في سماء الربيع الزرقاء:

«سأغيب حتى المساء، لا تفتحي بابًا أو نافذة، يوجد طعام في مطابخ الخدملك في الجهة الغربية من القصر.. فقط استحمّي ونامي، وانتظري عودتي».

أومأت بالإيجاب، وشعرت بالمزيد من الارتباك وهي تتطلع إليه وجهًا لوجه.. وقف وفرك منطقة أسفل بطنه بمنديل أبيض سكب عليه ماءً كان في قارورة من الخزف إلى جوار السرير على منضدة صغيرة في بطنها خزانة صغيرة. فاحت رائحة نفّاذة تشبه الكولونيا بعض الشيء، ثم ارتدى ثيابه على عجل. كان يغادر الغرفة عندما عاد وكأنه تذكّر شيئًا، فتح الخزانة مرّة أخرى، وتناول فردتي حذاء منزلي مصنوع من قماش بلون القشدة مطرّزة بوريدات صغيرة بخيوط الذهب. قالت بينها وبين نفسها: «لا بد أن هذه أشياء كانت تخصّ زوجته أو إحدى عشيقاته».

هرعت عارية باتجاه النوافذ حالما سمعت هدير محرّك سيارته.

تنقّلت باستغراب بين النوافذ المقنطرة. حاولت فهم شيء غير مفهوم. تفقّدت الخارج عبر زجاج كل النوافذ، توارت خلف الستائر وهي تنقّب بعينيها عن شيء يدلّ على ما حدث. أين جسد روزا؟ إلى أين أخذها بكري، كيف اختفى كل شيء. هل سيأتي أحدٌ ويدقّ على هذا الباب؟ تحرّكت رغم الألم الذي كانت تحسّ به بين فخذيها والذي تحوّل إلى نخز موجع.

مرّت سبع سنونوات، يا للحظ السعيد إذًا؟

يتفاءل الأهلون بمرور سبع من هذه الطيور الرشيقة، تمثّل نجمات الثريا السبع والكوثرات، أي القابلات السبع اللواتي يحضرن وقت الولادة، ويرسمن حظ ومصير المولود. لم تصدّق نفسها سبع سنونوات، إذًا حظ سعيد وطفل!؟

يتردّد في رأسها كلام الهدهدية: «لا بأس. يبيح الفقر كل شيء، استغلّي هذا الخوري النتن، إنه عنّين، لن يؤذيك.. اطلبي منه ليرة ذهبًا». شهقت فجر يومها، بينما هزّت الهدهدية رأسها بثقة، «سيعطيك، أثق بذلك، على الأقل غيّري الوجار الذي تعيشين فيه».

فركت وجهها وجسدها، وشعرها، بكل ما أوتيت من عزم تبقّى لديها عقب محنة أمس وهجمة البيك الشهوانية. فاحت رائحة الحبق والصنوبر من المنشفة التي جلبتها من سلة مملوءة بالمناشف عند مدخل الحمام الذي لم تعرف مثله، ولا حتى

في بيت الهدهدية. اغتسلت ثم فركت جسدها بالمنشفة، وفكّرت: «أيّ نعيمٍ يعيش فيه هؤلاء!».

فتحت درفتي الخزانة العملاقة: ثياب كثيرة، بعضها معلّق، وبعضها مطوي ويملأ الرفوف، بينما الأرضية حفلت بمداسات مزيّنة بالفراء والريش وأقمشة لامعة، لا تعرف تسميتها في عالم القماش، وثمّة حذاء بعنقٍ عالٍ بلون قرمزي مطوية جوانبه بأبزيمات وأزرار ذهبية.

كان كل ما تلمَّسته طريًّا، وثيرًا، أو من الفراء، أو خفيفًا من أقمشة شفافة لم تتوقّع فجر وجودها على هذه الأرض.

كانت قد مشّطت شعرها وجدلته جديلتين. نظرت إلى نفسها في مرآة طويلة بأطراف مستديرة، إطارها مزيّن بالودع، ومثبّتة فوق قاعدة من الرخام بثلاث قوائم معدنية مذهّبة. لم تلمح قطعة أثاث مثلها قط في أي من بيوت القرية. قبل أن ترتدي الثوب الذي رماه لها البيك على عجل لدى مغادرته، نظرت إلى جسدها العاري في المرآة، سلاحها الذهبي الذي منحته لها الحياة.

26

صورة..

تتسمّر فجر أمام تلك الصورة المعلّقة على الحائط. شيء غامض يشدّها نحوها. من هي غير تلك الفاتنة ذات الشامة اليتيمة تحت عينها اليسرى؟!

ظلّت فهرية الميتة، مسمّرة في صورة بالأبيض والأسود. تحدّق في كل من يدخل بوابة منجوك. وحدها تلك الصورة نجت من يدَي كيوان.

كانت صورة التقطتها عين المصوّر الأرمني ديكران. تبرز الغمّازة الواثقة في حنكها المكوَّر، وتلك الشامة تحت عينها اليسرى، والنظرة التي ترمق بها كل من يظهر في مجال نظرها.

تتلاشى كل الذكريات، وتغيب الحياة حتى تنسى تمامًا، وتبقى الصورة شاهدةً على الحكاية. تشتبك ذكراها مع أوراق الزمن الصفراء، الزمن الذي يحوّل الكائنات والأشياء، إلى حكايات، فلا يضيع شيء. إنه الزمن الذي يبرع في ترك مساحة للموتى والمجهولين، في خضمّ الحياة، لتبقى الذاكرة هي دماء الحياة.

ستحط الشحارير على أغصان الأكاسيا التي ترمي بثقلها على درابزونات الشرفة. والقط المستلقي على الإفريز الخارجي للنافذة، سيسدّد نظراته إليها. وبعد منتصف الليل ستلمح الأشباح، الجنّ، وكل تلك الكائنات التي يصرّ البشر على الارتياب في وجودها. وحدها هذه الكائنات لن تسدّد دينها للوقت.

لا تفكر الآن صاحبة تلك الصورة، في تحوّلات الزمن ومعه تحوّلات الحياة.. لا هزيمة، ولا نصر، بعد الآن.

لن تعاني فهرية، التي في الصورة، بعد الآن، من الشوق وهو يجرجر قدميها في الليالي الشتوية الباردة، وتتقافز الضفادع أمام خطواتها في الأرض الموحلة. لن تنسلَّ كل يوم خائفة تحت أشعة القمر الشاحبة. لن تفكّر بالوقت، وما من مطلبٍ عندها غير تمضية الوقت بأجمل مما تخيّلته، بعد أن تعبت من الوقت الذي أمضته في ذلّ عشقٍ أكل كبرياءها وهدر شبابها. ما من مرّة طالبته بأيّ شيء، ذلك الرجل الذي أحبَّته. لكنه كان عاشقًا لم تزل قبلاته تطنّ من حولها كنحلات جوَّعها البرد.

إنها الآن صورة وحسب. لا يمكنها أن تتذكّر كيف كان يتحيَّن الفرص ليحدّد لها الساعة التي سينتظرها فيها بدار السلاملك. فتشعر بسعادة غامرة «إنه يعشقني»! لكنها تعود لتدرك مرة أخرى أنه لا يعشق سوى الجسد، وأنه لا يغويه سوى أن يكون معشوقًا. وأنه حتى لا ينتظرها، بل دائمًا تنتظره.

هدَّدته ذات ليلةٍ أنها ستكفّ عن لقائه بسبب ما تسمعه من قصص حول غرامياته مع بنات الفلاحين. غضبت عندما علمت أنه على علاقة بتلك الفتاة روزا، التي استقدمها بحجّة تعليم الولدين. ولم تعترض بدرية على أن تعلم تلك الشابة الصغيرة والجميلة الولدين في السلاملك، فهي تعرف كيوان. ولأنها تريد أن تعرف فهرية أن

فتاةً أصغر منها ستنافسها على سرير كيوان في السلاملك.

هدّدته لكنها لم تنجح يومًا بتنفيذ تهديداتها، كما لم يلتزم هو يومًا بوعوده لها.

هل اختارت أن تسلّم جسدها للماء البارد الهادر، لعلّه يأخذها إلى الحرية التي حدّثتها عنها دادا.

ذهبت بعزم إلى أحضان سيزار بعد أن سمعت كلامًا جديدًا عن السعادة الأعظم، التي لا يشبهها شيء، حين نلبي نداء رغباتنا الأكثر شغفًا وجنونًا.

الآن فهرية صورة وحسب، ماتت تلك المرأة التي حلمت بمسافات غامضة، تبعدها عن من تحب وتكره. بدت في أيامها الأخيرة مشعّة وفاتنة، تمشي بخطوات واثقة. بالكاد تحادث الوالدة فريدة خانم أفندي، وتتجاهل بدرية التي باتت اهتماماتها شبه محصورة بالولدين، فينامان في غرفتها التي لا يدخل إليها كيوان، ولو على سبيل الزيارة، رغم عنايته الكبيرة بالولدين..

تنهر فهرية الوكيل أو الحوذيَّ أو السائسَ إذا أراد أحدهم مرافقتها لأجل سلامتها، مبرزة لهم المسدس ذا السبطانة الطويل الذي تحمله. أرسلت خصلة مقصوصة من شعرها في اليوم السادس للقمر الجديد، مع «دادا» لتتنبّأ لها عرّافة شهيرة في أزمير، حيث غادرت دادا إلى هناك لتحضر عرسَ إحدى صديقاتها. لم يأتها الجواب. كان القدر أسرع. تلاشى كل شيء، ومرّت الحوادث الأليمة بانسياب مريب.

انتزع كيوان بيدين غاضبتين أفيشات الأفلام المعلّقة على جدران غرفة دادا. كما هشّم تمثال ربة الحب العارية حالما غادر عوني مع زوجته، بعد أن أقرّ أخيرًا الاتفاق بشأن توزيع الحصص وتقاسم الضياع، وأودع كيوان حصة عوني ذهبًا في بنكو دي روما.

دفعه موت فهرية لتنفيذ ما يريده عوني أخيرًا. فقد ماتت وريثته، والوريثة الأخرى زوجته. ولم يبقَ سوى عوني. وافق على منحه ثمن حصته من الأملاك ذهبًا على أن يرحل نهائيًا عن المكان.

مزّق الصور الجدارية وهو يعلم أن دورًا خفيًّا لعبته دادا في ما حدث. لربما فكّر كيوان كثيرًا في تأثير الصداقة بين المرأتين على فهريته، لكن خياله لن يسعفه بتقدير ما فعلته «دادا» السوريالية واللامعقولة مثل منشور «دادائي» كما وصفها عوني دائمًا من دون أن يفهم كيوان معنى «الدادائية». لربما لو اكترث قليلًا، لكان أدرك عمق جراح امرأة ببساطة ووداعة فهرية. فاته أنّ امرأة تشعر بأنها مطعونة، يمكن أن تفعل أي شيء ولربما كل شيء.. لو علم كيوان أن الأوصاف التي كان يطلقها عوني على زوجته كان يقصدها تمامًا، لخطر له أن امرأة مثل دادا تقدّس اللذّة، وأينما وجدتها لن تتوانى عن الاستمتاع، وستستخدم كل ما أوتيت من دهاء وجرأة في مواجهة شخصية ترى فيها تحدّيًا لمكانتها، حتى باتت تتحدّى نفسها في قدرتها على تطويع ذلك الرجل الذي يمثّله كيوان الذي سمعت عن مغامراته وغزواته ما لم تسمعه عن

رجل، هي الخبيرة في الرجال.

ستحلّق جنيّة الشهوة والشبق والجنون بعربتها التي تقودها بجعات بأجنحة متوحّشة، وستفلح دادا بفتح كلّ الثغرات التي في عقل وجسد فهرية لتنفذُ منها شياطين الغواية والمتعة. هل كانت فهرية سترمي نفسها تحت جسد سيزار وتتلمّس لذة يمنحها لها رجل آخر غير كيوان لولا جنون تلك الأحاديث عن «لولا»، واستعراضات «المرأة السوداء» المزنّرة بالموز؟ لم تترك دادا شيئاً في جسد وعقل فهرية لم تستفزّه وتدفعه للتمرّد.

كانت فهرية بدأت تمرّدها منذ أن باركت عفريتة الشهوة تلك الملامسات الحميمة والساخنة بين المرأتين. فقد تحرَّشت أنامل دادا الذئبة، بجسد فهرية الظبية. مرّرت لها تلك النشوة التي يمكن لامرأتين أن تحصّلاها من تلاحم جسديهما. كان عليه أن يحزر تأثير دادا العابثة والحذرة بذات الوقت. لكنه راهن كثيرًا على جهل وخوف وخجل فهرية.

لم يعد واضحًا في ذلك الصراع الخفيّ إن كانت دادا تنتقم من محاولة كيوان الذي أصرّ على أن يعاملها باعتبارها من نساء بيته، وعليها أن تقبل قوانينه. أم إنه يرغب بها ثمرةً محرَّمة عليه، فيحاول إبعادها عن عقله وحياته.

27

دادا وفجر

انتهى الهدوء في قصر منجوك. وصلت تلك المرأة. سمعت فجر ضجيج محرّك سيارة في الخارج. من النافذة رأت سيارة جديدة.

«مَنِ الذي وصل بسيارة؟»، تساءلت فجر. ففي كل المنطقة سيارتان: سيارة سيزار، الفورد اللؤلؤية السقف، وسيارة البَيْك السوداء الموجودة في مكانها.

شهقت فجر وهي ترى تلك المرأة تنزل من مقعد السائق في تلك السيارة التي لم تر مثلها من قبل.. لم تستطع أن تبتعد وهي تنظر إلى امرأة تقود سيارتها بنفسها. خرج كيوان أيضًا على صوت الهدير ووقف عند الباب ينظر إلى الضيفة. لاحظت فجر نظرته الحائرة بين الفرح والغضب.

تذكّرت فجر دادا كنّة آل أرشدان التي كانت تتجوّل مع المرحومة فهرية على ظهور الأحصنة في العصريات المشمسة للشتاء المنصرم.

مرّ شهران وهي تخدم البيك في النهار والليل. أعجبته فكانت أول امرأة من خارج القصر يطلب منها البقاء. وهذا ما أراحها. إنه خيار أفضل من كل خيارات الهرب التي كانت فكّرت فيها. سمح لها أن تعيش في القصر، وطلب منها أن تضرب خمارًا على وجهها عندما تضطر للخروج إلى الشرفات، أو التحدّث مع البستاني أو الحوذي أو السائق. ولم يكن أمامها سوى أن تستسلم

لقدَرها من دون اعتراض. وقد وافقت على الفور، فهي من جهة لا تريد أن يراها أحد قد يتعرّف عليها، من جهة أخرى لا أحد ينتظرها: لا أب ولا أم ولا أصدقاء أو جيران يفتقدونها... وحتى روزا لم تعد موجودة. وكان لديها اعتقاد غامض بأن الهدهدية لا بد تعرف مكانها، فهي امرأة لا يخفى عليها شيء.

تحضر له إفطاره كلّ صباح. ثم يغيب اليوم بطوله، ليعود مساءً، فيضع أمامه دمجانة نبيذ ويبدأ بالشرب، بعدها يعرِّج على الغرفة التي منحها لها، يطأها بعنف وقسوة، كما لو أنها بلا روح، مثل تلك الدمى الصامتة المطروحة في عدة أماكن من البيت.

غاب الود تمامًا عن لقاء البيك بتلك المرأة.

لم تصافحه، إنما ألقت كلمات التعزية وذكرت اسميّ المتوفيتَيْن فهرية وبدرية بذات الاحترام.

«ماذا؟ بدرية؟! بدرية أيضًا ماتت؟!».

اعتقدت فجر للحظة أنها سمعت شيئًا خاطئًا، لكن مجرى الحديث أكد أن الست بدرية أيضًا توفيت بعد أقل من شهر على وفاة فهرية.

«لعنة التوائم» فكّرت فجر وببالها كلمات الهدهدية، وهي تراقب الضيفة تهرع بلهفة إلى الدمى الملقاة بإهمال على كنبة واسعة تتصدّر الصالة الواسعة المطلّة على الحديقة. طلب البيك من فجر منذ البداية ترك الدمى على حالها. فلم تفكّر حتى بلمسها.

هي الآن وجهًا لوجه مع دادا الشهيرة، ابنة

الزنبق؟ تتذكّر كلمات المختار، وأحاديث أبناء القرية عنها وعن الست فهرية. لقّبهما الأطفال بـ«الستات». يقصدون كلًا من دادا وفهرية وهما تتجوّلان على ظهور الخيل في الحقول بين القرية والقصر. راقبت فجر، تلك الفهدة السمراء المزدانة باللآلئ، ذات التسريحة المتثنية تحت عنقها والدبابيس المثبتة قرب صدغيها.

جلبت معها ضوضاء غريبة. إنها تجادل البيك! علا الصوتان كما لم تتوقّع فجر يومًا. فهل يمكن لامرأةٍ أن تجادل البيك وترفع صوتها في وجهه؟

تتحرّك في البيت كما يحلو لها، تحت نظرات كيوان الحائرة بين الإعجاب والغضب. أدركت أنّ وحدها امرأة من هذا الطراز يمكن ألّا تخشى البيك في شيء. عادت دادا، المطلّقة حديثًا من عوني أرشدان، تريد دُماها وبعض أغراضها التي بقيت في القصر. كانت غائبة عندما رمت فهرية نفسها في النهر للمرة الثانية. كانت قد ذهبت إلى أزمير لتحضر حفل زفاف إحدى صديقاتها. وخلال أقل من شهر توفيت بدرية في أثناء الولادة.

ها هي إذًا تلك المرأة التي شغلت الناس منذ أن جاءت! إنها أمامها بلحمها وبكل ما نُسج عنها من ثرثرات.

وهي تراها كيف تتصرّف، وكيف تقف في مواجهة البيك، تشعر بأنها ليست امرأة كما كل النساء اللواتي عرفتهنّ! كان كل شيء فيها قويًّا وبسيطًا وواضحًا وسهلًا وحرًّا. ملامحها منحوتة بدِقّة شيطانية مفزعة! وجهها مُضاءٌ بعينين

خضراوين مسحوبتين إلى أعلى كعينَيّ ذئبة. فيهما مرَحٌ معلَن وتهوّر مدروس وطيش يبزغ للحظات ثم يختفي. تتراءى ومضات خبث تتلاعب بالأخضر العشبيّ المقيم بين جفنين ينكمشان كلما ضحكت. فجر التي عرفت حياة البراري، رأت أنها ذئبة إلى حدّ الكمال.

علت أصواتهما. البيك والضيفة! لم يكن حديثًا، كان شجارًا. تبادلا الاتهامات. وتردّد اسم فهرية عدة مرّات. طلب منها بصوتٍ غاضبٍ محدّقًا فيها أنفًا لأنف، أن تلمَّ أغراضها ودُماها الغبية وتغادر. قال كلماته الأخيرة مبعدًا بقدمه دُمية كانت تعكف على تفقّدها. حرب حقيقية، مواجهة بالأعين، والمشاعر، الاحتدام الغامض سيد الطرفين.

حضرت إذًا صاحبة الدمى. ورسولة حيّة القلعة؟ لديها كل المواصفات الخرافية التي تُروى عن المرأة اللغز. طراز من النساء تتكلّم عنهن الهدهدية. لم تعتقد فجر أن هنالك نساء قويات على هذا النحو.

لم يكن يفوت على فجر، التي علّمتها قسوة الحياة كيف تقيّم الناس، أن تدرك ما تمتلكه تلك المرأة من قوّة. كان كلامها هادئًا ولاذعًا في الوقت نفسه. جعلت البيك الصامت يتعثّر بكلامه. ثم يصمت وهي تشرح له كيف تنازلت عن كل شيء لأجل الطلاق من شقيقه. فقد أضاع عوني نصف ذهباته على موائد القمار في اسطنبول. وكيف أنها ما كانت تريد أن تعود إلى هنا إلّا وبيدها ورقة طلاقها الرسمية.

فاجأت العبارة الأخيرة البيك كثيرًا.

تبسّم. أراد أن يلمّح لها أنه يعرف أنها تكذب. وأنها لم تتكلّم عن ذلك الرجل الآخر الذي رتّبت زواجها منه:

«بل جئتِ لتأخذي دُماكِ وأغراضكِ وتذهبين إلى...». صمت، ومشى في أرجاء الصالة مستجمعًا حبال أفكاره التي بدا واضحًا أن الضيفة فكّكتها.. ثم وقف وقدح عود ثقاب بحركة غاضبة. أشعل سيجارة وضعها في طرف فمه، ثم رمى العود في المنفضة بحركة تنمّ عن نفاد الصبر. ثم أكمل: «سمعت أنك ذاهبة إلى أحضان قائمقام أزمير؟».

وقفت قبالته وقد دسّت يدها اليمنى تحت مرفق اليد اليسرى، وقالت وهي تبتسم:

«يبدو أنك تتابع أخباري خطوة بخطوة». وأتبعت كلامها بضحكة مسموعة.

تفاجأت فجر من انقلابها، ومن الهدوء الذي ساد بينهما.

لكن الهدوء لم يستمر طويلًا، فبعد قليل علا صوتها وردّدت كلامًا مبهَمًا عن فهرية، وختمت: «أعرف فهرية جيداً. أعرفها أكثر مما يمكن أن تعرفها أنت الذي تسبّبت لها بحياةٍ بائسة، وأكثر مما يعرفها أيّ شخصٍ في هذا القصر. ولذلك أقول، لا، لا يمكن لفهرية أن ترمي بنفسها في النهر؟». وردّدت ذلك أكثر من مرّة.

وبحركات فيها الكثير من النزق، غادرت الصالة قبل أن يقول البيك شيئًا وصعدت الى الطابق الأعلى وكأنها أرادت إنهاء حديث لا طائل منه.

غابت فجر قليلًا في الخدملك وانهمكت في المطبخ لأكثر من ساعتين بإعداد الأكل، ثم عادت لتسترق النظر لدى سماعها ضوضاء كلام غير مفهوم.

رأت الضيفة تنزل الدرج الحلزوني الذي يتوسّط فناءات الجزء السفلي من القصر، وهي تحمل مزقًا كرتونية تبدو منها ملامح رجل أسمر بلفّة على رأسه، وأخرى لامرأة شقراء شاحبة كشبح. لا بد أنها هي صاحبة الغرفة المقفَلة التي لم تعثر على مفتاح لها خلال تنظيفها اليومي في أنحاء القصر الذي أنهكها تلميع أثاثه وتنظيف سجاده. فالقصر خلا من خادماته. بعضهنّ رافقن الستات إلى أنطاكية لأجل ولادة بدرية. والبعض الآخر سرّحته فريدة خانم.

عادت الضيفة لتقف أمام البيك: «مزّقتَ صوَري!؟ من أي شيء انتقمت؟!».

كانت تحدّق في عينيه من دون خوف، وأضافت: «مجنون، أين سأحصل على مثل هذه الأفيشات؟».

ذهبت فجر إلى جناح الخدملك بينما استمرّت المشادة الكلامية بين البيك والضيفة. سمعت فجر الأصوات عن بعد ولم تفهم فحواها تمامًا، لكنها رأته وهو يقبض على زندها العاري، يثبّتها على أحد الاعمدة الثمانية التي ترفع قباب القصر، ويضيّق عينيه ماضغًا طرف سيجارته، ثم يفلت زندها ويستدير مبتعدًا. كأنه لم يستطع أن يقف في مواجهتها وهي تبادله تحدّي العيون. رأت فجر في وقفتها ونظرتها مقاومةً جعلته أعجز

من أن يواجهها.

خرج على الفور. وسُمع صوت محرّك الدودج، ليغادر البيك الغاضب والمصدوم الذي لن يعود قبل مرور يومين.

فوجئت دادا، وهي تدخل الحمّام بترتيب القباقيب ووضعها في مكانها الملائم قرب الباب الصغير المقوّس الذي يؤدّي إلى حجرة الحمّام الجوّانية، والجرن الذي يأتيه الماء الساخن حالما يشتعل الموقد، وبسلال المناشف النظيفة والمزيّنة بالخرز. كان الحمام جاهزًا، ورائحته طيبة. بروب الحمّام الأبيض على جسدها العاري، وبشبشبها الفائض بالخرز واللمعان، خرجت دادا من الحمّام بوجه بدا مرتاحاً. جلست إلى المائدة التي أعدّتها لها فجر بعناية تأكل بتلذّذ. وتنظر إلى تلك البنت التي يبدو أنها وحدها في القصر وتقوم بكل ما يحتاجه.

فكرت فجر أنه من الصعب على أي رجل التعامل مع جسارة هذه المرأة التي راحت تدندن وتغني أحيانًا بصوت عالٍ أغاني مختلفة، وبأكثر من لغة، وهي تنظّف دُماها وتتفحّصها. وقد أحضرت صندوقًا خشبيًّا مزيّنًا بالمرايا والصَدَف يحتوي في داخله على بكرات بألوان كثيرة، وإبر ومقصّات مختلفة.

لم تهتمّ عندما انكشف ثوب الحمّام عن ساقيها السمراوين المصقولتين والممتلئتين. مدّدت الدمى التي يقارب طول بعضها قامة طفل في العاشرة من عمره. بل إن بعض الدمى كانت تبدو بحجم فجر.

كانت لهجتها ودودة وفيها شيء من الدلع، وهي تنادي فجر: «يا بنت..».

لم تُخفِ فجر فرحتها عندما طلبت الضيفة منها المعاونة في رتق ما تخرّب من تلك الدمى الغريبة. ساعدتها فجر على خياطة وتقطيب بعض الأذرع الفالتة، والركب الممزقة وقد بزغت حشوتها القطنية من الداخل، وتثبيت بعض العيون المنزاحة من أمكنتها. لاحظت دادا براعة فجر في استعمال الإبرة والخيط، لكنّ الدهشة بانت على كل ملامحها عندما سألتها عن كلمة في أغنية فرنسية كانت دادا تدندنها.

قالت الضيفة لفجر: «أنت جميلة يا بنت، وتعرفين الفرنسية.. ما اسمك؟!».

كانت تناديها «يا بنت»، وها هي الآن تسألها عن اسمها.

أجابتها وهي ترسم ابتسامة خجولة على ثغرها: «فجر».

وعندما سألتها: «أتعرفين مَن أنا؟». ردّت فجر بصوتٍ خفيضٍ: «كل الناس في هذه المنطقة يعرفونك».

ضحكت دادا وهي تقول لها: «حسنًا، اسمي عدوية، وينادونني «دادا»».

وعبّرت لها عن تقديرها لما تقدّمه لها من مساعدة. ثم رفعت واحدة من الدُّمى، والتي كانت نالت الحصة الأكبر من التخريب: ذراعان شبه فالتتين، بالكاد متّصلتين بالكتف. وتنورة ممزّقة،

وزرَّا العينين خرجا من المحجرَيْن. وقالت:

«أتعلمين لماذا تمزّقت هذه؟ بينما صمدت بقية الدمى؟ لأنها بلا اسم. سأسميها فجر، تعالي نرتّبها ونرتقها ونزيّنها لتصبح بجمالك».

ارتاحت فجر إلى طريقة تعاطي الضيفة معها. راقبت تصرّفاتها من دون أن تسألها عن شيء. لم تستطع أن تكره هذه المرأة الواثقة، والتي كانت صورتها في ذهن فجر أشبه بشيطان.

تطلب الضيفة كل شيء بكلمات لطيفة. تأكل بشهية وهدوء. لم تشاهد فجر أحدًا يمضغ طعامه بذلك التأنّي. ترقد بحلول منتصف الليل تمامًا. تنام نومًا عميقًا كبنتٍ صغيرة خالية البال. وعندما تنهض فجر صباحًا، تجد أن دادا قد أعدّت الشاي لنفسها وجلست على الشرفة المظلّلة بالأكاسيا. تجلس وقد خلعت شبشبها، ومدّدت ساقيْها صوب الدرابزون الرخامي، وشردت نظراتها نحو البعيد.

أدهشت فجر الضيفة في جلسة الخياطة الثالثة، ببراعة أناملها وهي تقطب وتحبك وتخيط وتضيف تطريزات جديدة على أبدان الدمى التي انصلح حالها. علّقت دادا وهي تتابع إبداعات أنامل فجر على حواف ثياب الدمى:

«كم أنتِ بارعة!». وعندما رفعت فجر نظرها نحوها، حدّقت دادا في وجه فجر، وأضافت: «أنت فتاة قويّة يا بنت! لذلك من الواضح أنكِ استطعتِ التكيف مع الظّروف».

احمرّ وجه فجر، وطأطأت رأسها، فقالت الضيفة:

«بل ارفعي رأسك، أريد أن أرى عينيك الواسعتين المشروحتين إلى فوق، يسميهما الصينيون عيون التنين. وهؤلاء عادة محبوبون وصادقون. كان ملوك الصين لا يُدخلون إلى بلاطاتهم إلا ذوي العيون التنينية، أما ذوو العيون الثعلبية أو الصغيرة فيبعدونهم عن البلاط، يزرعونهم على الأسوار كعسكر وحرّاس. وفي وجنتيكِ البارزتين دليل على حكمتك».

عندما صمتت الضيّفة ضحكت فجر ضحكة لم تعرف مثلها منذ أن فقدت والديها.

بعد الانتهاء من تصليح دُماها، حملت الدمية تلو الأخرى وراحت تقصّ على فجر قصّة كلّ منها. تجرّأت فجر المندهشة على سؤال دادا: «لماذا كلّها قصص غير مكتملة؟».

من دون تردّد قالت دادا: «لا تكتمل القصص إلّا بالموت. فلنترك ثغرات ما في قصصنا، فلا نروي كل شيء. نخبّئ أسرارًا ونُشهِر أكاذيب، نلعب، كما الحياة. الحياة لعبة، ومن يأخذها بجدّية يخسر، ويعيشها كمأساة، ويتلقّى خسائر متتالية».

كانت كلمات تلك المرأة أشبه بكلمات الروايات، تنطق بها شخصية حيّة أمامها، متخَمة بالتجربة، تتحدّث كمنجِّمة، تخيط الدمى وتنظّف أدوات زينتها. تفعل كل شيء بشهيّة: تأكل بفرح كما تغنّي، وكما تمشط شعرها وتعتني بدُماها.

في ظهيرة اليوم الثاني لقدوم دادا، لمحتها فجر وهي تمتطي ظهر فرس وتغادر بوابة القصر وتختفي عن الأنظار. يراقبها عن بعد سائس الخيل

الأسمر المربوع الذي تسمع صوته فجر مرات كثيرة خلال النهار. بدا أنه كان غير واثق من شيء، أو بدا نادمًا لأنه سمح لها بامتطاء أحد الخيول، لكنه يعرفها ولا يستطيع أن يرفض طلبها.

سمعت فجر قبيل الغروب بقليل جلبة قريبة وطَرقات على البوابة. فتحت لها ودخلت وهي تقول: «مساء الخير يا فجر، رجاءً، شاي، شاي بالقرفة». صوتها كان قاطعًا ومتوترًا، فيه شيء مكتوم وغامض.

بفرحٍ جهّزت الشاي وبحثت عن الضيفة. كانت أوّل مرّة تسمع اسمها على لسان تلك المرأة الخرافية، كانت نغمةً مختلفة. لمحتها تجلس في عتمة الصالة الكبيرة شاردةً تنظر في الحائط. لم تخطئ فجر، وجهها كان مبللًا بدموعها. وانتبهت أنها كانت تنظر إلى صورة «فهرية».

قصدت فجر الشرفة وحملت إليها فانوسين ضوؤهما متّقد، ووضعت الشاي بعناية فائقة. كانت تهم بالعودة إلى أعمالها عندما استوقفتها دادا وطلبت منها أن تشاركها الشاي. لم تنطق المرأة بكلمة. مسحة الحزن كانت واضحة على ملامحها.

انتصف الليل، تفرّست فجر في صفحة السماء، رطوبة دبقة، وحرّ أوائل الصيف. نهضت الضيفة من مكانها وطلبت من فجر أن تحضر مناشف وتأتي معها.. لم تستطع فجر أن تعارضها. أول مرة تخرج من القصر، لكنها شعرت بنوع من الثقة طالما أنها مع دادا التي كانت تتحوّل ليلًا إلى شخصيّة خرافية، مثل تلك الملكات اللواتي تحكي

عنهنّ عرّافة أنطاكية. قصدت بركةً يغذّيها نبع يخرج ماؤه من أحد تجاويف الصخور التي تشرف على الرياض فجر، التي كانت تتبعها، أصابتها دهشة جعلتها تكتم شهقتها وهي تراها تتعرّى أمامها من دون أيّ خجل وترمي بنفسها في الماء. تسبح بينما تنتظرها فجر قرب ثيابها، وقد أكل الرعب قلبها وعقلها وأعصابها. تتذكّر لحظة أُزهقت روح روزا بسكين بكري في بقعة قريبة من هنا. نعم حدّدت ببصرها بستانًا تتصدّره أشجار رمان. هناك طُعنت روزا حتى الموت. وعلى بعد أقل من عشرين مترًا هنالك ساقية تسوِّرها عيدان القصب، حيث اختبأت معظم الليل.

خرجت دادا من الماء بجسد مصقول أفعوانيّ كأنها واحدة من تلك الحيّات التي تؤويها القلاع. تناولت المناشف من ذراع فجر المندهشة والخائفة.. تنهّدت وسألت: «آه يا أمي أين أنتِ؟»، ونظرت نحو فجر: «أتعلمين قالت لي أمي مرّة: عندما يجافيك النوم، يا ابنتي، عليكِ أن تفكّري باحتمال أنكِ تسلكين الطريق الخطأ. الأرق علامة أكيدة على أن هنالك خطأ كبيرًا في حياتك عليكِ أن تتخلّصي منه. وذلك صحيح يا فجر الحلوة، كان عوني خطأً. والحياة في قصر منجوك خطأ». قالت كلماتها وهي تجول بنظرة متأسّفة على شيء غامض. أدارت عينيها في كل رياض القصر، كما لو أنها أرادت أن يسمعها كل أفراد العائلة، الموتى منهم والأحياء. لا تعلم فجر لماذا شعرت كأن الضيفة تخاطب فهرية أرشدان التي ماتت غرقًا، والتي تردّد اسمها كثيراً على لسانها.

صمتت دادا. لاحظت أن الشابة الصغيرة التي أمامها لا تعرف شيئاً أكثر من تلك الأخبار التي يتناقلها القرويون عن سكان قصر منجوك. كانت تريد أن تقول لأحد ما كيف أن موت فهرية جرحها، وموت بدرية أحزنها، كلتاهما ضحيّة لابنَيْ عمّهما. وحكت لها بعض تفاصيل عن الحياة السرّية لهذا القصر.

أنهت دادا بمساعدة فجر في مساء اليوم الثالث تجميل دُماها. أخبرتها دادا أنها ستغادر في الصباح أرض الشهوات السرية، والندم، والحزن. ستذهب إلى حيث الشهوات لا تختبئ، ولا ندم. ستبتعد عن كل ما له علاقة بمنجوك.

عاد البيك في مساء ذلك اليوم. لاحظت فجر أنه بدا هادئًا. ثم رأته يذهب الى القبو ويعود حاملًا معه زجاجتي نبيذ وهو يمسحهما بمنديل. فتح القنينة الأولى وجلس إلى مائدة العشاء قبالة ضيفته. غدت كل الأعمال على كاهل فجر. معظم فتياته رافقن فريدة خانم أفندي إلى أنطاكية، ومن ثم الى أزمير، حيث قررت الخانم الأم أن تعيش وتعتني بالولدين بعد وفاة ابنتَيْها؟ وتعيش في ظل فكرة لطالما ظلّت تقلقها: فكرة أنها بقيت بعد موت توأمتها!!

اكتفى البيك بفجر وحدها تقدّم له إفطاره كل يوم مع الفاكهة والحليب وتلك المأكولات الطازجة التي يجلبها البستاني كل صباح ويضعها أمام الباب، إذ منع على أيّ من الرجال الذين يعملون في حدائق القصر وبوائكه واسطبلاته من دخوله. وعند الظهر تجد أمام الباب ديكًا مذبوحًا

ومنتوفًا، أو دجاجة، أو بطة، أو كمية من اللحم مقطّعة. كان عليها أن تخبز الخبز وتسجر التنور، وتغسل الملابس وتكويها وتنشّيها. وتُبقي الموقد مشتعلًا لتسخين الحمام وأرضيته الحجرية. ترتّب الصالة البرّانية والسرير، تلمّع تلك المرايا الكثيرة المعلّقة على الحيطان، تطوي المناشف والشراشف وتلفّها وتنسّقها في سلال القصب المزينة بالخرز. ومع أن الأعمال كثيرة، إلّا أن فجر اعتادت عليها ونظّمت عملها بطريقة جعلتها غير منزعجة.

كانت فجر فرحة بوجود الضيفة، وبما قالته عنها. أرادت أن تحضّر طعامًا مميزًا. استعانت بالأشربة المخزَّنة في قبو المطبخ، حيث كانت قد عثرت على قلل زجاجية وأخرى فخارية محكمة الإغلاق، فيها شراب الرمان والمشمش. كان كل شيء موجودًا وبوفرة كبيرة: الدبس بأنواعه والسمن والعسل والفاكهة المجفّفة من تين وزبيب ومشمش. انهمكت بإطعام البيك وضيفته وتلبية احتياجاتهما.

28

تلك المرأة.. تلك الليلة!

ستبقى تلك الليلة راسخة في ذاكرة فجر. فهي توقَّعت كل شيء من تلك المرأة التي يمكنها أن تنتهك أي قانون، وأن تخالف أي قناعة، وأن تراوغ كل ما يمكن أن يعتقده المرء بشأنها. حاولت أن تراقبهما عن بعد، لكنها غفت جالسة على سريرها. ولم تكن تعرف الوقت عندما فزّت من إغفاءتها على ضجَّة غريبة. كانا هناك يتمرّغان على الأرض غير عابئَيْن بالشرفة المفتوحة. ينقضّان على بعضهما كما حيوانَيْن متوحّشَيْن تجذبهما النشوة بقوّة وحشية. صراخ محموم ومتلذّذ وشَغوف. رغم العتمة تبيّنت حركة جسديهما كما لو أنهما شرعا بقتل بعضهما البعض. تردّد صدى الكلمات الفاحشة. غدا جنون انتشاءاتهما مرعبًا، وهما يعيدان الكرّة. كان كيوان نصفَ عارٍ وهو يرفع فستانها بحيث يجمعه عند رقبتها ويمسكه بأسنانه التي تضغط على رقبتها، بينما رفعت هي قميصه، كما لو أنهما كانا على عجلة ولا يمكنهما تأخير ذلك. يندفع فيها بكل ما منحته الطبيعة من ذكورة وفحولة. لم تحُل العتمة بين عيني فجر وجسديهما الخرافيين وهما يتضاجعان ككائنين عثرا على بعضهما بعد غياب سنين.

عمّ هدوء بعد تلك العاصفة. نزعت دادا عنها ملابسها وهي تضحك وتردّد إحدى كلمات أغنية لم تسمعها فجر سابقًا، تقول كلماتها: «أنا لولا.. أنا لولا». يقلّدها البيك ويتجرّد من كل ثيابه، ثم

يجلسان عاريَيْن، يحمل كل منهما كأسه، كحبيبين في جوّ رومانسي على جزيرة معزولة.

مضت أقل من نصف ساعة عندما رفعت دادا كأسها وأدارتها على فمها ورمتها من الشرفة فارغةً وانطلقت خارجة تركض. انتفض كيوان وراح يجري وراءها. اختبأت فجر عن نظر المجنونَيْن اللذين خرجا فجأة من بدن كل من البيك ودادا.. رأت دادا وهي ترمي بنفسها في البركة خلف القصر وكيوان يرمي بنفسه وراءها، ويغرقان تحت الماء لوقت جعل فجر تخاف. لكن فجأةً رأته يرفعها من الماء عارية إلى أعلى من رأسه ثم ينزلها بين ذراعيه ويحتضنها بقوّة جعلت ضحكتها تفرقع في صمت آخر الليل.

أين الهدهدية لترى شام وعشيرة؟ وهي ترى ما يجري هيمنت على فجر تلك الخرافة التي سمعتها مرارًا عن مضاجعة «شام» لـ«عشيرة» ألف مرّة في هذا المكان بالذات. إنها رهبة الخرافات تأجّجت غامضة، فجأة. شيء مجنون وانتقامي، كأن كل مبرر وجودهما هو هذه اللحظة بالذات. تبادلا القبل النهمة في عتمة الماء الذي اصطخب، وسمعتهما يتبادلان كلمات الجنس الفاحشة، ثم ماجت البركة بحركة جسدَيْهما إلى أن بدأ سعارهما يهدأ.

إنها أثر خرافة المكان. وإلّا كيف تفسّر ما يحدث الآن؟! أصابها الذهول عندما سمعت دادا تناديها بصوت عالٍ طالبة منها أن تحضر لهما منشفتَيْن!! إذًا كانت تعلم تلك المرأة الرهيبة أنّ فجر تراقبهما!؟ لم تكن فجر قادرة على فهم المشاعر

التي انتابتها تجاههما. لكن لا بد أن الغيرة واحدة منها.

اعتاد البيك وطأها كل يوم تقريبًا. يقاربها بقسوة ولا مبالاة. لكنه لم يقبّلها قط، يكتفي ببضع عضّات متشهية على عنقها أو ظهرها. أو يضربها بكفيه القاسيين على مؤخرتها. تفكّر في معاملته لها وهي تسمع صوت القبلات المحمومة التي أغرق بها جسد تلك المتوحِّشة. صدى قُبَل صريحة شغوفة مفضوحة. يقبّل كلٌّ منهما الآخر كمن يُشْفي غليله من شيء مجهول. تحوّلت دادا إلى نيزك حارق يفتّت قسوة كيوان الصخرية. بدا كما لو أنّ رعشة جماعهما ستولّد تضاريس جديدة في المكان، فيها تشكيلات جنسية. ألمْ يقبِّل «شام» شفاه عشيرة الحلوة كالرمان كما تروي الخرافات؟ وبسبب عنف تلك العاطفة نهضت جبال وانشقّت وديان ونبتت غابات!! راقبتهما عن بعد وهما يسبحان ويضحكان، متفلّتان من أي حشمة أو حياء، فلا يحسبان حسابًا لأي شيء. كما لو أنهما يُخمِدان توقًا أسطوريًا اختزناه طويلًا حتى جاء وقت تفجّره.

أضاءت نجمة الصبح السماء التي بدت قريبة، وانداحت مجرّة درب التبانة من الشمال إلى الجنوب. ووقفت عائلة من البوم، تراقب الكائنين النهمَين وهما يتمازحان في الماء، ثم يكملان نزوتهما من دون أيّ تحفّظ أو خجل. إنها عين «عشيرة» جنيّة الحبّ، سعيدة بكل تلك الشهوة المتفجّرة من جسدَيهما. تحت أنظار طير البوم حاكمة الليل وعرّافة الأرواح، وساحرات،

ومشعوذات، متنكّرات، يبصرن الأحلام التي تعبر مملكة النوم.

غمرت الحيرة فؤاد فجر، فبحدود خبرتها وتجربتها، وعلى الرغم من كل روايات الحب التي قرأتها، لم تستطع أن تجد صورةً تشبه ذلك الشبق الذي تفلّت بعنف من شخصين بدا لها أنهما متباغضَان.

هل كان «الانتقام» هو الخلفية الفاتنة والمغوية؟

مرّت ثلاثة أيام على ذلك الجنون الذي لم يتوقّف. يتناكحان طوال الليل. ينامان بعيد الفجر. يصحوان بعد ساعتين تقريبًا يشربان القهوة والحليب وما تعدّه لهما فجر من أشربة وفاكهة. ويخرج كيوان قليلًا خلال النهار، ولا يلبث أن يعود.

صار السيد المتغطرس، مرِحًا، يبادل الضيفة القبل كلما التقيا خلال النهار، وتبادله قبلة أشبه بالالتهام. كأنهما بتلك القبل يتحضران لما سيفعلانه في الليل.. عندما يعود يتمدّد محتضنًا الضيفة التي غدت تنام كل أوقات الظهيرة، ويغفو إلى جانبها. تصحو دادا قبله تستحمّ وبمساعدة فجر تحضّر المائدة وتنتظره حتى يستيقظ.

كانت فجر طوال هذه الأيام مصابة بدوخة لم تفهمها، بينما يتصرّف كلاهما كأنها غير موجودة. لكنها في اليوم الثالث صارت تشعر برتابة ثقيلة لما يحدث كل يوم. ولم يعد ما يفعلانه يبعث على الذهول الذي شعرت به من قبل، فكانت تنام.

حتى إنها لم تستفق عندما نادياها في آخر ليلة.

استيقظت دادا في وقت أبكر من المعتاد في صباح اليوم السادس لمجيئها، واليوم الرابع لجولاتهما الغرامية. استحمَّت وثبّتت شعرها القصير بدبابيس مزيّنة باللؤلؤ. وراحت تُنزل حقائبها من دون طلب مساعدة من فجر التي شعرت بنوع من الراحة لرؤية أن هذه المرأة الذئبة ستغادر. لكن شعورها لم يكن فيه كره. بل وجدت نفسها تنبري لمساعدتها بلطف كبير، بل بمودّة. وقبل أن تغادر دادا غرفتها تركت صندوقًا صغيرًا من الموزاييك، وقالت لها إنه يحتوي أدوات زينة ومشابك شعر غالية الثمن، إضافة إلى فرشاتين للشعر ومشط من الخشب المنزَّل بالفضة، ومرآة لم تر قط فجر بمثل روعتها. دفعت لها الصندوق وهي تمسّد على شعرها كما يمكن أن تفعل أم مع ابنتها، وقالت: «لقد أتعبتك، لكنني سررتُ بك وبمساعدتك». ثم أمسكت دادا بوجه فجر بين يديها، وقالت: «ذكية يا بنت، أنتِ ذكية، تتقنين الصمت في الوقت المناسب! نعم، نعم، للصمت قوّة كبيرة. إنه يغلّف الأشياء التي نحبّها ويحفظها بعيدة عن الشرور. لكنه ضعف عندما يكون علينا أن نرفع الصوت».

كانت دادا تطقطق بكعب مدبّبٍ عالٍ لحذاء أسود مزين بإبزيمات ذهبية برّاقة. وفستان فضيّ من الدانتيل المفرغ برسومات نباتية بهية ولامعة.

بدا البيك متوقّعا ذهابها عندما تقابلا إلى مائدة الإفطار. أخبرته بصوت خفيض، كمن يخبر بسرّ خطير أنّ الأتراك ينوون إصدار قرار رهيب سيقضي

على ثروات العرب من الأقليات من مسيحيين ويهود، ولن يستثني المسلمين الذين لن يقبلوا الخضوع للحكم التركي. سيفرضون ضريبة جائرة بحيث يعجز أصحاب الأملاك عن تسديدها فتصادَر أملاكهم.

ردَّ عليها بابتسامة، رغم دهشته الواضحة من الخبر، كأنّه يقول لها إنه يعرف من أين جاءت بتلك الأخبار. فهو يعرف أنها ستذهب لتتزوّج من حبيبها الذي صار في منصب كبير.

ودّعت دادا البيك بعد ثلاثة أيام من الجنون. وبينما يقفان أمام باب القصر، سمعتها فجر وهي تقول له ما أدهشها: «أودّعك، وأتمنى لك السعادة. لا يمكن لما حصل بيننا أن يتكرّر. لا أظنّ أننا سنلتقي مرة أخرى. اختر امرأة حنونة امنحها الحب لتستطيع أن تحتمل العيش معها فلا تنتهي وحيدًا.. من جهتي أنا ذاهبة إلى الحب. إنه آخر الرجال في حياتي. آمل أن تجد آخر النساء في حياتك.. تعلم أن ما حدث بيننا كان شهوة مؤجّلة، تفاحة نضجت وانتهى كل شيء. لا يمكن لما حدث أن يحدث مرة أخرى! لن نلتقي، سنسلك طريقَيْن متعاكسين. لتكن سعيدًا...». ثم أطلقت ضحكتها الرنانة التي تخرج من جوفها كما لو أنها صدى لرنين فضيّ خالص.

لم تفهم فجر من أين تأتي بتلك القهقهة المتناغمة مع هيئتها. هل يمكن للفولاذ أن يكون بهذا الجمال. يبدو أنها أخطأت بوصفها بالذئبة، ليست ذئبة ولا ظبية ولا زهرة ولا فراشة ولا طيرًا جميلًا... إنها خليط من ثعلب وطاووس قُدّا من

معدن صلب.

سُمع صرير الحصى، تحت العجلات، بينما تحرّكت عربة المرسيدس السوداء وانطلقت بعيدًا عن نسور تيخا وبجعات عشيرة وفهود باخوس وهيجانات نهر العاصي وتنانينه النزقة، وقواربه الليلية المخيفة التي تحمل الأرواح إلى مملكة سفلى عميقة ومجهولة.

غادرت تلك المرأة المختارة. لتكمل حياتها كامرأة متلذّذة، سعيدة ومتفوّقة بسبب روح الحيّة التي تأويها بين ضلوعها. عادت في الوقت الملائم إلى ذراعيّ مهتيار ظفر الذي عاد من ألمانيا منهيًا دورة الاستخبارات، وعُيّن قائمقامًا في أيالة أزمير.

29

لعبة النهاية مع القمر

في العام 1944، عندما أصدر البرلمان التركي قانونًا تُرفع بموجبه الضريبة الجائرة التي طالت أبناء الأقليات في تركيا الحديثة، كان سيزار الفايز من بين الذين قضوا بسبب سوء المعاملة، في محاجر مدينة «اسكيشهر».

إنها لوثة القمريين، جعلته يصاب بالعناد أمام تعنّت لجان الفنيين الحكوميين التي تدخّلت في تشكيلاتها أيدي الأمن والمخابرات التركية، فنتجت عنها لجان لتقدير قيمة العقارات المملوكة من الأقليات، قامت بتقديرات جائرة على نحوٍ متعمَّد بحق هذه الأقليات، وقضت بسحب المعترضين إلى معسكرات التشغيل.

هكذا وجد سيزار الفايز نفسه معتقَلًا مع أكثر من ألف شخص حالهم كحاله، يشقّون الطرق في مدينة أرضروم؟

لم يجد إلى جانبه أحدًا عندما اعترض على سلبه كرومه وأقبيته؟! أصرّ على البقاء في أرضه، ولم يحذُ حذو جاره اللدود كيوان بيك ويذهب إلى حلب. راهن على تدخّل الفرنسيين لحماية الأقلية المسيحية! لكن كان رهانه خاسرًا!

ها هو الآن يضرب الحجارة مُهانًا، مذلولًا، متّهمًا بما لم يفكّر به! كل ما أراده هو أن يبقى في عرزاله يجترّ حِكم وأقوال غلوريا سونينو، ويتذكّر عناقات وجنون وجسد فهرية المنجوك. لكن حتى هذا لم يُترك له، وعاد منفيًّا ومسجونًا ومحكومًا

بالأعمال الشاقّة! بسبب عقيدة لم يتمسّك بها يوماً؟!

تصدح حناجر المحكومين بالأعمال الشاقة: «آمان فاطمتي، روحي، وردتي..». تختلط صيحات الآمان ويا ليل يا عين.. مع أغاني أم كلثوم، وروزا أشكنازي وماريكا نينو، وكل تلك الأغاني التي مَنع أتاتورك إنشادها، وشاركه الديكتاتور اليوناني متاكيس، ليجمع الطرب ما أراد العسكر تفريقه..

ربح التعصّب الديني ومات سيزار.

الصخور، نساء باكيات حزينات كما تقول إحدى خرافات أنطاكية. إنهم أقلّيات وعرقيات وهويات وانتماءات فرّقها جنون الهويات وجمعها سحر الخرافة.

يبكي المنفيون في المعسكر، يهودًا ومسيحيين، كلّما ضربوا صخرة. يبكون ماضيًا عاشوا فيه معًا وتآلفوا على الرغم من اختلافهم.

من يحرّرهم من ذلك الماضي الذي يقول إن الصخور هي نساء متباهيات ببطونهنّ رمتهنّ تيخا العذراء القاسية التي لم تحبل قط، بسهام قاتلة، ورأفة بهنّ حولتهنّ إلى صخور. لماذا هو بالذات بعد أن خلّصته امرأة من السخرة في إحدى جزر إيطاليا، تنتهي حياته في أرضروم يقدّ أجساد نساء تحوّلن من التباهي بحملهنّ أو بلذّتهنّ المسروقة إلى نساء حزينات. لم يمت من الإرهاق، مات من حزنه مع كل ضربة فأس في أبدان الصخور التي كانت أجساد نساء عشقهنّ ولم يكذب. في لحظاته الأخيرة قطع الشك باليقين.

لم يعد مرتابًا وشكاكًا بإمكان تحقيق العدالة، وبأن هذا أحلام أنبياء، وحسب. أصبح متيقنًا بأن هذا العالم محكوم بالفوضى والحماقات.

حامت النسور. لاحقته نقمة تيخا التي لم تكن على وفاق مع باخوس. أثار حنقها بإبداعه. صنع خمرًا تنسي البشر همومهم. لم تسامحه تيخا على اختلاس ذلك الوقت من الزمن. تعدّ الزمن ملكًا لها، تكره المتباهين. يعترف أنّه اعتدّ بنكهة نبيذه الفاخر. حذّرته الوالدة مقبولة أفندي من التباهي بخمر دنانه: «تذكّر جزاء «عيدو» صيّاد أنطاكية الوسيم الشهير!!»، كيف ينسى الصيّاد الخرافي الذي اصطاد وعلًا بقرونٍ من ذهب قدّمه أضحية لجنيّة الحب عشيرة. فمنحته بالمقابل قوسًا مذهلًا مع جعبة سهام مزيَّنة بريشة نادرة لا تحترق، يزعم البعض أنها من رمش طائر الفينيق الذي لا تناله النار، وتبقى تلك الرموش في رماده، ومنها ينهض ويولد من جديد. اشتعلت تيخا غضبًا وطلبت من «عيدو» قوسه وسهامه لكنه رفض. عرضت عليه الذهب والفضّة فرفض، منحته شجر غابات الفرنلق وظباءها فرفض، جرّبت تيخا معه كيد النساء، أغوته بكل ما تملك من غواية امرأة وراودته عن نفسها، لكنه أعرض عنها. كان «عيدو» يجهل غضب المرأة حين تعرض نفسها ويرفضها رجل! فأرسلت عليه نسورها وأكلته حيًّا. ماتت الوسامة والفتنة، وحزنت الجبال والغابات والسهول والمياه سبع سنوات. عوقبت الأرض التي شهدت مقتله بالجفاف، والعوَز والجوع.

كيف تورَّط سيزار مع تيخا؟! لماذا أصابته لعنة الهدهد؟ لم يصوّب يومها فوهة بندقيته إلّا نحو نيشان في حديقة منجوك. لكنه اتُهم بقتل الهدهد كاتم أسرار تيخا. لم يفهم أن ورطته ليست في قتل الهدهد! وتيخا تعلم أنه لم يقتله. لقد تورّط مع تيخا في تلك اللحظة التي اقتطف فيها القبلة المتشهية من عنق فهرية. لم يعرف أنّ عوني رآه، ورأى الحفرة التي حفرتها تلك القبلة في كل مسامه من ارتجافة وحمرة وجهه. ولم يعرف أن عوني، الماكر الخبيث الداهية، البارع في الرماية، الذي لم يهزمه أحد في دقّة تصويبه، هو من أسقط الهدهد؟ ودفعه أمام قدمَيّ سيزار وهو يقول: «قتلت هدهد تيخا! ستصيبك بلعنتها».

ولأن ما نصدّقه يحدث لنا فقد حلّت عليه لعنة الهدهد الملفَّقة، لكنه عاد وتحدّى تيخا، وبعد سبع سنوات عاد إلى وطنه يبحث عن تلك الفتاة.

يُقال إنّ نسر تيخا لو شمّ رائحة الطيب، هرب أو مات! لو كانت غلوريا سونينو إلى جواره الآن لكررت له «إن للحبّ رائحة طيّبة». يعجز الآن عن الحب! فمن أين تأتي رائحة الطيب ليهرِّب نسر تيخا الساعي إلى قتله!؟

كان آخر ما رآه ذرّات تدور في الفراغ. ويتذكّر غلوريا وهي تردّد بعض حِكَم اليونان: إننا نتاج لعبة هذه الذرات الصغيرة. مات وهو يراقب ذرات الغبار ويدرك أنه بموت فهرية انفرطت ذراته ولن تجتمع مجددًا بهيئة إنسان جديد.

تتلألأ مياه العاصي، نهر سوريا العنيد. يهوي

سيزار على الحجارة، يضرب، هو الذي ضربه الحزن في عمق العمق. ينحني ويهوي بفأسه على صدر الحجر فلا يترك أثرًا. كيف له، هو المهشَّم، أن يهشّم صخرة؟! مات وعلى وجهه ظهر تاريخه كله: استهزاء مجنون، ولا مبالاة متشرّد، وابتسامة سكير. متورِّم، كغريق، لفظته أمواج البحر. متشنج كمشنوق، محتقن كمغدور بخنجر في الظهر.

تظهر سونينو وتطمئنه. تندسّ فهرية، كشبح، وروح. لا مرئية كمجهول يريد أن يخبر عن حطام سفينة. وتخبره بأنها لم تتركه، وما زالت تعشقه.

ينعطف نهر العاصي، يتذكّر دعسة قدم أنثى بهية مهيبة. يصدح، يحمل ذكرى بعينها: فهرية في لحظة فرح مع سيزار. ستكون فهرية مرشدته في عالم الهدوء والموت والفراغ. لا شرٌّ ولا ألم. تمكّن كيوان من تدبّر أمره، قُبيل سلخ لواء اسكندرون عن سوريا رسميًا. لم يكن قد أقنعه كلام عوني من قبل، لكن ما أسرّت به دادا، كان من مصدرٍ موثوق. من الرجل الذي سيكون له دور كبير في ضمّ اللواء. هكذا باع ابن منجوك معظم أملاكه واشترى بدلًا منها في حلب ومحيطها، مساحات واسعة من الأراضي المزروعة بالفستق الحلبي. ودخل شريكًا في معملين ينتجان أجود وأفخر أنواع النسيج، وكان هو أوّل من استقدم إلى حلب ماكينة تصنع الطيّات في الأقمشة، حين سادت موضة التنّورة المكسّرة «بليسيه»، وصارت كل سيّدة تريدها في خزانتها.

30

سيدة «القَدَر»

اختبرت فجر مشاعر جديدة. عندما ينفكّ فجأة خيط الحياة، ويبدأ كلّ شيء من جديد، ستحملنا الحياة بعيدًا. بعيدًا عن لحظة حاسمة بعينها، لكنّ، الذاكرة لن تكفّ عن مكرها، ستسحبنا نحوها، كما يسحب موج البحر الغرقى.. ظلّ كل ما حدث في تلك الليلة الممطرة ملفوفاً بالصمت. لم تنبس ببنت شفة. صمتت.

صمتها وحده، في ذلك الليل الرهيب، غيّر مجرى حياتها خارج أيّ تصوّر كان يمكن أن يخطر ببالها. ثمة شيء خفيّ أسكتها.

لم تأت على ذكر اسم روزا. وهو لم يبدر منه ما يدل على علمه بشيء عن صديقتها التي ذُبحت أمام ناظريها بسكين بكري.

لم تنس قط كيف وقفت منبهرة، أمام المحلات الفخمة الكائنة في شارع السرايا الذي حاصرت جانبَيه مقاهٍ وفنادق ومطاعم ونوادٍ ومصارف. تجوّلت كسيّدة مسلمة متدثّرة بالقماش وملفّعة بالفوال الأبيض، في ذلك الدرب الذاهب جنوبًا الذي يدخل في أحشاء أنطاكية حيث الجوامع والمدارس والكنائس. قضت فترة حملها وهي تتمشّى في تلك الحدائق التي تحاذي الطرقات الذاهبة إلى طوب بوغاز، وطرق أخرى تمتدّ حتى تصل إلى السويدية.

بعد وفاة بدرية، استقرّت الخانم الأم مع حفيديها في أزمير، وواظب البيك على زيارتهم

مرة في كل شهر. وبعد فترة قليلة انتقل هو إلى أنطاكية وأخذ معه فجر التي غيّر اسمها إلى فايزة، وجعلها تعتنق الإسلام. وطويت كلّ صفحة من حياتها السابقة كفتاة مسيحية تنعت باللقيطة، وابنة يبرق الزانية البلهاء وإسطفان الأحمق.

كان منزلها في أنطاكية غير بعيد عن دار البرق، التي يتردّد عليها القرويون كثيرًا لإرسال برقيات وتلقّيها من أبناء أنطاكية المغتربين. هناك تشمّمت عن بعد أخبار قرية «نيكال»، واستطاعت التقاط خاتمة قصّة روزا التي عُثِرَ عليها مقتولة على تخوم قريتها. سحب جثتها بكري القذر ورماها هناك. بينما اختفت جثة الفتاة فجر.

ذهبت تخمينات البعض إلى أن جنوداً من الحامية الفرنسية-السنغالية فعلوا ذلك.

كانت فجر هي الشاهد الوحيد على فِعلة بكري، ولأنها اختفت، نجا من الإدانة. لم يعلم أحد من قرية نيكال، قط عن مصير فجر التي اختفت في الليلة ذاتها التي وُجدت فيها روزا مذبوحة وجثّتها ملقاة على تخوم القرية. وقد استقرّ لدى أهل القرية أن فجر أيضاً لاقت المصير نفسه عندما عُثر في مستنقعات القصب القريبة على شالٍ كانت تتلفّع به ليلة اختفائها.

ماتت صديقتها روزا مثلما ماتت أمها يبرق. جناية مجهولة سيغمرها الزمن بمَدّه. تلاشت حكاية كِلا الميتتين في صندوق حديدي يغطيه الصدأ ولن يغري أحدًا بفتحه، وسيُنسى كل شيء. تموت النساء في هذه البقعة من الأرض،

كما ينفق عصفور، لا أحد يكترث أو يدقّق في الأسباب، فالتهمة جاهزة: اغتصاب، عهر، خيانة... وهذه كلّها تحتاج إلى التستّر عليها، لا التحقيق فيها..

لم يعرف البيك قط عن حقيقة أن روزا أُزهقت روحها على مشارف بستان عزبته، ساعية إلى لقائه! بل الأرجح أنها لم تخطر على باله. كان جلّ ما اعتقده بشأن وجود فجر وراء الأسد الرخامي الذي يحرس بوابة قصره أنها تسللت بهدف السرقة، وقد أنقذها جمالها. لعب القدر لعبته وأخذ صفّ فجر التي انعقد لسانها، وصمتت عمّا تعرفه.

كان صمتها في البداية سببه صدمتها وخوفها، لكن حالما سحبها البيك ورماها تحته، وعصفَ ذلك الشيء العنيف بين فخذيها، صمَّمت أن تصمت عن تفكير. خضعت فجر تمامًا لقدَرها. لم تعترض، واستسلمت. نفَّذت ما أراده ذلك الرجل القاسي. علمت أنها أعجبته، وأن الوقت ملائم فقد يخدمها الحظّ الذي بعثر كلّ أوراق آل أرشدان وطيّر روزا مع الريح البعيدة، ليتدفق حظّ فجر اسطفان كنبع لا يوقفه شيء! قد يكون هذا هو «الحظ» بعينه.

هذه هي الحياة، يمكن لكلّ شيء أن يبدأ من جديد، فيجلس القدر على العتبة مستريحًا كعجوز، ويسمح لك أن تلعب، وتتنفّس، وتسبح بأمان في بحيرة الزمن الغامضة.

حلب والكوثرات

غادر عوني. فعل مثل حبّار البحر، أطلق حبره وبث

العتمة، ليهرب مع حصته وجزء من حصة فهرية. أما كيوان، فعلى الرغم من قراره إبقاءَ ولديه في أزمير ليكملا دراستهما، اختار أن يبدأ حياة جديدة في حلب. وصلت فجر إلى الشهباء وهي في شهرها الأخير من الحمل. وهناك ولدت فجر ابنتها.

لم تنس فجر تلك السنة التي تغيرت فيها حياتها كما لم تتوقع. إنه العام ١٩٣٩، عام انسلاخ لواء اسكندرون عن سوريا. كان الابتعاد عن أنطاكية خيارًا وحيدًا أمام البيك الذي كان ينظر إلى انتفاخ بطن فجر، ويعرف أن مصيرهما بات واحدًا. حافظ البيك على هيبته كسيّد. اختار تلك الشابة الذكية والشهية والبارعة في كل شيء لتعيش معه. تكون زوجة لبضع دقائق عندما تضطجع تحته في الفراش، وتكون بقية الوقت خادمة تعيش باحترام. وهذا سيسمح لها بأن تتحرّك كزوجةٍ لرجل معتبر وتعرف كيف تستفيد من وضعها. أما هو فعندما لا يسافر لزيارة ولدَيه، يقضي معظم وقته في لعب البريدج في نوادي الأرمن، مستنزَفًا كلّ الاستنزاف، بسبب اللهو والشرب..

حاول، وبمكابرة منسجمة مع طبعه، أن يسبح ضدّ التيّار. لكن هذا كان صعبًا، فالأمور تغيّرت كثيرًا، وحلب ليست ضياع الفلاحين التي كانت تخضع لأمره.

قبل خروجها، أحرقت فجر معطف روزا. وقفت أمام لهيبه ودموعها تنهمر. تخلّصت من آخر خيط يربطها بذلك الماضي، وهي تدرك ألّا شيء

يمكنه أن يمحو روزا. كانت فتاة مهانة بالفقر لم تعرف من الحب أكثر من كونه لذّة جامحة تذلّ الرجل، شراهةً ونهمًا، وشرًّا لا يمكن للمرأة أن تحتمله إلّا لأجل البقاء.

كانت تعرف أنه لا يمكن محو ذلك الماضي. وأنّ عليها أن تخرج من عمق الجروح. ها هي الآن تغادر ذلك الماضي. تتهيأ لاستقبال فرحة ستملأ حياتها.

فرشت فجر المنزل بالزهر. أغرقت الشرفات وكل الأركان المشمسة من دارة حي السبيل الحلبي الواسعة بكل أصص الزهر. حضّرت لولادتها كما يفعل أهالي الريف، الشمسيون والقمريون على حد سواء. ستحضر ولادتها القابلات السبع. يسمّيهن الأهلون: «الكوثرات». جنيّات، خفيّات رحيمات، تحوم أطيافهنّ ساعة الولادة. تريد فجر أن تستدرج الصغرى «دامكتو»، فهي الأجمل، لتمنح المولود جماله على قدر رضاها من الورد وروائحه في المكان. تتخلّف «دامكتو» بسبب استغراقها في النوم لتحافظ على حسنها عادة. وحده العطر يجذبها، لهذا تُكثر الحامل من الزهور لتضمن حضور الكوثرة الصغرى، ليكون المولود فاتنًا.

حضرت تعاليم الهدهدية. فهي أخبرتها أنّ بدرية خانم أفندي تلقّت هدية من خالها الثري جدًا في أزمير بانيو من الفضة؟ ضحكت الهدهدية وقالت لها وهي تشعل سيجارتها: «من قال إن من يأتي إلى الدنيا يحتاج إلى بانيو من الفضة؟! إنه يحتاج إلى الحظ. عندما يكون عفريت الحظ في صفنا،

يكفي».

أشعلت فجر ثلاث شمعات وسمّتها على التوالي: يبرق، روزا، مجيدة. أي لكل شمعة اسم وعمر، والشمعة التي تشتعل أكثر من غيرها، وتكون آخر شمعة تنطفئ يحمل المولود اسمها. الغريب وكما لم تتوقّع فجر، كانت الشمعة الأكثر اشتعالا هي التي تحمل اسم «مجيدة». إذًا، أرادت الكوثرات أن تحمل الحفيدة اسم الجدة التي لم يُكتب لها عمر طويل؟! أذعنت فجر للخيار القدَريّ ومنحت الطفلة الشقراء الوليدة اسم «مجيدة»، والدة كيوان وزوجة صادق باشا، التي قتلت قبل سنين طويلة في طريق عودتها من زيارة لنبع في جبل باريشا. صدَّقت فجر أن البنت مجيدة ستعيش طويلًا. كان يُقال في العزاء: «البقية في حياتكم»، ومجيدة خانم عاشت قليلًا، وستكون البقية في حياة حفيدتها.

يتحرّك الزمن. وفي كل زمن هنالك لحظة يُفتح فيها القمقم وتمنح المارد المحبوس فيه حرّيته. لم تنس قط ابنة إسطفان بينما مرّت الدودج فوق نهر قويق، حيث أشجار الدلب المعمّرة. تحت أغصانها تنتشر المقاهي التي تضجّ بالرجال الذين تميّزهم طرابيشهم الحمر، يتحدّثون أو يتبادلون رمي النرد. بينما النساء، بوجوهٍ مزيّنة، يشربن العصير المبرّد. تراقب الأعين أذرع السبّاحين يتنافسون برمي أجسادهم في مياه النهر الباردة، ويقفزون من غصن دلب عال.

جالسةً تقرأ وتشعر بذلك الشيء الذي تمنّته دادا لكيوان قبل افتراقهما: «السعادة». نعم،

السعادة عندما تُعاش، ويُحَسّ بها. شعور فاتن ولا يمكن للعقل أن يتحكّم به. غدت على يقين بأن السعادة ليست شيئًا تحصل عليه تلقائيًا من مجرّد توفّر رفاهية العيش. إنما هي شمس خفية دافئة تشرق في النفس، تتجوّل بين القلب والأحشاء ومسامات الجسد لتستقر أخيرًا في العيون. قطعت فجر دربًا موحشًا وعرًا حتى بدأت بالشعور بها. كل الحكايات التي سمعتها من الهدهدية، وتلك التي قرأتها في الكتب، تدور عن الحرب والحب. يخطر ذلك ببالها وهي تقرأ هوميروس. عنده تعرفت على حبّ متكبِّر، خطر، فتّاك، هائج. ذُبحت طروادة بسببه. الحبُّ يُفني ويبني المدن والحضارات! فكيف يمكن أن يفعل بالبشر!؟ لم تكن تريد أن تكون كاثي مرتفعات ويذرينغ، أرادت أن تكون جين آير. أتقنت اللعبة. بفضل العوَز والفقر تعلّمت الحياد والصبر.

31

حلب 1959

قفزات الظباء

كانت كل الأمور تسير على ما يرام في حلب.. إلى أن لاحت مشكلة تأميم المصانع والأراضي. كان قد انصرف كيوان إلى أعماله وأشرف بنفسه على مزارع الفستق التي اشتراها. فصار يقضي هناك أيامًا كثيرة. كما يزور ابنَيه في أزمير حيث جدّتهما فريدة خانم أفندي التي وجدت عزاءها بوجودهما بقربها. حافظ كيوان على زياراته لخالته وزوجة عمه الوالدة فريدة حتى بعد أن غادر الشّابان إلى أميركا لإكمال تحصيلهما العلمي. وظلّت تلك البلاد تجذبه إلى ماضٍ ليس من السهل نسيانه. أخذ الأب ابنته مجيدة عدة مرات إلى أزمير. عرّفها إلى أخوَيْها قبل سفرهما إلى أميركا لإكمال دراستهما. أما مجيدة فستختار لاحقًا دراسة الطب في فرنسا.

جاء زمن غدت فيه فجر كما حلمت ذات يوم وهي تقرأ الكتب في عتمة الكنيسة. حملت لقب مدام أرشدان منجوك. تُعرف باسم فايزة. تغيّرت حياتها حالما وصلت إلى حلب. سمح لها البيك بمواكبة الموضة. أراد بدوره أن يتنقل برفقة امرأة ملفتة أنيقة جميلة. لم يعلم أحد من هي بالضبط. اخترعت بضعة أكاذيب صغيرة تنقذها من مأزق «من هي؟!». كيف لها أن تخبر الناس قصة تلك الليلة الرهيبة التي انتهت عند بوابة منجوك؟! سمعت كلامًا كثيرًا في نوادي حلب عن

«تحرّر المرأة»، عن الحق في الاقتراع والتعليم والمساواة بالرجل. تتبّعت بدّقة صفحات مجلّات «آل وفوغ وجاردان دامور». رأت كل ما يُعرض في السينما، شاهدت السيقان الخرافية لبريجيت باردو وصوفيا لورين ومارلين مونرو، سيقان دكت آخر القلاع الذكورية. رغم ذلك ظلّت فجر تعتقد بأنها قابلت امرأة أهم من كل النساء اللواتي شاهدتهنّ في السينما أو في المجلّات. فهي تعرف تلك المرأة الصيّادة العابثة والحرّة التي زارت القصر لتستعيد دُماها، امرأة واحدة تعلو عندها على كل نجمات السينما. مهمٌ أن تمتلك المرأة حقوقها المدنية، لكنْ، ثمة حق سرّي وخطير، إنه إغواء رهيب لم تجرؤ فجر يومًا حتى على التفكير فيه، لكنها تستعيد بريقه كلما تذكّرت تلك «الرهيبة» في منجوك. امرأة امتلكت حريّة مرعبة، مخيفة، متّقدة، حرية امتلاك الخيارات في الحياة الحميمة، حرية تمليها عليها أهواؤها.

تلبّي فجر دعوات مختلفة لمناسبات متنوعة. في تلك الفترة كانت أعداد من الأرمن قد استقرّت في حلب. تشعر فجر نحوهم بتضامن المطرودين. في أحد أعيادهم جمّدتها ضحكة فضية رنانة تعرفها جيدًا، ضحكة انزرعت في أذنيها قبل عشر سنوات. كانت هي. حيّة قلعة بغراس الخرافية، «دادا». لم تصدّق نفسها وهي تقترب تلقائيًا ومن دون تفكير وتواجهها بابتسامة عريضة وتلفظ اسمها: «ست دادا!؟ ابتسمت دادا وهي تخلع قفازَين من الشامواه البني وتهزّ برأسها متسائلة! لم تخطئ، دققت فيها دادا واندفعت تأخذها بين

أحضانها: «أنتِ هي بنت قصر منجوك الفاتنة، ما أحلاكِ!!». عرفتها رغم التبدل الكبير الذي طرأ على هيئة فجر، والشعر الأسود المسحوب إلى الخلف، والمثبَّت بأمشاط باهظة الثمن، والفستان الذهبيّ اللامع الطويل، وتلك الحقيبة الصغيرة من الخرز الأسود التي علّقتها على مرفقها.

التقت المرأتان. غدت فجر امرأة ناضجة ومختلفة. ما الذي تفعله دادا في حلب؟

استلهمت فجر حياة «دادا» وشخصيتها عن بعد، وبصمت. لم تعلم قط دادا مقدار التأثير الذي أحدثته في حياة فجر. كانت المرأة التي تركت أعمق أثر في نفسها. لم يكن من الممكن أن تقلّدها. إنما، بذكاء استثمرت فجر مميزات دادا كأنثى واثقة، تسير إلى هدفها، ولا يهمها ترك أثر في النفوس. تعلّمت منها، جعلت من كل ما قالته لها في تلك الأيام القليلة التي قضتها في منجوك، دليلًا لخطواتها. لم تنسَ قط تصرفات وكلمات وحكايات تلك الضيفة الفريدة.

نعم، «الحياة مراوغة». تردّد فجر لنفسها كلام دادا بعد كلّ تلك السنوات. تتابع الصحف التركية والمجلات لتلتقط صورها. تتابع أخبار عدوية ظفر التي تمتلك سلسلة من مصانع «الدمى» باسم «دادا»، التي صارت علامة تجارية مشهورة! لم يعد شعرها قصيرًا مقصوصًا إنما طويلًا ومرفوعًا فوق رأسها. ينبعث منها جمال امرأة صنعت حياتها، حقّقت أحلامًا وتكبّدت خسارات، لكنها لم تقدّم قلبها قربانًا. ظفرَت بمن تحب، وحقّقت الكثير مما رغبَت به. ما أقلّ النساء اللواتي امتلكن المطرقة

التي تكسّر وتطحن كل ما قد يعيق خط سير عربتهنّ «الحياة». إنه وجود نادر وصاعق وساحر. نساء من سلالة مردة أنطاكية.

أرشد النداء الداخلي الذي يلتقطه الإنسان عبر بحر الصمت، فجر، في كل التقاطعات الحاسمة في حياتها. وكانت «دادا» واحدة من الرسائل القدرية التي قرأتها بذكاء. فهمت فجر مع «دادا» الإبليسية الدهاء، أن «الجمال» يتجاوز الشكل الجميل وحده. إنه بهاء ليس له عمر، شيء فردوسيّ ينبعث من العيون، حضور وطريقة حياة، وتفكير. لم تجادل فجر النساء المأخوذات بما يشاهدنه في السينما والمجلات. احتفظت لنفسها بسرّها الخاص عن امرأة لو كلّمت أحدًا عنها لاعتُبر أنها تتحدّث عن خرافة.

أخبرت فجر دادا، كيف أنها تتابع صورها وأخبارها، تقرأُ ألاعيبها الذكية في عينيها الذئبيَّتين. تحضر في ذاكرتها وتحرّضها على التمرد على كيوان الذي رأته كيف يتحوّل بين يديها. كيف سيخطر له أن دادا التي أفسدت فهرية، أفسدت فجر أيضًا. دفعت فهرية ثمنًا باهظًا وهي تستقي نموذج دادا وتهرب من كيوان المتسلّط إلى ذلك العزال. لكن فجر المعتادة على القسوة، والتي قضت طفولتها وهي تشقّ طريقها بين الأدغال التي تجتاحها الخنازير البرية في النهار وتجوسها الضباع ليلًا، والتي استطاعت أن تخرج من حفرة الغزال، لم تهرب. علّمها الفقر والعوز كيف تحتمل، فهمت الدرس وتعلّمت من دادا لكنها لم تقلّدها. بعد يومين فقط من مغادرة

دادا القصر، غامرت وصفقت الباب في وجهه وهو يأتي ليطأها. رفضته، أفهمته أنها ليست دمية. أدهشته بصلابتها. على خطى فهرية، وبتعاليم دادا، ها هي فلاحة ابنة امرأة خرساء، وراعٍ مجنونٍ، تغلق الباب في وجهه.

شعرت فجر بينها وبين نفسها، أنه لولا تلك المناورة لما تزوَّجها، ولكان مصير جنينها سلة مهملات الطبيبة البولندية.

ما الذي أحضر دادا إلى حلب؟

كانت مفاجأة مدهشة لفجر. حكت لها دادا، بتأثّر عميق، أن ما دعاها لهذه الزيارة هو ما عرفته عن حياة أمها: «الزنبق؟».

رافقتها فجر، وسهلت لها لقاءً مُرًّا على قلب دادا، تأجل لسنوات طويلة. قابلت جدتها لأمها وأعادت لها أمانة كانت قد احتفظت بها الزنبق أكثر من أربعين سنة.

جاء وقت علمت فيه دادا كيف أنها لم تقوَ على ربح رهان في تحدٍّ مع أمها.

ظلّ كل شيء سرًّا عدا بعض الخطوط العريضة التي عرفتها دادا عن أصلها من فم أمها.

تعلم أن أمها من يهود حلب. وأنّ أباها مسلم سوري من اسكندرون. جمع الحب قلب الاثنين، وفرّت الزنبق مع الرجل الذي أحبّته، وكان يملك محلًّا لتأجير العربخانات. ويعمل بالتهريب من دون أن تعلم ذلك الزنبق. هرّبت معه، وقطعت كل شيء له علاقة بماضيها. مات الزوج برصاص الجمارك التركية بينما ألقي القبض على الزنبق

مع حمولة أسلحة مهرَّبة، للأرمن. لم يكن زواجهما مسجَّلًا ولا شرعيًّا، وحصلت الطفلة التي ولدت في السجن على كنيتها من صاحب الحانة المالطي، ذلك العجوز الذي أغرم بالزنبق ومنحها كل الأوراق الثبوتية اللازمة والمعمودية. لم تخبره الزنبق قط أنها يهودية.

أخيرًا، عرفت عدوية زيغول القصة المخفيّة لسيرة سيدة ليل أنطاكية المدعوة بالزنبق:

اسمها الحقيقي «ليز طوطح»، ابنة طبيب معروف ومحبوب جدًّا في أرجاء مدينة حلب. متخرّجة من الأَليانس. بزغ نجمها في أمسيات صالون مريانا مرّاش، واشتهرت ببراعتها في العزف على القانون وحفظها المعلّقات السبع، وأشعار لامارتين ورابليه. عاشت أجواء صالون مريانا بكل ما فيه من ذائقة وفن وثقافة ولقاءات، تخلّلها لعب الشطرنج والورق والمسابقات الشعرية والغناء والعزف ورقص السماح.

نشأت ذكيّة وواثقة وشجاعة في كنف عائلة تعلي من شأن العلم، ولا تفرّق بين أبنائها وبناتها. نظرت إلى دينها وكل الأديان نظرة خالية من القداسات. ذلك شيء تعلمه جيدًا دادا. لم تر أمّها تقوم بأي طقس ديني. تكرّر: «الإيمان هو العمل». ظلت قناعاتها صلبة ومحسومة حتى النهاية التي أتت قبل شهرين من لقاء فجر بدادا في حلب.

عقب سلخ لواء اسكندرون وإلحاق أنطاكية بتركيا، حزمت الزنبق حقائبها بعد أن باعت فندقها

وبعض الأملاك الصغيرة، وغادرت إلى أثينا. سكنت إلى جوار مغنيات وراقصات هن صديقات شبابها، أرمنيات ويهوديات هربن من تركيا. هكذا تقاعدت من الحياة، تعطي دروسًا في الموسيقى والغناء والرقص لبنات الذوات لأجل تسلية نفسها، وتبذل كل ما تستطيع من مال ووقت مع الجمعيات الخيرية التي تهتم بأطفال المهاجرين والمنفيين. أنقذتها خلال الحرب الكبرى الثانية أوراق المعمودية من مصير اليهود الحزين. وكرّست جهودها لمساعدة بعض المغنيات من صديقاتها اليهوديات واشترت لهن أوراق المعمودية لتنقذهن من المحرقة. بعد انتهاء الحرب، عاشت أيامها بسلام وتناغم مع قناعاتها في الحياة، تلعب الورق والشطرنج وتدخّن وتقضي أوقاتًا طويلة في تحميص القهوة وخلطها، وحوّلت دارها الواسعة إلى مدرسة تعليم رقص رسمية.

أصيبت بذات الرئة، وبعد أسبوع من مرضها أرسلت برقية الى ابنتها التي تعيش في اسطنبول مع زوجها مهتيار ظفر، الذي هزم الزنبق وخالف كل نظرياتها عن «مرض الحب». تزوّج من عدويّتها الصغيرة الجميلة وباركتهما وهي تقول: «ذئبان، نعم ذئبان تلائمان بعضكما البعض».

وصلت الرسالة إلى عدوية: «سأموت، تعالي يا ابنتي». وصلت عدوية وكانت أمها ترقد في فراشها بوجه شاحب وثغر مبتسم. إلى جوارها صندوق من الموزاييك لم تره دادا من قبل.

احتوى الصندوق على كؤوس من الفضة. تلك

الكؤوس هي ما يسمى عند اليهود كؤوس الكيدوش، يتناولون فيها مباركة يوم السبت الذي لم تكترث له الزنبق يومًا. تكون هذه الكؤوس مزينة بعبارة بالعبرية تقول «مخصص للسبت المقدس».

كانت دادا لأول مرة في حياتها ترى دموع أمها. على الرغم من كل ما مرَّ بهما لم ترَ أمها تبكي. فهي بكت عن عمرٍ بكامله عندما فقدت زوجها، وفي السجن وهي تفكّر في حالها وحال ابنتها التي وُلدت هناك.

فوجئت عدوية بدموع أمها، لكن الأم أوضحت لها أنها لا تبكي بسبب الخوف من الموت إنما بسبب الحنين. لم تقل إنها نادمة، وأكدت لابنتها أنها رغم كل ما حدث كانت سعيدة بالحرية التي عاشتها، فنحن «إما أن نكون نساء مطيعات تعيسات، أو حرّات وسعيدات». لكن لتلك الكؤوس قصّة.

أوصت عليها جدتها لأمها من دمشق، وكتبت على قاعدتها أول أحرف اسمها «ل. ط.»، تلك الهدية التي اعتادت الجدّات تقديمها لحفيداتهن لتكون فألًا جيّدًا لحياة زوجية سعيدة. تعلّقت الزنبق كثيرًا بجدتها خلال طفولتها. وعندما هربت من دار أهلها حملت فقط صندوق كؤوس الكيدوش هذه. بعد هروبها بأسبوع واحد، وربما بسبب صدمته من هربها، توفى أبوها الذي كان طبيبًا معروفًا في كل حلب، يطبّب الفقراء مجانًا يوم الجمعة. وقد خرج في جنازته أكثر من أربعة آلاف مشيّع. وكانت جنازته حدثًا، وبكاه عدد كبير

من أهل حلب.

طلبت الزنبق من دادا أن تعيد الكؤوس إلى دارة أهلها، وأن تتعرّف على خالها الذي كان يدرس في لندن عندما هربت، والذي غدا بدوره طبيبًا معروفًا في حلب.

لم تنسَ عدوية ذلك الصباح الذي توفيت فيه أمها. لم تكن تستطيع الكلام، وجحظت عيناها الصغيرتان اللتان اعتادت تكحيلهما بكثافة لإبرازهما. أومأت لعدوية وهي ترقّص حاجبيها وتبتسم وترفع اصبعين: تريد سيجارة. أشعلت لها دادا واحدة ووضعتها بين إصبعيها. كانت السيجارة آخر أمنيات تلك المرأة العنيدة. نفثت مع دخانها كل مشاعرها وذكرياتها وعواطفها، كل ما في قلبها. ستتذكّر دادا طويلًا منظر أمها وقد أغمضت عينيها مرة واحدة وإلى الأبد. حتى وهي ميتة تلوح تناقضاتها وملكاتها: حاجبان مقطّبان، وطيف ابتسامة خفي على ثغرها.

لم تفرّط قط في صلابتها وتقطيبة حاجبيها فوق عينيها الذكيتين، لم يتميّز وجهها بكثير من الجمال، كان عاديًا: شفتان رقيقتان حازمتان، عينان بنيتان صغيرتان، وجه يميل إلى الطول مع ذقن عريضة يتوسّطها انبعاج عميق شكّل أكثر ملامحها وضوحًا، ويتخلّله خال نافر إلى جهة اليمين أسفل فمها. تكوّم شعرها الأجعد الأسود الغزير فوق رأسها، فيزيد من طول قامتها الهيفاء. أجمل ما فيها قامتها وقدّها الرشيق، أما أهم صفاتها، فكان ذكاؤها الذي تدعمه ثقافتها الواسعة. كانت كلما مشّطت شعر عدوية

الخرنوبي وجدّلته تنظر إلى وجهها وتحضنها وتغمرها بقبل الأم الشغوفة، وهي تقول: «نذلة ورثتِ كل وسامة أبيك، جنَّنني وجعلني أترك الدنيا وأجري وراءه ثم مات. الحقير، غدرني».

أخبرتها دادا كم فرحت عندما عرفت كل هذا الماضي، وكيف كانت مشاعرها حميمة وهي تزور مدينة أمها، حلب الشهباء.. وتتعرّف على خالها وأبنائه. كم بكت، وبكى الجميع، بكت كثيرًا لأن جدتها لأمها كانت قد توفيت قبل عشرين سنة بداء الطاعون. علمت أن مريانا مرّاش حافظت طوال حياتها على ارتداء اللونين الأسود أو الأبيض، فهمت دادا أخيرًا لماذا اختارت الزنبق ثيابها من هذين اللونين. هذا البكاء جعلني أرتاح، غسل كل زعلي من أمي، وأراح رأسي من أسئلة كانت تحيّرني وترفض أمي أن تجيبني عنها لأنها تعتقد بأنها بهذا تحميني، بينما الواقع هو العكس. الآن أنا أحبها أكثر من أيّ وقتٍ مضى...

التذكّر والنسيان، عفريتان لا يمكن الإمساك بهما. متعايشان في القمقم ذاته. يشكّلان أجمل ألغاز النفس البشرية.

صادفت زيارة دادا إلى حلب مدينة أخوالها عيد «روش هاشاناه»، وهو عيد السنة الجديدة عند اليهود. شاركتهم طقسهم بتناول مربى التفاح لتكون السنة حلوة كالعسل، وبعد ذلك أكلت الرمان لعمل أعمال صالحة، ثم البصل والفجل الحار كي تكون السنة مُرَّة على الأعداء، والقرع الصغير كي يغفر لهم سوء الظن، ثم رأس الخروف المطبوخ مع المرق وهم يدعون الله أن يجعلهم

في رأس مساعيهم لا في ذيلها.. استضافوها برحابة صدر ولطف بالغ. أعادت كؤوس الكيدوش إلى دار جدها كما تمنّت أمها. كانوا يتحضّرون للهجرة، فلم يعد مرغوبًا بوجود اليهود في حلب بعد أن أعلن اليهود دولتهم في فلسطين. مرّت حوادث مؤسفة دفعتهم لبيع مالكاناتهم والشروع في الهجرة. كان ذلك آخر عيد روش هاشاناه لعائلة طوطح في حلب.

بدا الماضي مثل ردم، يستدعي الكثير من التخبط للاستدلال على الطريق السليم. تحدّثت المرأتان دادا وفجر وعلى الطاولة أمامهما، كتاب باللغة الفرنسية: بعنوان «صيّاد أنطاكية».

كان الكتاب قد صدر حديثًا في باريس، وطلبته عدوية عبر البريد، فقد كان لديها شكوكٌ بشأن الرواية التي تحمل اسم أنطاكية. قرأتها، ووجدت أنها قصة عائلة منجوك. وعلى الفور عرفت من هو الكاتب. إنه عوني الخبيث واللعوب!؟ وضع اسمًا آخر: «مراد أزدمير أوغلو». من خلال طريقة السرد حسمت المرأتان أنه عوني، وقالت دادا إنه ردّد مرارًا أنه سيكتب قصّة عائلة منجوك. كتبها، لكن خلف الأكاذيب التي سردها كانت الحقائق التي لا يمكن أن يعرفها غيره..

تتذكّر دادا كم كان يكره كلمة «الحقيقة؟!». فيقول: «يا لها من كلمة مخاتلة؟ من يمكنه أن يمسك «حقيقة» ويكتبها، هذا وهم، الحقيقة هي.. ما نرويه؟ أما تلك الحقيقة المختبئة في الوقائع! فلا أحد يعرفها». يعلم أن للأدب قدرات رهيبة، سواء قرأناه، أو كتبناه. فكتب هو وزوّر

وحرَّف.

الظبية هنا

منذ تلك الزيارة الخاطفة لدادا قبل سنوات إلى قصر منجوك، ولدى فجر سؤال احتفظت فيه لنفسها حول تلك الظهيرة التي غابت فيها دادا عن القصر. غادرت على ظهر حصان وعادت متعرِّقة وباكية، لتتسمّر أمام صورة فهرية، وجلست تبكي بحرقة في عتمة الصالة قبالة تلك الصورة.

لربما كانت ستصمت دادا إلى الأبد، ولن تبوح بشيء تعرفه، أخبرها به سيزار الفايز في تلك الظهيرة عن موت فهرية.

مشت كلٌّ من فجر وضيفة حلب، دادا، في حي الجميلية، وفي ذات اللحظة توقّفت المرأتان أمام واجهة محل ديكران للتصوير. كان أقدم وأعرق مصوِّري مدينة حلب. تأتي بعض اللحظات الكاشفة، بهدوء، تطفو فجأة مثل كنز كشفت عنه عوامل الطبيعة مصادفة. كنز أخرجته عاصفة عابرة. أصابهما ذهول من الحزن والمفاجأة وهما تواجهان عينا فهرية بالذات.

لقد وجد المصوّر الأرمني أن صورة هذه السيدة قويّة وفي وجهها وسيمائها المترفّعة قوة جذب، فوضع صورتها كترويج لصنعته وأبرزها بين الصور التي يعرضها في واجهته. إنها الصورة ذاتها التي زيّنت قصر منجوك ذات يوم. وبكت قبالتها دادا عقب عودتها من لقاء سيزار.

أغمضت دادا عينيها وفتحتهما. فعلت ذلك أكثر من مرّة.

صمتت دادا كل تلك السنوات لأن الزنبق غرست لديها قناعة مفادها أن الحقد لا يثمر، ولا يزهر. لا ينجم عنه سوى المزيد من عتمة القلق وتشويش الخوف، وأن حياة بلا ضغينة شرط للسعادة. والحياة تكون بائسة إذا تركنا لنبتة الحقد أن تعرِّش بين أضلاعنا.

خيّم الماضي كشريك مخادع أمام صورة فهرية، يغيب تارة ويحضر تارة أخرى. تحوّل الزمن إلى عصفور حطّ فجأة وعلى أهبة أن يرفرف ويغيّر الغصن والشجرة والمكان. لربما أحد ملوك أنطاكية الذين يلعبون بمصائر أبنائها، طاف في المكان وهمس: «لنتوقّف قليلًا ونتحدّث».

فهرية، هنا؟! أيتها الظبية في أيّة غابة من أحراش الزمن تقفزين؟ كل المصادفات لاغية. هذا لعب. هذه فتنة! نحن عبيد، لسنا سادة شيء. هذه إشارة وابتسامة غامضة مجهولة المصدر، طيف ربة من الربات. من يرمي ورقة رابحة سيأتيه وقت يرمي فيه ورقته الخاسرة. من يلعب الآن؟ لماذا اختار المصوّر الأرمني العجوز صورة فهرية بالذات لتتصدّر فاترينة محله البلورية؟ أيكفي الجمال!؟ بعين المصوّر الخبير اعتقد بأنه صور وجه ربّة!؟ ابنة سرّية للملكة المشتعلة عشيرة؟ أية قوى متضاربة حرّكت الزمن وأنعشت أحد مسارح أنطاكية، وخرج باخوس مع عابداته وأقنعته المرسومة بالنبيذ؟ لما لا يتركنا، هؤلاء الأرباب، ويعيشون في نعيمهم، وينسوننا؟ أم إننا نمنحهم باضطرابنا سعادة غريبة، سعادة كتلك التي ترميها الظلال على أعشاب كادت تيبّسها الشمس. مَنِ

القمريون أو الشمسيون؟ هنا، الآن في هذه اللحظة.

من دون أن تنظر دادا إلى فجر، كما لو أنها تلامس وحشًا نائمًا تريد مداعبته من دون أن توقظه، أخبرت فجر سببًا وجيهًا لفهم أشياء كثيرة.

«لم ترمِ فهرية نفسها في النهر، هناك من دفعها». قُتلت!

تصلصل فجأة أجراسٌ من الماضي. يبدو كل شيء فيه شرهًا لدموعنا.

لم تجتهد دادا في إخفاء مشاعرها أمام صورة فهرية. تدحرجت دموع زائغة من أعماق زمن قديم. «عندما أُخْرِجت من النهر كان وجهها وبعض أضلعها وأصابعها فيها كسور وكدمات عراك. هنالك من ضربها بقسوة ووحشية، ثم رماها في النهر لتلفظ آخر أنفاسها غرقاً».

أكد سيزار الفايز لدادا أن عوني هو من قتل فهرية ورماها في النهر. تجاهل الجميع يومها الكدمات الغامضة على وجهها، واعتبروا أن ذلك بسبب ارتطام رأسها بصخور الجوانب. لكن ليس لأي نهر قبضتان ناقمتان يمكن أن تلكما عيني فهرية على ذلك النحو. استثمر عوني الخبيث قصّة محاولتها الانتحار، وهو يعلم تمامًا أنها وقعت عن فرسها في النهر بينما تحاول عبوره عائدة من مزرعة القمريين. راقبها وكان على علم بكل شيء، بمعاونة مباشرة من بدرية.

انتقمت بدرية أخيرًا من فهرية.

بدرية التي أكلت الغيرة قلبها لسنوات طويلة، راقبت فهرية وعلمت من زوجة البستاني الذي تتبّع خطوات الخانم وتنقلات فرسها، أنها تلتقي سيزار. أخبرت بدرية كل ذلك لعوني الذي باءت مخططاته بالفشل، ففهرية التي تخلصت من كيوان بتشجيع من دادا لم تأتِ إليه، بل ذهبت إلى سيزار.

وجد فرصته في حكاية محاولة الانتحار ليتخلّص منها، ويغادر منجوك مرة أخيرة ولا يفكّر بالعودة بعدها. لحق بها في فجر ذلك اليوم الذي كانت ستغادر فيه مع سيزار الذي انتظرها ولم تأتِ.

لربما لم يكن عوني يعلم أنها كانت ستهرب مع سيزار! هل قتلها لأنه يريد أن يهرب منها!!

الأقدار!!

هل في كل حب كبير سيرة جريحة؟

32

الشفاء من الخوف

كم مرة أخذ فجر الحنين وحملها من حلب إلى السهرات في بيت المختار على ضوء مصباح الكاز، حيث تعبق رائحة الكستناء المشوية مع رائحة الشاي الخمير الذي تغلي ماؤه على السماور، واللبّاد الرطب ورائحة المستنقعات التي تحمل زنخة سمك السلور لمسافات بعيدة.

تحكي الهدهدية بينما تشرد فجر، وتنظر إلى أعمدة الخشب التي تحمل السطوح الهرَمية، وترى السحالي الصغيرة التي يحركها دفء النار المشتعلة في الدفيئة الطينية حيث يتحلّق حولها الساهرون. تجمع الهدهدية جدائلها المخضَّبة بالحناء دائمًا فوق رأسها بينما تمرّر العصبة الرقيقة فوق جبينها وتزيّنها باثنتي عشرة ليرة من الفضة وليرتين من الذهب، حصلت عليها عندما بشّرت صادق باشا بولادة توأمين من الذكور، وجاء كيوان وعوني. فتنت كل من رآها وسمعها تتكلّم عن الأقدار، وعن الحياة، وعن المنايا المبهمة. وتروي قصص ملوك الخفاء، الغامضين الليليين، الشاردين، المحظورين على بصر البشر. تخاطب شخوص قصصها، كما لو أنهم ماثلون أمامها، وتنسى الجمهور العريض المأخوذ بكلامها. كيف كانت ستروي حكاية الحبّ الذي قتل فهرية وأودى بروزا وقَهَرَ بدرية، وأحزن سيزار وأسعد دادا، وأنقذ فجر بنت الراعي اسطفان! حكاية حظ بنت اسمها «فجر»، التي تذكّرنا بحقيقة أننا لن

نعي مسارات حياتنا على هذه الأرض!؟

من سيروي قصّة عوني أرشدان وهو يقع في مصيدة الكلمات. فأراد أن يحرز ولو نصرًا ضئيلًا غامضًا على نفسه عبر حكايته عن تلك الأشياء المنسية في الأدراج الخشبية في قصر منجوك، بعيدًا جدًا، في ربوع أنطاكية. فاختلق أكذوبة، كمعونة سرية، لضميره المعذَّب بقتل فهرية؟! كتب رواية ملفقة يبرّئ بها نفسه.

«اقرعوا.. يُفتح لكم»، قالها المسيح وردّدها الخوري نوفل شعيرات كثيرًا على مسامع فجر، لكن الهدهدية قالت لها: «ما من أبواب، كل شيء مفتوح، الأبواب وهم، لا جدران ولا شيء مسدودًا بيننا وبين الله وطمأنينة هذا الكون. كل شيء مشرَّع، اذهبي يا فجر بنت يبرق وإسطفان إلى حيث أردتِ لا تستأذني أحدًا..».

توضّب فجر أمتعتها وتحضِّر نفسها لرحيل جديد وتتذكر كيف حدث وأن التقت دادا ذلك اليوم في مصادفة عجيبة في النادي الأرمني. حدث ذلك قبل سنوات، وها هي الآن أي بعد مرور سنوات على مغادرتها أنطاكية تتحضّر لرحيل آخر.

غادرت دادا حلب. أحاديثهما تركتها في مهبّ ريح تجذبها مرّة أخرى إلى مسقط رأسها، لكنها لم تفكّر بالعودة، تخاف أن تكتشف ابنتها شيئًا عن ماضيها الحزين والبائس، ابنةً لأبوين مخبولَيْن، وواقع أنها لم تعرف من هو أبوها عدا تلك الإشاعات التي تحدّثت عن طبيب افرنجي جاء على ظهر قارب ليعالج داء التراخوما. صمتت عن حقيقة ما رأته يوم مقتل روزا. خانت ذكرى صديقتها،

وأكثر من ذلك أخذت مكانها في القصّة؟

نحن لا نختار ذاكرتنا، والنسيان معجزة من وهم، فهو مؤقّت مهما فعلنا، والذكرى باقية مهما حاولنا إبعادها.

ماذا لو أخذت فجر دور الهدهدية على طريقتها هي وحكت الحكاية لابنتها! ألم تعاملها الهدهدية كما لو أنها ابنتها بعد موت والديها؟ ألم تؤرجحها عرّافة أنطاكية في مهدها؟ ألم تكن وحدها تعرف أن جنين يبرق، التي فقدت عقلها وذاكرتها بسبب القهر والخوف، كان عنيدًا وتشبث في بطنها؟

حكت لها الهدهدية كيف جمع إسطفان كل الزنابق والمسك الرومي، ليلة المخاض الذي ولدت فيه الطفلة البالغة الحسن وسمّاها ببساطة: فجر. لا بد أن أصغر الكوثرات السبع لم تتخلّف، حضرت «دامكتو» لتكون الطفلة بذلك الجمال الذي أنقذها، بينما بقية الكوثرات تَوَلّين منحها النِّعم: «الحظ، الذكاء، الصبر، الفطنة، الفصاحة والصمت».

تشكو فجر بين حينٍ وآخر ألمًا في معدتها. ما عادت تأخذ الدواء الذي وصفه لها الطبيب الذي أكّد أنها أعراض قرحة في المعدة. الطبيبة الوحيدة في رأس فجر، هي الهدهدية، امرأة تعرف سبب المرض فتداويه في مصدره: «أمراضنا تفشي أسرارنا. تفضحنا. يكشف الوجع في البدن عن حزن الروح، يومئ إلى عطب، إلى خطأ نقترفه بحق أنفسنا، بعض الأسرار تتحوّل إلى سموم تحفر عميقًا في أبداننا».

تعرف فجر أين مرضها وما هو سقّها. إنه ماضيها الحبيس في قفص الخجل. تعترف لنفسها أنها تخجل منه. ما حكته لها دادا عن فرحتها بأن أمها أخبرتها كل شيء عن ماضيها، وكيف أنها عندما عرفت ذلك الماضي الذي كانت أمها تخاف منه، صارت أقرب إليها وأحبتها أكثر، جعلها تمرض. تمرض لأنها لم تجرؤ أن تحكي ماضيها لابنتها مجيدة. فكم هو صعبٌ ومقلقٌ أن نكتب حياتنا على الورق!!

حفّزتها «دادا» مرّة قبل سنوات. دفعتها للتمرد على كيوان. تزوّجها عندما صفقت الباب في وجهه، وهدّدته بالاختفاء. وها هي مرة أخرى تحفّزها على أن تتجرّأ وتكتب دونما خوف ولا قلق.

وحكت لها ما فعله كيوان بفهرية التي ضعُفت أمامه وخافت منه، وها هي أطلعتها على المزيد من الأسرار. خاصة على ما حصل مع فهرية، القطبة المخفية في كل ما حدث. عجيب كيف فات عفاريت أنطاكية ذلك الحدث؟ تغافلوا عنه؟ ربات القدر شرسات لا يسمحن لأحد بالتدخل. في كل حكاية هنالك كلاب غامضة تشبع نهمها من أحدهم ثم تلقى بالجثة في الغابة وتُتَّهم الذئاب. يجد القدر دائمًا شمّاعته في هيئة ذئب متّهَم بشبهة لم يقدم عليها قط. نعم، الكلاب تقتل، تفعل فعلتها، وتُتهم الذئاب.

يغدو الحب المزمن، مثل الحبس الطويل الذي يخلق شخصًا ذليلًا، أو قاتلًا مجرمًا، كان عوني هو القاتل. أرادت فجر أن تكتب تلك الاستغاثة التي

لم يسمعها أحد، استغاثة فهرية وهي تطارَد للمرة الأخيرة. لا بد أنها أطلقت صرخة يائسة لم يسمعها أحد يمكن أن يشهد ويتكلّم، وهي تُرمى في مياه النهر الباردة الهادرة. وحدها عفاريت أنطاكية شعرت بذلك العنفوان الذي هدرت به مياه العاصي. كان سعيدًا.. هنالك من ألقمه امرأة. ابتلع قوام أنثى له سطوته حتى لو كان مجرّد جثة.

اعتقد عوني أنّه ختم على ماضيه بشمع أحمر من خلال الكتابة؟! ماذا لو أن فجر خرّبت له لعبته.

منذ أن تخطت مجيدة عمر الطفولة وهي تسأل أمها عن أقاربها!! أليس لكِ أخ أو أخت؟ تسأل عن جدّيّها، كيف كانت حياتها في أنطاكية؟ تحكي لها فجر حكاية لا تشبه وقائع حياتها. تخاف أن تحمّل ابنتها عبء الظروف القاسية التي عاشتها. لكنّ شيئا صلبًا وجامدًا يظلّ عالقًا في حلقها وقلبها وعقلها وضميرها. كيف ستحكي لها أنها صمتت عن قاتل روزا لتنقذ نفسها؟ وكيف ستحكي لها عن الأبلهين، وعن كونها لا تعرف من هو والدها؟

فجر التي هربت من ماضيها خجلى من تلك الطفلة التي قايضت جسدها بالحلوى والطعام، والكتب التي قرأتها، مثل اللص وهو يتسلّل في الظلام الدامس. حوّلت تلك السنوات إلى علب مغلقة بمفاتيح.

عاشت متنكّرة لماضيها برمّته، ها هي مثل ممثلي دراما باخوس، مثل نجمة إغريقية تخلع قناعها وتغسل وجهها من ألوان النبيذ، ودخلت

عبر لحظة لعب تنكرية مغرية، وبدأت كتابة مخطوط لمذكّراتها، هكذا ظنّت وهي تكتب وتكتب، هي التي عرفت قيمة الكتب مبكرًا في حياتها. عرفت أننا عندما نقرأ نكون كمن يخرج خلسة من الباب الخلفي إلى حديقة مسحورة. فقدت براءتها طفلةً في الحادية عشرة من عمرها وهي تتعرّى وتبيح جسدها لملامسات الخوري العجوز لقاء قراءة الكتب.

ستعرف ابنتها «مجيدة» الآن كل ما أخفته فجر بدافع الخجل.

***

قرأت فجر التلغراف الذي أبرقه لها كيوان من بيروت: «وصل كل شيء بأمان».

تحرّك السماء خيالاتها وذاكرتها. قِلَّة من أبناء حلب ينظرون إلى سماء ليلة من ليالي شهر آب ويفهمون ما تقوله النجوم. نعم، تتكلّم النجوم، لغتها البريق واللمعان. ظهرت النجوم في وقت أبكر بثلاثة أيام من المعتاد وكان القمر مغطى بالغيوم، كلها إشارات تدلّ على الانتقال.

تنتهي الحال بالذهب هاربًا، فارًّا، مذعورًا. وحامله كذلك. يجد كيوان بيك مرّة أخرى نفسه مرغَمًا على الرحيل. شبح التأميم والشعارات الاشتراكية. «لصوص»، كلمة كان يردّدها مؤخّرًا وهو ينظم خارطته الجديدة. قرّر ذلك منذ زار جمال عبد الناصر حلب وأذهله ثراؤها الفاحش ومعاملها.

«أعطى عبد الناصر كلمته لصائم الدهر»، قال ذلك الشاب، مهندس النسيج الحلبي المتخرّج

حديثًا من جامعة ليون، خطيب الدكتورة مجيدة التي تخرجت حديثًا من كلية الطب. هزّ كيوان رأسه بعناد أمام صهره الذي يعرف كيف أن هذا الرجل باع أملاكه في ربوع أنطاكية وفر من الأتراك والآن يفر من حماقة أبناء بلده. علّق كيوان على ما أبداه صهره من حماسة لدولة الوحدة العربية: «سوف يخربون البلد. من يقبل بإلغاء نشيده الوطني سيفرِّط بكل شيء. لا يهمني، سأبيع وأرحل، لربما حتى بيروت سأغادرها، لا أمان في بلداننا».

حذَّر كيوان صديقه صائم الدهر صاحب أهم معمل نسيج في الشرق كله. استورد أنواله من ليون وسويسرا لينتج أبهى أنواع نسيج الساتانو. قال له: «سيغدرون بك، لا أمان للعسكر، لا تصدّقهم، لعبة التأميم خطة إفقار مدروسة لتحويل الأغنياء إلى شحاذين، لن يكون مصيرنا أفضل من مصير ملّاك مصر وأرستقراطيّيها».

لم يتردّد البيك، الذي ذاق مرارة الأتراك، في الإسراع ببيع مالكاناته ونقل ذهبه إلى بنوك بيروت.

نهض ذات صباح ليلمح ضابطًا مع عسكريَّيْن يحومون حول سيارته الكاديلاك الفاخرة. راقبهم من النافذة. أطفأ سيجارته وحزم حقائبه وقصد بيروت في زيارة خاطفة ولم يعُد. تزوره هناك فجر وما تلبث أن تعثر على ذريعة تعيدها إلى حلب. لم تكن تريد مفارقة ابنتها مجيدة التي صارت رفيقتها وطبيبتها والوحيدة التي تعرف قسمًا من حياتها.

قبل أن تغادر حلب لتلحق بكيوان في بيروت وضعت بين يدي ابنتها مخطوط مذكّراتها. مذكّرات ستقرأها ابنتها بدهشةٍ وشغف. ستقرأها دفعة واحدة بين دموعها التي لن تتوقف حزنًا وفرَحًا في آن. البنت التي درست الطبّ في فرنسا، ستحتضن والدتها، ستقبّلها بعينيها الباكيتين. ستلحّ على أمها أن تنشر ما كتبت، وهي تقول: «لو تدركين كم أفتخر بكِ، انشريها، إنها سيرة مدهشة، لا تتصوّري كم تغيّرتُ أنا وكم تغيّرتِ أنتِ في نظري بعد أن قرأتها. حبي لكِ كأمي لا يتغيّر، لكن فخري بما فعلتِ يمنحني قوة أنتِ تعرفين قيمتها: أنا ابنة فجر ابنة الأبلهين إسطفان ويبرق، صرت أمتلك قوة الهدهدية ودادا».

الأم أصرّت على الرفض. حدّثتها عن خوفها، وعن خجلها، وعن ما سيتركه نشرها من أثر على صورة والدها، وحتى عليها هي... لكن الدكتورة مجيدة أصرّت أنها تفتخر بها، وحتى بوالدها الذي تغيّر... أخيرًا توصلتا إلى اتفاق أن تُنشر بعنوان: «أنطاكية»... ووقعتها باسمها المنسي: «فجر اسطفان»!!

تعبُر فجر اسطفان الحدود، السورية - اللبنانية، وتشرع الكاديلاك السوداء تقطع الطريق صعودًا قبل أن تنزل باتجاه بيروت.

حلّ المساء وأرخى الليل المرصّع بنجومه سدولًا خرافية الجمال، يظهر القمر الجديد. تفكّر مجيدة أنه القمر ذاته يبزغ الآن على أطلال قصر منجوك المهجور. تشمّ رائحة عابرة للزمن والمكان، رائحة فناء دار الهدهدية الحجرية العتيقة: صوت

طنين النحل والحشرات، رائحة الحبق والمردقوش والنعناع. ترى أمها وهي بنت صغيرة تمسك مدقّة الهاون النحاسية وتدق تلك الحشائش المجفّفة التي تصنع منها الهدهدية كرات تحفظها في أجربة من القطن. تأخذها معها على بغلتها إلى قرية مجاورة لتوصل ترياقًا ملفوفًا بقطعة قماش نظيفة لأحد المرضى بناء لطلب الحاجّة ماري كلود، كبيرة راهبات دير سيدة الانتقال. تسألها الطفلة: «هل يمكن لأحد أن يرى الله؟». وتردّ الراهبة: «إننا نراه في مخلوقاته. يرافقنا في طريقنا ونحن نذهب لمداواة مريض. نرى طيفه في كل ما هو خير وجمال. انظري، كل هذا الجمال هو من أطياف الله، من أثر سحره وجماله، الله نور في القلوب والعقول».

تستمتع فجر بتذكّر تفاصيل تلك الزيارة التي أصرّت ابنتها مجيدة على القيام بها قبل سفر أمها إلى بيروت. زيارة سريّة لم يعلم بها كيوان، ولا أحد غيرهما. لكن قد يكون عفريتًا أو إلهًا قديمًا يتجوّل سرًّا في المكان، يخبر كاتبًا انزوى في غرفته المنعزلة ويروي له قصص بشر عاشوا وماتوا، ولم تُروَ قصصهم.

تستمتع بالتخلّص من خوفها أن تكتب ما رغبت بكتابته منذ أن قرأت تلك الرواية. لقد أرادت أن تشفى من مرض القرحة، فكتبت. حالما ختمت المخطوط ووقّعته باسمها الحقيقي رمت وصفة الدواء التي كتبها لها الطبيب لتخفّف من آلام القرحة. لا قرحة بعد الآن.

احتفظ الحبّ بقدرته على النطق في كلّ

الظروف، وعبر مسار الزمن والتاريخ بفضل الحكايات، بسبب الأدب: مسرح، شعر، رواية.. الأدب حليف الأقلام. بالأدب يثأر الحبّ لنفسه.. ثمّة قطعة نافرة وحدها بقيت كتذكار أو دليل غامض على جريمة، إنه قفاز من الشامواه يحمل رائحة امرأة بعينها. رائحة حبّ مزمن. نخطئ عندما نعتقد بأن الأشياء من دون ذاكرة. علمت دادا أن فهرية لدى انتشالها من النهر كانت بكامل ثيابها، حتى الدبوس المثبت به اليشمك كان لا يزال مثبتا في أحد طرفي قبعتها. فقط ثمة قفاز إحدى يديها ضاع. تتذكّر دادا جيدًا أنها رأت القفاز بين أمتعة عوني. يومها كانت تريد طلاقها منه ولم تكترث كثيرا ولم تكن تعلم التفاصيل التي عرفتها لاحقًا عندما قابلت سيزار وحكى لها التفاصيل التي سردتها الهدهدية حول جثة فهرية. عندها تذكّرت أن ذلك القفاز يعود لفهرية. كم تمنت دادا أن يبقى احتمال أن عوني قتل فهرية مجرد ظنّ قد لا يكون بمحلّه، لكن القفّاز أخذ مكانه في القصة لتكتمل «حقيقة» لم تكن تريد أن تصدقها.

تعرف فجر أنّ عوني يكذب في سرد كل الوقائع التي حكتها لها دادا! وتشعر بأنه يكذب أكثر وهو يصف نظرة فهرية المليئة بالخوف في اللحظة التي أرغمها فيها على النزول عن الفرس التي أسرجتها لتهرب صوب حلمها.

لا بدّ أن نظرة فهرية لم تكن الخوف، بل كانت الاحتقار.

33

قصر منجوك

هنا.. أُغرِم الملك

خلعت فجر حذاءها عند أطلال بوابة منجوك. بينما وقفت الابنة صامتة مندهشة وهي تراقب أمها كيف ترتعش، وتمسح دموعها. تقف فجر وتنظر كيف ييبست البساتين.. وقُطعت شجرات الصنوبر العملاقة...

تفجّرت ذؤابات الأكاسيا صوب الأعلى مخترقة السقف كما لو أنها أغصان منتشية بشيء غامض من تاريخه. تمدّدت شجرة تين مستلقية بحزن يشبه حزن بدرية. بينما بدت أشجار الوزّال متخلّلة الغرف بزهرها الأصفر الفاقع مثل ضحكات دادا الرنانة. سيرك من العريشات التي تختزل حِيَلَ وخُبث عوني. فقط حجارة القصر صمدت. حتى إنّ فجر رأت فيها ما يشبه أطلال تلك القلاع التي تنتشر على هذه التلال..

تجوّلت المرأتان الأم وابنتها في أطلال منجوك. لا أبواب، ولا نوافذ. تلعب الريح ببضع درفات مخلّعة، ومعلّقة في نوافذ الطابق الثاني. توحّشت الأشجار ومدّت أذرعها والتهمت معالمه. خُبِّئت الجدران بأغصان متلوية ثعبانية، كما لو أنها رغبات سكانه السالفين المنفلتة. رفض كيوان بيع القصر معتقدًا أنه سيعود ذات يوم. لكن الأتراك صادروا كل ما تركه بحجج قانونية واهية. تُرك القصر وأُهمل. سُرق كل ما فيه شيئًا فشيئًا، حتى النوافذ، والأبواب، والدرابزونات.

التفتت فجر صوب ابنتها، وهي حافية، تقول مبتلعة دموع الماضي بنبرة من اكتشف شيئًا للتو: «هنا، هنا، تحرّكت أهداب الملكة العاشقة المشتعلة عشيرة، هنا ارتجفت أوراكها نشوة وانبثقت هذه التلة.. هنا أُغرم الملك، جُنّ عشقًا وفاض توقًا وحرّك الدنيا وزاد من حُسنها وجمالها. كل هذا الجمال سببه التنازع، الحرب بين الجبال والوديان سمح للأنهر بالتدفّق وتوزيع فتنتها.

«هنا، على هذا الحائط، علّقت دادا بوسترات مارلين ديتريش وفالنتينو والبقية.. وهنا كانت صورة فهرية...».

مرة أخرى إنه الحب! دوّامة ملتقى الروايات والحوريات والشياطين. لا مكان للقديسين في قصص الحب، فهو مخاض وشهوات ورغبات.. إن فُقدت فُقد الحب.

مشت فجر فوق تراب تلّة عشيرة، تحمل حذاءها بإحدى يديها، تتشمّم الجهات، هنا ماضيها وقدَرها وحكايات أرواح هائمة وحزينة. وقفت تتخيّل كل حركات دادا وطريقتها في المشي. وتحكي لابنتها تفاصيل حياة السلاملك والحرملك، والمكان الذي وقفت فيه أول ما دخلت القصر، وأماكن دمى دادا التي تكاد تسمع فرقعات ضحكاتها.

أخذت فجر ابنتها إلى حفرة الغزال، نزلت دموعها، لكنّ مجيدة كانت تعرف أنها دموع فرح. بالكاد عثرت فجر على بقايا ذلك المنزل المتداعي والمأكول بدود الزمن. منزل إسطفان الأبله، كما كانوا يسمّونه.. ذرفت دموعها الحبيسة لسنوات

طويلة، دموع تشاركتها مع مجيدة المندهشة بكل شيء.. بكتا معًا. بصوت تخنقه الدموع تمتمت مجيدة: «كم أتمنّى لو كنت رأيت المجنونَيْن. كم أتمنى لو وضعني إسطفان على كتفيه وسار بي في هذه الوهاد والجبال».

سارتا بمحاذاة العاصي وبين المستنقعات حتى وصلتا إلى بيت الهدهدية. كانت فجر سمعت أنها باعت أملاكها ورحلت إلى مكان مجهول. خمَّنت فجر أنها تعيش الآن في مكان ما بين قومها على ضفة دجلة. فهي عندما سألتها عن سبب عزلتها في هذا المكان الأشبه بجزيرة، قالت لها: «لا يمكن لامرأة تربت على دين الصابئة أن تبتعد عن الماء أكثر من أمتار قليلة». وحدها فجر رأت الهدهدية تقرأ في كتابها المقدس «كنزا ربا». لطالما سمعت أهل القرية يتهامسون بأن الهدهدية «صبِّيّة» لأنهم لم يشاهدوها قط ترتدي ثوبًا أزرق.. لم ير أحد تلك الدرجات الثلاث التي تنتهي بها إحدى مصاطب بيتها التي تصل الماء مباشرة، لتغتسل وتصلّي على طريقتها من دون أن يتلصص عليها أحد. تقف مجيدة أمام المنزل المهجور كأنها في مكانٍ تقدّسه، وتقول: «سلامٌ عليك أيتها الداية، الطبيبة، الطيّبة... أنا أعرفكِ وأعرف حكايات وأساطير أنطاكية، وكم أودّ أن أقبّل رأسك لأشكركِ على حمايتك لابنة المجنونَيْن»، وتحتضن أمها.

تجوّلت مجيدة مع أمها في السيارة. عبرتا تلك القرى التي تغيّرت ملامحها كثيرًا. تحاشت فجر المرور من قرية نيكال. مرّت بمحاذاتها. أرادت

الاحتفاظ بصورتها القديمة في ذاكرتها. سلكتا ذلك الدرب المنطلق صوب أنطاكية مارًّا من تحت برج الأختين، بينما تتراءى في الآفاق المترامية القلاع الكثيرة التي تأوي حيّات عشيرة وأفاعيها.

مرّات تتوقف مجيدة وتنزل من السيارة وتتأمل كل تلك الأماكن. تشعر مجيدة بأنها ابنة هذا النهر، وهذه المستنقعات والقلاع والحقول والجبال.. تقول لأمها:

«إنه شعورٌ غريب، أشعر بأنّ جذوري هنا، في هذه الأرض التي أطأها لأول مرة. سيأتي يومٌ أُعلن فيه من دون خجل، بل بفخر: أنا مجيدة، حفيدة المجنونين يبرق وإسطفان».

تشهق فجر وتبتسم من بين دموعها. تدفع ابنتها بلطف: «هيا بنا، يجب أن نصل إلى أزمير في موعدنا مع «عدوية زيغول ظفر، ابنة الزنبق».

انتهى

شكر

باقة ورد لأول قارئ لهذا النصّ، وأفضل ناقد:

«الناشر» حسن ياغي

لينا

14-3-2021